تاريخ اللغة العربية

في مصر والمغرب الأدنى

تأليف
الدكتور أحمد مختار عمر
أستاذ علم اللغة - كلية دار العلوم
جامعة القاهرة

عالم الكتب
٣٨ ش عبد الخالق ثروت - القاهرة ت ٣٩٢٦٤٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتوى

القسم الثانى

اللغة العربية فى المغرب الأدنى

مقدمة عامة

سبق أن صدر القسم الأول من هذا الكتاب عام ١٩٧٠ تحت عنوان «تاريخ اللغة العربية فى مصر» ضمن منشورات «المكتبة العربية» التى كانت تصدر عن الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر (الهيئة العامة للكتاب الآن) ، بالاشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .

كما سبق أن صدر القسم الثانى من هذا الكتاب عام ١٩٧١ كجزء من كتاب بعنوان «النشاط الثقافى فى ليبيا – من الفتح الإسلامى حتى بداية العصر التركى» ، ضمن منشورات الجامعة الليبية – كلية التربية .

وقد رأيت أن ضم الدراستين سيكون أكثر فائدة للقارىء ، لأنه من ناحية يظهر أن الاتجاهات اللغوية لها قوة القوانين المطردة التى لاتتخلف مهما اختلف مكان تطبيقها ، ومن ناحية أخرى يكشف عن دور مصر المؤثر فى ذلك الوقت سواء فى جانب نشر الإسلام أو اللغة العربية ، وهو دور هيأها له مركزها الاستراتيجى وموقعها المتوسط بين بلدان المشرق والمغرب .

المؤلف

القسـم الأول

اللغة العربية فى مصر

مقدمة القسم الأول

قصة اللغة العربية فى مصر من القصص الشائقة التى تستحق التسجيل ، وتغرى بالدرس . وهى – من ناحية ثانية – قصة لم تبذل الجهود الكافية – حتى الآن – لتحليلها ، ورصد حركاتها على الرغم من قدمها وطول العهد بها . وهى – بالإضافة إلى هذا – قد اختلطت بكثير من الشوائب لارتباطها من ناحية بانتشار الإسلام ، وما أكثر ما قيل عنه إن صدقا أو كذبا ، ومن ناحية أخرى باللغة القبطية ، وما أكثر ما بولغ فى تصوير أثرها على اللغة العربية سواء من ناحية الإيجاب أو السلب .

وأخطر فترة فى تاريخ اللغة العربية فى مصر ، هى تلك التى تبدأ مع الفتح العربى (عام ١٩ هـ = ٦٤٠ م) حين كانت اللغة القبطية ما تزال لغة حية يتكلمها عامة الشعب فى طول البلاد وعرضها – وتمتد لتغطى قرابة ثلاثة قرون أخذ ظل اللغة القبطية ينحسر فيها عن البلاد رويدا رويدا إلى أن تلاشى من الوجود أو كاد .

ومن أجل أهمية تلك الفترة التى سبقت أو تلت مباشرة استقرار اللغة العربية فى مصر ، وعمق الخط الذى حفرته على عربية مصر رأيت أن أخصها بهذا البحث ، وأفردها بالحديث . وقد راعيت فيما كتبت أن أتجنب التفصيلات والتشعيبات الكثيرة بقدر المستطاع ، والتزمت بساطة العرض ، ووضوح الفكرة ما أمكن ، حتى يفهمنى القارىء العادى ، ويستفيد من البحث المتخصصون وغير المتخصصين على السواء .

وقد لاقى كتابى «تاريخ اللغة العربية فى مصر» ترحيبا منذ اللحظة الأولى لصدوره ، واحتفل به الكتاب والأدباء والمؤرخون ، وتم تقديمه وعرضه والتعليق عليه فى الإذاعة والصحف والمجلات . وكان أهم مالفت نظرى مما كتب عنه ثلاث مقالات هى .

١- المقال الذى نشره الأديب الشاعر الأستاذ أحمد عبدالمعطى حجازى فى مجلة «روز اليوسف» . وقد أثنى صاحب المقال ثناء مستطابا على الكتاب ومؤلفه ، رغم عدم سبق معرفته لى .

٢- المقال الذى نشرته الباحثة السيدة فردوس عبدالمنعم فى مجلة الأدب (عدد فبراير ١٩٧١) .

٣- المقال الذى نشره الزميل الدكتور محمد عيد فى مجلة الثقافة (عدد فبراير ١٩٧٤) .

وكان مما علقت به السيدة فردوس على الكتاب أنه «سار على هدى ما كتبه الباحثون القدامى والمحدثون ، بجانب الوثائق والبرديات القديمة العربية منها والقبطية ، وتوصل بذلك إلى نتائج موضوعية بعيدة تماما عن التعصب أو المبالغة». كما اعتبرت الباحثة الفاضلة الكتاب «من أهم ما نشر فى هذا الموضوع الشائك ... الذى يكتنفه كثير من الصعاب ، بل والمتاهات بين دروب التاريخ المتعرجة من ناحية ، ثم بين حنايا علوم اللغة تاريخيا واجتماعيا وثقافيا من ناحية أخرى» .

كما كان مما ورد فى مقال الدكتور محمد عيد : «هذا الموضوع الشديد الحيوية والصلة بحياتنا تناوله كتاب (تاريخ اللغة العربية فى مصر) لباحث مصرى ممتاز هو الدكتور أحمد مختار عمر الذى هيأ نفسه للدراسة الجادة المستنيرة فى

مصر وأوربا ، وتزود من الثقافتين العربية والأجنبية وأجادهما ، ثم وهب نفسه كلية لخدمة اللغة العربية دراسة وتدريسا وتاريخا» . كما تحدث عن خطة الكتاب فقال : «المؤلف فى تقسيم الباب الأول من كتابه باحث أكاديمى ملتزم ، إذ بدأ أولا بفصل شرح فيه علميا العوامل التى تحكم الصراع اللغوى ، ثم أردفه بفصول ثلاثة تتبعت هذا الصراع وتطوره» ، وقال : «أما الباب الثانى فقد درس المؤلف فيه الخصائص اللغوية لعربية مصر ، وفيه درس المؤلف مادة اللغة العربية من خلال أوراق البردى وكتابات علماء مصر من عرب وأقباط . والتزم فى إيراد هذه الخصائص فصل مستويات اللغة الثلاثة وهى : المستوى الأدبى ، ونصف الأدبي، والعامى ، وبهذا الالتزام العلمى الشاق لبيان الخصائص المتعددة جاء هذا القسم من الكتاب انعكاسا حيا ودراسة جادة للمؤثرات الثلاثة التى تركت بصماتها على عربية مصر ، وهى اللغة القبطية ، واللهجات العربية ، وبعض المؤثرات الثانوية الأخرى ، مثل عامل النزوع إلى السهولة وتوفير الجهد ، وعامل الاقتراض من لغات أخرى غير القبطية واليونانية» .

وقد نفدت طبعة الكتاب الأولى بعد وقت قصير من صدورها ، وكان الزملاء والأصدقاء يستحثوننى على إعادة طبعه ، ولكننى كنت أؤجل التفكير فى ذلك حتى تكتمل عندى بعض المعلومات الإضافية التى تسمح بتغذية مادة الكتاب ، وتقديمها فى صورة جديدة . وكنت طوال العشرين سنة الماضية أجمع كل ما يصادفنى مما يدخل فى موضوع الكتاب ، كما كنت أسعى للحصول على بعض المراجع المتعلقة بالموضوع ، والتى لم يسبق لى الاطلاع عليها . ولعل أهم ما يستحق الإشارة إليه من هذه المراجع ما يأتى :

١- القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، للدكتور عبدالله خورشيد البرى .

٢- شخصية مصر للدكتور جمال حمدان .

٣- الأدب العربى فى مصر للأستاذ محمود مصطفى .

4- The Coptic Influence on Egyptian Arabic, by Dr. Wilson Bishai.

5- Notes on the Alleged Coptic Morphological Influence on Egyptian Arabic, by Heikki Palva.

وهكذا أتاح لى التأنى فى إعادة طبع هذه الدراسة فرصة كبيرة لإعادة النظر فيها ، وتطوير لبعض فصولها ، وإعادة الصياغة لبعض آخر .

ولا أجد ما أختم به هذه المقدمة أفضل من اقتباس العبارة التالية من مقال الزميل الدكتور محمد عيد : «وبعد : فإن هذا الكتاب الممتاز قد لبى حاجة أكيدة فى المكتبة العربية . أما مؤلفه فله جزاء العاملين الصابرين الذين يستعذبون العذاب ، ويعانون الصعاب ليقدموا لثقافتنا العربية الحديثة لبنات تضاف إلى بنائها العملاق . وحسبه أنه عرض قضية قومية جادة ، فأثبتها بفهم وعلم وموضوعية ، ودافع عنها بأصالة ومعاصرة» .

تمهيد

اللغة العربية فى مصر
قبل الإسلام

لم تكن اللغة العربية غريبة على مصر حين جاء الإسلام إليها ، فقد كان لها هناك تاريخ طويل يمتد عدة قرون قبل ظهور الإسلام ، وربما قبل ظهور المسيحية أيضا ، حين كانت وفود القبائل العربية تقصد مصر إما للتجارة أو للاستقرار .

فمن ناحية التجارة ، أشار المؤرخون إلى أنه كانت هناك خطوط تجارية برية وبحرية تصل بين مصر والجزيرة العربية . وتفيد المصادر اليونانية واللاتينية[١] وغيرها أن مدينة غزة كانت فى ذلك الوقت ميناء تجاريا هاما ، ومركزا يلتقى فيه التجار ورجال الأعمال لعقد الصفقات التجارية . وكان التجار العرب يقدمون إليه لبيع ما عندهم من حاصلات اليمن وجنوب الجزيرة العربية وشراء ما يلزمهم مما يرد على هذه المدينة من البحر من حاصلات اليونان وإيطالية ومصر وغيرها . وتشير إحدى الوثائق[٢] التى يرجع تاريخها إلى عام ٢٦٣ ق . م إلى وجود علاقات تجارية بين المصريين والعرب فى تلك الفترة النائية . ومن الثابت كذلك أن عمرو بن العاص زار مصر قبل الفتح الإسلامى بوصفه تاجرا ، وذهب إلى الدلتا ومن بعدها إلى الإسكندرية[٣] ، وأن خبرته بالبلاد المصرية هى التى جعلته يفكر فى غزوها ويغرى الخليفة بذلك ، وهى التى سهلت له عملية الفتح .

وأما بالنسبة للهجرات العربية بقصد الاستقرار ، فقد كانت هناك كثير من الموجات دفعت بها بلاد العرب إلى مصر فى العصور الفرعونية .

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ، تأليف جواد على ١٣٢/٨ .

(٢) المرجع السابق ٦٧/٨ و ٦٨ .

(٣) الكندى : الولاة ص ٦ - ٧ طبعة بيروت ١٩٠٨ ، وانظر تاريخ مصر الإسلامية للشيال ص ٥ وما بعدها .

وكان طريق سيناء قنطرة ثابتة مفتوحة للهجرات منذ القدم . ومن هذه الهجرات ما كان يؤخذ فيه رأى حاكم مصر ويتم بموافقته . وقد أشار المؤرخون إلى سلسلة من تلك الهجرات أخذت مكانها قبل الفتح الإسلامى ، ومن بينها :

١- هجرة قبائل كهلانية من عرب الجنوب ذات أصل قحطانى استقرت فى الجزء الشمالى الشرقى من مصر . وقد تم ذلك مع مطلع المسيحية [(١)] .

٢- هجرة قبائل من «طيىء» (فرع كهلانى آخر من المجموعة الجنوبية) كان من أهمها قبليتا لخم وجذام اللتان استقرتا فى إقليم الشرقية [(٢)] .

٣- قبيلة «بلى» التى دخلت مصر قبل الإسلام واستوطنت ما بين القصير وقنا . وكان عليهم الاعتماد فى نقل التجارة الهندية . وقد قدم وفد منهم إلى الرسول وأسلموا [(٣)] .

٤- هجرة بطون من خزاعة ، وهم فرع من الأزد خرجوا فى الجاهلية إلى مصر والشام لأن بلادهم أجدبت .

٥- استقرار بعض الجماعات العربية قبل الإسلام فى شرق الدلتا .

٦- وقد أشار المؤرخون اليونان بما فيهم استرابو (٦٦ ق . م) وبلينيوس (٧٠ م) إلى أن عدد العرب فى عهدهم قد تضاعف على الضفة الغربية من البحر الأحمر حتى شغلوا كل المنطقة بينه وبين نهر النيل فى أعلى الصعيد . وكان لهم جمال ينقلون عليها التجارة والناس بين البحر الأحمر والنيل [(٤)] . وقد

(١) عباس عمار : The People of Sharqiya (القاهرة ١٩٤٤) ٢١/١ .
(٢) المرجع السابق ٢٣/١ .
(٣) المرجع السابق ٢٤/١ ، وانظر شخصية مصر ٢٩٩/٢ .
(٤) انظر «البيان والإعراب» ص ٨٩ .

وصف استرابو كذلك مدينة قفط Koptos بأنها مدينة واقعة تحت حكم العرب(١) ، وصرح بأن نصف سكانها يتكونون من أولئك العرب (٢) .

٧- ذكر هيرودوت أن (٣) الأقسام الشرقية من مصر بين سواحل البحر الأحمر ونهر النيل كانت مأهولة بقبائل عربية .

٨- كانت توجد علاقات بين المصريين والثموديين فيما قبل الميلاد وبعده ، ويدل على ذلك أن مجموعة النصوص الثمودية المتناثرة الآن في المتاحف الأوربية وفي مكتبات بعض الجامعات وفي أوراق المستشرقين قد عثر عليها في أماكن مختلفة من بينها شبه جزيرة سيناء ومصر نفسها (٤) .

٩- في عهد عمر بن الخطاب - بعد فتح الشام وقبل فتح مصر - هاجرت بعض القبائل من غسان ولخم وجذام وعاملة - التي كانت تدين بالمسيحية - إلى مصر ، واستقرت هناك في الجزء الشمالي الغربي من «سيناء» . وقد منحهم الإمبراطور الروماني حينذاك إقطاعية «تنيس» (صان الحجر) (٥) . وقد قابلت النجدة التي أرسلها عمر بن الخطاب عبر وسط سيناء لمساعدة عمرو جمعا هائلا يبلغ نحو ثلاثة آلاف ، وحين سألوهم عرفوا أنهم من عرب غسان ولخم وعاملة (٦) .

---

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة Kibt ص ٩٩١ (طبعة أولى) . والبيان والاعراب للمقريزى ٨٩ .

(٢) عروبة مصر من قبائلها ، للأستاذ مصطفى كامل الشريف ص ٢٢ . (المطبعة العالمية سنة ١٩٦٥) ومصر العربية الإسلامية للدكتور على حسن الخربوطلى ص ١٥ .

(٣) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام ٧/٢٥ و ٢٦ .

(٤) القبائل العربية في مصر لخورشيد ص ٢١ .

(٥) المقريزى : البيان والإعراب ص ٩٠ - ٩١ (طبعة القاهرة ١٩٦١) .

(٦) عروبة مصر من قبائلها ص ٢٣ .

وبالإضافة إلى هذا فإن الوثيقة السابق الإشارة إليها ، والتى يرجع تاريخها إلى عام ٢٦٣ ق . م تفيدنا أنه كانت توجد فى ذلك الوقت المبكر جالية عربية كبيرة مكونة من القبائل التى هاجرت من جنوب الجزيرة العربية واستقرت فى مصر . وإنه لمن الأهمية بمكان أن نذكر هنا أن لغة هذه الوثيقة تبدو قوية الصلة باللغة العربية ، مما يدل على أن هؤلاء العرب كانوا يكوِّنون جزيرة لغوية فى مصر ، وأن هذه الجالية ظلت مخلصة لقوميتها محتفظة بأبجديتها تكتب بها وتعتز بتراثها . والوثيقة قصيرة ، ولكنها ذات أهمية كبيرة لأنها تحدثت عن وجود العرب الجنوبيين بمصر فى ذلك العهد السحيق ، وعن وجود علاقات تجارية ربطت بين مصر وجزيرة العرب من البر والبحر . وهى تتحدث أيضا عن رجل اسمه «زيد بن زيدايل» اعترف بوجود دين عليه وواجب هو توريد وتزويد بيوت آلهة مصر بالمر وقصب الطيب . ومن الكلمات التى وردت فى هذه الوثيقة ، والتى يمكن بسهولة ردها إلى أصل عربى أوسامى الكلمات «ديْن» التى استعملت فى نفس معناها العربى ، و «نفقس» التى تعنى ثروته أو نفقته من الأصل الثلاثى «نفق» ، و «محرمهى» التى تعنى الحرم ، و «رثد» التى تعنى رصد أو خصص .

وعلى أى حال فمن الطبيعى أن يكون قد نشب نوع من الاحتكاك فى ذلك الوقت بين اللغتين العربية والمصرية ، وأن يكون قد حدث بينهما قدر ما من التبادل. ويبدو أن آثار كلتا اللغتين على الأخرى كانت قوية لدرجة أنها خلقت تشابها أو تقاربا بين اللغتين أدى ببعض اللغويين المحدثين أن يزعموا وجود قرابة بين اللغتين ، أو بين المجموعتين السامية والحامية [١] . (من المجموعة السامية

---

(١) انظر Irach Jehangier Sorabji : Elements of the Science of Language, Calcutta, 1932 .

اللغة العربية ومن المجموعة الحامية اللغة المصرية القديمة) . ولكن رأى بعضهم أن هذا التشابه سببه ما حدث من اختلاط بين الساميين والمصريين في العصور السحيقة . وممن حاول اكتشاف العلاقة بين اللغات السامية والحامية المستشرق المشهور أوليرى (دى لاسى) الذى كتب بحثا حاول فيها أن يبين أوجه الشبه بين العائلتين اللغويتين(١) .

وقد كان نفوذ اللغة المصرية (أو اللغات المصرية إذا أردنا بهذا المصطلح ما يشمل اللغة اليونانية التى كان صاحبة نفوذ فى مصر فى تلك الفترة) على اللغة العربية كبيرا من ناحية المفردات . فهناك كلمات مصرية كثيرة دخلت اللغة العربية وأصبحت ينظر إليها على أنها من اللغة الأدبية النموذجية . من هذه الكلمات ألفاظ نحو «قبس» التى وردت فى القرآن الكريم ، و «صداع» ، و «مشط» التى وردت فى الحديث النبوى : الناس سواسية كأسنان المشط ، وكلمة «بِرْدى» التى وردت فى شعر الأعشى .

وقد ذكر السيوطى (٢) – إلى جانب ذلك – قائمة من الكلمات التى وردت فى القرآن الكريم ولها – على ما يزعم – أصل قبطى . ومما ذكره فى هذا الخصوص قوله : وفى قوله تعالى «ولات حين مناص» ، أى فرار بالقبطية . وفى قوله تعالى «بضاعة مزجاة» أى قليلة بالقبطية . وحكى الكرمانى وغيره فى قوله تعالى : «فناداها من تحتها» أى بطنها بالقبطية . وفى قوله تعالى «فى الملة الآخرة» أى الأولى بالقبطية ... وواضح أن قائمة السيوطى لايمكن التسليم بها مطلقا وإذا فنحن لانعطيها أى اعتبار .

---

(١) انظر مقدمة كتاب Characteristics of the Hamitic Languages .

(٢) المتوكلى فيما ورد فى القرآن باللغة الحبشية والفارسية ... ص ١٢ .

وهناك قائمة أخرى كبيرة لكلمات ذات أصل يونانى ، ولكن أحدا لايمكنه أن يقطع هل كان انتقال هذه الكلمات إلى اللغة العربية قد تم فى مصر أو فى سورية.

وعلى الجانب الآخر كانت الكلمات السامية تتدفق بمقدار كبير على اللغة المصرية ، ولم يقتصر ذلك على أسماء السلع والبضائع والأسلحة والخيل والعربات وأدوات الحرب ، بل تجاوزه إلى ألفاظ الحياة اليومية ... وقد لاحظ الباحثون وجود ألفاظ مصرية قديمة تشبه ألفاظا سامية وبخاصة تلك الكلمات المشتقة من أصول ثنائية[1] .

وخلاصة القول أن اللغة العربية كانت تتكلم فى مصر فى فترة ما قبل الإسلام بين أبناء الجاليات العربية وعلى ألسنة التجار العرب وأن تبادلا حدث بين اللغتين المصرية والعربية ، أدى إلى ترك آثار من كلا الجانبين على الآخر ولكن دون أن يفقد أى منهما شخصيته .

---

(١) القبائل لخورشيد ص ١٦ .

الباب الأول

استيطان اللغة العربية فى مصر

الفصل الأول

الصراع بين اللغتين

نظرة عامة

لقد ظهر الصراع الحقيقى بين اللغتين العربية والمصرية – والتى سنسميها منذ الآن باللغة القبطية [1] – بشكل واضح بعد الفتح الإسلامى لمصر . فقد حدثت

---

(١) القبط – وكذلك الأقباط – اسم أعطاه العرب للمصريين حتى من قبل الفتح الإسلامى ، وفى الحديث النبوى : استوصوا بالقبط خيراء . وقد اشتهر نوع من الثياب منذ الجاهلية باسم القبطية وجمعه العرب على «قباطى» .

وتذهب المراجع العربية القديمة فى تفسير كلمة «قبط» مذهبا أسطوريا فتزعم أنها مشتقة من اسم ملك لمصر القديمة كان يدعى قبطيم بن مصر ايم بن مصر بن حام بن نوح .

أما المحدثون فلهم فى تفسيرها آراء عدة منها :

(أ) أنها اشتقت من مدينة Koptos (قفط) .

(ب) أنها تحريف للكلمة Jacobites (اليعاقبة) . وبعض المراجع تطلق على المصريين الأقباط الذين وجدوا أثناء الفتح اسم اليعاقبة ، وهم الذين غلب عليهم فيما بعد اسم الأقباط الأرثوذكس ، وكانوا يكونون أغلبية فى مصر .

(ج) أنها تحريف للكلمة اليونانية Koptoi التى كان يطلقها اليونانيون على المصريين لأنهم كانوا يجرون الختان على أولادهم .

(د) وأقرب الآراء إلى الصحة أن الكلمة ترجع إلى الأصل الآشورى «هيكوبتاه» أى «بيت روح بتاح» وحولها اليونان إلى Aigyptios «إيجيبتوس» . وقد ورد هذا الاسم مرات فى شعر هوميروس. فإذا حذفنا علامة الرفع اليونانية – «أوس» تبقى «إيجبت» المستعملة فى اللغات الأوربية للدلالة على مصر ، وهى مركبة من كلمتين : إى = دار + جبت = قفط .

(هـ) وهناك رأى يقول إن (إيجبتوس) تحريف إغريقى للاسم المصرى (إج – بت) ومعناه : أرض الطمى أو الفيضان .

إذا ذاك معركة كبيرة بين اللغتين انتهت بهزيمة كاملة للغة القبطية ونصر مبين للغة العربية . ولم يحدث هذا – بالطبع – دفعة واحدة ، وإنما خطوة بعد خطوة واستغرق فترة طويلة بالمقارنة بما حدث في أماكن أخرى من العالم الإسلامي .

وقد كانت هزيمة اللغة القبطية نتيجة لأسباب متعددة عملت كلها في صالح اللغة العربية ، كما أن تأخير هذه الهزيمة يمكن أن ينسب – من ناحية أخرى – إلى عقبات معينة عطلت التقدم السريع للغة العربية .

= ويبدو على كل حال أن هذه الكلمة استعملت أول ما استعملت وأريد بها غير المسلمين من المصريين ، من غير نظر إلى عقيدة معينة ، ثم بمرور الوقت أصبح اللفظ علما على المسيحيين المصريين ، ولم يعد يتضمن أصحاب أي ديانة أخرى .

وتعتبر اللغة القبطية المرحلة الأخيرة للغة المصرية القديمة . وأهم ما يميزها عنها :

١– أنها كتبت بأبجدية يونانية بعد أن كانت تكتب بحروف معظمها ديموطيقية .

٢– أنها دخلتها مفردات وتعبيرات يونانية .

٣– أنها أبدلت بعض الأصوات في الكلمات .

٤– أنها كتبت بالحروف الساكنة والمتحركة (الحركات) بعد أن كانت لاتذكر الحروف المتحركة.

٥– أنها اشتملت على كلمات غير موجودة في المصرية القديمة وتركت كلمات موجودة في المصرية القديمة .

(انظر حضارة مصر في العصر القبطي لمراد كامل ص ٦٩)

وقد قسم العلماء القبطية إلى ست لهجات أربع منها في مصر العليا (الفيومية ، والأسيوطية ، والإخميمية والصعيدية ، وقد صارت الأخيرة بعد القرن الخامس الميلادي اللهجة الشائعة في كل مصر العليا) ، واثنتان في مصر السفلى (البشمورية والبحيرية ، وقد استعملت الأخيرة في كل الكنائس القبطية في الأغراض الدينية منذ القرن الحادي عشر) . (انظر : دائرة المعارف البريطانية ٣/٦١٥) . وبعضهم قسم القبطية إلى فروع ثلاثة هي الصعيدية ، والبحيرية والبشمورية (والأخيرة كانت مستعملة في بلاد البشمور التي لايعرف مكانها بالتحديد) . (انظر الأساس المتين ص ٩٢).

وقبل أن نناقش هذه الأسباب وتلك العقبات نحب أن نمهد بحديث قصير عن العوامل الرئيسية التي تتحكم في صراع اللغات ، والتي يسرى مفعولها على أي لغتين يحدث احتكاك بينهما . هذه العوامل هي :

١- العامل السياسي .

٢- العامل الاقتصادي .

٣- العامل الديني .

٤- الفترة الزمنية التي تسود فيها العوامل السابقة كلها أو بعضها .

٥- مدى اندماج أصحاب اللغة الوافدة مع أصحاب اللغة الأصلية ، وطريقة معاملتهم لهم .

٦- عامل الهيبة أو التفوق الذاتي للغة .

٧- درجة القرابة بين اللغتين المتصارعتين (١) . فكلما زادت القرابة بينهما قوى جانب انتصار إحداهما على الأخرى ، ويكون المرجح هو العوامل الأخرى . وكلما ضعفت القرابة بينهما أو اختفت ضعفت فرص انتصار إحداهما على الأخرى ، وإن لم يمنع ذلك من حدوث الانتصار .

وقد لعبت هذه العوامل كلها دورا هاما في صالح اللغة العربية وتعاونت فيما بينها لتنهي حياة اللغة القبطية في مصر .

فإذا نحن نظرنا إلى العاملين السياسي والاقتصادي وجدنا أنهما كانا يعملان في صالح اللغة العربية . فمما لاشك فيه أن القوة كانت في أيدي العرب

---

(١) انظر J. Vandryes : Language ص ٢٨١ - ٢٨٢ ، وعلم اللغة لوافي ص ٢٠٩ وما بعدها .

الذين بذلوا أقصى وسعهم لتعريب البلد ونشر الإسلام . وقد أدت عمليات التعريب ونشر الإسلام إلى نتائج اقتصادية هامة كان لها أثرها فى دعم اللغة العربية ورفع شأنها فى مصر . وقد كان من أهم الخطوات التنفيذية التى خطاها العرب ، والتى قوت جانبى الإسلام واللغة العربية فى مصر ما يأتى :

١- إحلال اللغة العربية محل اللغة اليونانية أو القبطية فى الدواوين وفى المكاتبات الرسمية .

٢- تهجير عديد من القبائل العربية إلى مصر بقصد الإقامة الدائمة .

وقد أحصى الدكتور عبدالله خورشيد مجموع القبائل والبطون التى وفدت إلى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة فوجدها تبلغ ٢٤٤ أكثرها من قحطان (١٧٢) . كما وجد أن أكثر القبائل بطونا وأضخمها عددا كانت قريش والأزد وغافق وتجيب والمعافر وخولان ومراد وحضر موت ...

وقد كان للولاة دخل فى زيادة عدد العرب ، لأن الوالى كان يدخل مصر فى عدد كبير من الأعوان معظمهم من بنى قبيلته ، وكان هؤلاء يبقون فى مصر ويستمرون مقيمين فيها بعد انتهاء ولاية الوالى حيث ينضمون إلى قبائلهم فى مصر .

ومن أمثلة ذلك ما فعلة الحوثرة بن سهيل الأمير القيسى الذى ولى مصر سنة ١٢٨ هـ فزاد عدد قيس من ١٥٠٠ إلى ٣٠٠٠ . كذلك دخل مع الأمير يزيد بن حاتم عدد من قبيلة الأزد سنة ١٤٤ هـ . وصحب المطلب الخزاعى قوم من قبيلته ، وفى سنة ١٧٢ ولى مصر مسلمة بن يحيي البجلى فدخلها فى عشرة آلاف من الجند كان كثير منهم من بجيلة [١] .

---

(١) القبائل العربية ص ٥٤ ، ١٠٢ ، ٢٢٤ . وانظر شخصية مصر ٢/٢٩٩ .

٣- إحلال بعض المسلمين محل الأقباط في الوظائف الرسمية .

٤- فرض أنواع مختلفة من الضرائب على الأقباط .

فإذا انتقلنا إلى العامل الديني ، نجد من الثابت أنه لم يكن هناك ضغط مباشر على الأقباط ليعتنقوا الإسلام - إلا ما ندر - ولكننا نجد من الثابت أيضا أنه كانت هناك امتيازات معينة يتمتع بها المسلمون دون الأقباط مثل تفضيلهم عند شغل الوظائف القيادية بالإضافة إلى عامل الهيبة الذي يتمتع به المسلمون باعتبارهم الطبقة الحاكمة . وقد أغرى هذا وذاك مجموعة من الأقباط أن يعتنقوا الإسلام لينعموا بالمساواة في ظله (١) . ومن ناحية أخرى فإننا نجد عددا آخر يعتنقون الإسلام طواعية واختيارا مدفوعين بما يحتويه من تعاليم صادقة وروح جديدة أو ليحققوا لأنفسهم مصلحة دنيوية (٢) ، بل منهم من لم يكتف بذلك فادعى أصله العربي وانتسب إلى إحدى القبائل العربية (٣) . ومن البديهي أنه إذا اعتنق

---

(١) يقول ولسن بشاي : إن كراهية المصريين للبيزنطيين أدت بهم إلى الترحيب بالمسلمين كمحررين دينيين وبخاصة بعد ماتمتعوا بالأمن والحرية في ظل الولاة المسلمين الأوائل ، وهي الحرية التي سمحت لهم أن يمارسوا شعائرهم الدينية ، وأن يقيموا كنائس جديدة (The Coptic Influence ص ١٢) .

(٢) يمتلىء التاريخ بنماذج من هذا النوع ، مثل يعقوب بن كلس اليهودي الذي اعتنق الإسلام في ظروف لاتؤيد بحال صدق عواطفه الدينية . كان أصله من بغداد ، وقدم إلى مصر في عهد كافور الإخشيدي ، وكان رجلا واسع الذكاء والحلية . وحين علم أن كافورا قال عنه «لو كان مسلما لاستوزرته» دخل مسجدا يوم الجمعة ونطق بالشهادتين ، ثم خرج إلى المغرب حيث عاون الفاطميين على فتح مصر فجعله المعز أكبر مستشاريه وعينه أمينا على بيت المال (النجوم الزاهرة ١٥٨/٤) . ولكن ليس معنى هذا أنه هو القاعدة ، بل هو في الحقيقة الشذوذ الذي يثبت القاعدة .

(٣) مثل ما حدث في مصر وعرف باسم «قضية القاضي العمري» . لقد أخذ هذا القاضي رشوة يقال إنها بلغت ستة آلاف دينار من بعض العرس الأقباط ليعطيهم حكما بانتسابهم إلى القبيلة العربية =

شخص الإسلام تحت حكم عربى فإنه سيحاول أن يحاكى المسلمين فى كل تصرفاتهم ... سيذهب إلى المسجد ، وسيقرأ القرآن ، وسيصلى باللغة العربية . وباختصار سيعيش عيشة إسلامية كاملة .

وعامل الإسلام من الناحية اللغوية يعتبر ذا أهمية قصوى . وقد كان من الواضح جدا ارتباط تقدم اللغة العربية وانتشارها بتقدم الإسلام وانتشاره فى كل الأقطار المفتوحة على السواء . كذلك كان من الواضح أن الأماكن النائية أو التى لم ينتشر فيها الإسلام بسرعة ظلت اللغة القبطية فيها حية لمدة أطول من غيرها . وقد كان اكتساب الأقباط الذين أسلموا للغة العربية أسرع من اكتساب أولئك الذين لم يسلموا لها . ولهذا فنحن نتفق مع المستشرق الشهير دى لاسى أوليرى الذى علق أهمية كبيرة على هذا العامل بقوله «كان انتشار الإسلام بلا شك عاملا من عوامل إحلال اللغة العربية محل القبطية»(١) .

وقد حاول بعض الكتاب الذى عالجوا انتشار الإسلام فى مصر أن يصلوا إلى نتيجة معينة هى أن الإسلام قد انتشر فى مصر بالقوة . واعتمد هؤلاء فيما اعتمدوا – ومعظمهم من المستشرقين – على كتاب عنوانه «سير الآباء البطاركة» بقلم سويرس بن المقفع ، وهو مسيحى يعقوبى شغل منصب أسقف فى كنيسة

= حوتكة . وقد حدث هذا فى الأعوام الأخيرة من القرن الثانى الهجرى ، وأشار إليه المؤرخون والشعراء ، ومما قيل من شعر فى هذه الحادثة :

ومن أعجب الأشياء أن عصابة

من القبط فينا أصبحوا قد تعربوا

وقالوا أبونا حوتك وأبوهم

من القبط علج حبله متذبذب

(١) انظر : Notes on the Coptic language ص ٢٤٤ مقال بمجلة Orientalia عام ١٩٣٤ .

أشمونين نحو عام ٩٨٥ م . وهذا الكتاب – فى الحقيقة – ملىء بالوقائع المزورة والأكاذيب الفاضحة ، ولذا طعن فى صحته كثير من العلماء فى الشرق والغرب . وممن تشكك فى كتابات هذا الرجل ، ورأى ضرورة التثبت منها Nabia Abbot مؤلفة كتاب : The Kurrah Papyri وتنبهت هذه الكاتبة كذلك إلى حقيقة هامة بالنسبة لما كتب عن الأمويين إذ قالت مامعناه : إن معظم المراجع التى تمدنا بمعلومات عن الأمويين ونظام حكمهم كتبها أناس أعداء لهم مثل العباسيين والمسيحيين من أمثال سويرس بن المقفع[1] . كذلك حذر Bell فى مقاله The Administration of Egypt من الثقة الكبيرة فى المصادر القبطية حيث إن التعصب الدينى قد لعب دورا كبيرا فيها . وذكر لنا مثالا من الأخطاء التى وقعت فيها المراجع القبطية وكشفت عنه أوراق البردى [2] .

ويقول جاك تاجر : «على عكس ما ذكره المؤرخون الأقباط تؤكد أوراق البردى التى يرجع عهدها إلى الفتح الإسلامى والتى اكتشفت حديثا حسن معاملة العرب ومسلكهم المشرف حيال أهل الذمة [3] .

إننا لاننكر أنه وقعت هناك فى تلك الفترة السحيقة بعض مصادمات بين المسلمين والأقباط ، ولكننا بسهولة نستطيع أن نردها إلى أسبابها الحقيقية . فبعض هذه المصادمات تم على أيدى المتطرفين من كلا الجانبين ، أو على أيدى العوام الذين تغلب عليهم حدة العاطفة دائما . وحتى فى هذه المصادمات التى وقعت بين الحكام والأقباط فإننا نجد التفسير بسهولة ويسر . لقد كانت هذه

---

(١) انظر ص ٥٧ .

(٢) انظر ص ٢٨٤ .

(٣) أقباط ومسلمون ص ٦١ .

المصادمات إما رد فعل لإثارات قام بها الأقباط – كما سنوضح فيما بعد – وإما عمليات اضطهاد وقتية قام بها بعض الحكام الظالمين (١) . وإما نتيجة للصراع الداخلى بين الأقباط وخاصة بين أبناء الطوائف المختلفة الذى سبب للحكومة متاعب جمة . ومن أمثلة ذلك الصراع ما ذكره يحيي بن سعيد الأنطاكى (٢) فى قوله : انقسم أهل مصر قسمين ، وكذلك أهل تنيس وتحزبوا حزبين ، وصار حزب من الكهنة والعلمانيين مع البطريرك وحزب منهم عليه . وكان كل فريق منهم يصلون فى كنيسة مفردة حتى كان الأب لايكلم ابنه ولا الامرأة تخاطب بعلها . ويستعين كل فريق منهم على الآخر بالسلطان . وخرج جماعة من النصارى ... من أهل تنيس إلى الإخشيد ساعين به رافعين إليه . ثم ذكر أنه عقب هذه الوشاية أرسل الإخشيد من نهب إحدى الكنائس . كذلك صرح «ترتون» فى كتابه : «أهل الذمة فى الإسلام» بأن كثيرا من الظلم الذى لحق الأقباط مصدره أنفسهم ، ومرده الغيرة الدينية بين أتباع الدين الواحد . وقد أتبع ذلك بنماذج كثيرة للصراع بين الطوائف المسيحية وإيقاع كل منها بالآخر . وذكر سويرس بن المقفع أن شماسا اسمه بنيامين كان يتولى الدس للنصارى عند الأصبغ بن عبدالعزيز بن مروان ويطلعه على أسرارهم . وذكر فى مكان آخر أنه فى خلافة المعتصم بن هارون الرشيد حصلت وقيعة بين رؤساء النصارى ، ودسوا بعضهم لبعض ، فأمر والى مصر على بن يحيي الأرمنى بهدم البيع أو دفع ثلاثة آلاف دينار .

---

(١) من أمثلة ذلك ما ذكره ابن تغرى بردى من اشتهار سليمان بن على بن عبدالله بن العباس (١٦٩ هـ) بهدم كنائس مصر وأعمالها ، وما ذكره سويرس بن المقفع عن عبدالعزيز بن مروان أنه أمر بكسر جميع الصلبان التى فى مصر .

(٢) انظر تاريخ يحيي بن سعيد ص ٧١٥ – ٧١٦ المنشور فى :

Patrologia Orientalis, 1929 - 1932

والشيء الذى نحب أن نبرزه هنا ونجعله واضحا هو أن الأقباط قد تمتعوا فى ظل الحكم الإسلامى بحرية دينية لم يجدوها من قبل ، وأنها باشروا - سواء تحت الأمويين أو العباسيين - عباداتهم بحرية تامة . وكل ما كان يحرص عليه الحكام فى ذلك الوقت هو أن تترجم لهم دروسهم القبطية وصلواتهم ليتأكدوا أنها لاتحمل أى هجوم أو إهانة للإسلام . وقد عرف ذلك بوجه خاص أيام الأصبغ بن عبدالعزيز بن مروان الذى كلف أحد الشمامسة بترجمة الإنجيل إلى اللغة العربية، وكان يبحث عن كتب النصارى ويأمر بترجمتها له . وقد اعترف ترتون فى كتابه «أهل الذمة فى الإسلام» بأن المسلمين بمصر منذ البداية اتجهوا إلى عدم احتلال أى كنيسة ، وعدم التدخل فى شئون الأقباط . وبأن عمرو بن العاص نفسه لم يمد يده إلى أى شيء من أملاك الكنائس . وذكر أن أول كنيسة بنيت بالفسطاط أيام المسلمين كانت فى ولاية مسلمة بن مخلد (٤٧ - ٦٨ هـ) وأنه لما أنشأ عبدالعزيز ابن مروان حلوان سمح بإقامة كنيسة هناك ، ثم بنيت أخرى ، وبنى ديران .

ومن الثابت تاريخيا أن محمد بن طغج الإخشيدى - على عكس ما أشيع عنه - كان يحسن معاملة المسيحيين ، وكان يشارك فى أعيادهم ويحضر احتفالاتهم الدينية . وقد ذكر المسعودى وصفا لأحد هذه الاحتفالات فقال : «وقد حضرت سنة ٣٣٠ ليلة الغطاس بمصر والإخشيد محمد بن طغج أمير مصر فى قصره المعروف بالمختار فى جزيرة الروضة ... وقد أمر فأسرج فى جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل إلى جانب ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع...» .

وضرب لنا سويرس بن المقفع أمثلة للاضطهاد الدينى الذى عاناه المصريون تحت حكم الرومان ، ومنها قوله عن شخص يدعى «أغاتون» : «وكان قسا فى الكنيسة ، وهو من أهل مريوط . كان فى زمن هرقل يتزيى بزى

العلمانيين فى مدينة الإسكندرية ، ويطوف فى الليل يثبت الأرثذكسيين المختفين ويقضى حوائجهم ... وإذا كان النهار حمل على كتفه قفة فيها آلات النجارين ، ويظهر أنه نجار حتى لايعترضوه المخالفون (كذا)» .

ويقـــول جـاك تاجـر : «ولا نغـالى إذا قـلنا إن توطـيد السـيادة العـربيـة مكان السـيادة البيزنطية فى مصر أدخل على نفوس مسيحيى الشرق بارقة من الأمل»[1] .

وقبل أن نترك هذا العامل نحب أن نشير إشارة خاطفة إلى أن كثيرا مما ألصقه المستشرقون بالإسلام من اتهامات فى هذا الخصوص مرجعه سوء قراءتهم أو التواء فهمهم للنصوص العربية وترجمتهم الخاطئة لدلولها . وأكتفى هنا بأن أذكر اسم المستشرق الشهير B. Evetts محقق كتاب سويرس بن المقفع السابق الإشارة إليه . لقد قرأ عبارة ابن المقفع «فأحصى جميع الرهبان ... وجعل عليهم جزية» – قرأها : فأخصى وترجمها إلى «mutilated» ورتب على ذلك نتائج كثيرة[2] .

وأما الفترة الزمنية التى ساد فيها الحكم العربى فقد كانت طويلة ومستمرة لدرجة مكنت للإسلام أن يرسخ ، وللغة العربية أن تسود . ولذلك لم يحدث فيما بعد أى محاولة للخروج عن الإسلام ، أو أى اتجاه لنبذ اللغة العربية . وكل الثورات المحلية التى قامت بمصر لأسباب داخلية (بخلاف الحركات التى قامت حول الخلافة فقد كان القائمون بأمرها من العرب فى الغالب) اشترك فيها العرب والأقباط ، وكانت تثور لأسباب بعيدة عن الدين مثل :

(١) أقباط ومسلمون ص ١٨ .

(٢) انظر ٥١/١ .

١- النزاع القبلي بين القبائل العربية أو بين قواد العرب بقصد الاستئثار بالسلطة.

٢- الاحتجاج على التعسف في جمع الأموال والقسوة في معاملة الأهالى . وهذه الثورات كان يقوم بها العرب أحيانا، والقبط أحيانا ، وهما معا في أحيان أخرى .

فمن النوع الأول تلك الثورة التي أشعلها العرب ضد حسان بن عتاهية لأنه أسقط الفروض التي كان قد قررها سلفه في ولايته ، وقطع رواتب الجند .

ومن النوع الثاني خروج الأقباط على الحر بن يوسف أمير مصر من قبل هشام بن عبدالملك ، وعلى حنظلة بن صفوان ، وعلى يزيد بن حاتم . وكانت آخر ثوراتهم سنة ٢١٦ أيام الخليفة المأمون وشملت الوجه البحرى كله ، ولم تخمد إلا بعد حضور المأمون نفسه .

ومن النوع الثالث ثورة الجميع من عرب وقبط على عسف موسى بن مصعب في استخراج الخراج وزيادته على كل فدان ضعف ما كان عليه أولا . وكذلك انقضاض الوجه البحرى كله من عرب وأقباط على عيسى بن منصور لسوء سيرته .

وأما العامل الخامس ، وهو مدى اندماج أصحاب اللغة الوافدة بأفراد الشعب ، وكيفية معاملتهم لهم ، فمن الثابت تطبيق كثير من الحكام لمبدأ المساواة الإسلامي بين الناس ، كما أن من الثابت تمتع الأقباط بحريتهم في ظل الإسلام بصورة لم تتح لهم من قبل .

هذا بالإضافة إلى أسباب أخرى مكنت لهذا الاندماج وقوته مثل :

١- عادة الارتباع ، وهو انتقال العرب كل ربيع حين يطيب المرعى ، وتضع الحوامل إلى القرى المصرية لإطلاق خيولهم ترعى وتسمن ، وانطلاق أصحابها للاصطياد وشرب اللبن وأكل الخراف . ويعد الارتباع هجرة داخلية تتجدد كل سنة . وكان لكل قبيلة مرتبع معين تتردد عليه كل عام ، وكان هذا الارتباع يتركز حول الفسطاط فى الجيزة ووسط الدلتا وشرقها (١) .

ولا شك أن الارتباع كان فرصة ذهبية بالنسبة للعرب يتعرفون من خلاله على البلاد ، ويختلطون بأهلها . وكان لهذا بالتالى أثر كبير فى امتزاج الفريقين امتزاجا أدى إلى انتشار العرب فى مصر وإلى تأثر المصريين بلغة العرب ودينهم ، خاصة وأن هذا الامتزاج كان يتم بصورة عفوية ، وبلا تعسف أو إكراه (٢) .

٢- تحركات القبائل العربية فى أرجاء مصر وخروجهم عن عاصمتها حيث خططهم وأميرهم وجيشهم إلى مدن مصر وقراها حيث القبط مدنيين وفلاحيين .

٣- توزيع الجيش العربى على الثغور والسواحل بنسبة النصف ، وبقاء النصف الآخر فى الفسطاط العاصمة . ولم تكن القوات المرابطة تتخذ لها معسكرات خاصة - كما فى الفسطاط - وإنما كانت تقيم طوال فترة الرباط فى مساكن الأهالى العادية (٣) .

---

(١) لابن عبدالحكم فى فتوح مصر فصل بعنوان «ذكر مرتبع الجند» تحدث فيه عن البلاد التى تعودت القبائل الخروج إليها فى الربيع .

(٢) انظر القبائل العربية لخورشيد ص ٤٨ ، ٢٣١ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٩ ، ٥٠ .

٤- إحساس العرب بما بينهم وبين المصريين من صلة دموية وقرابة جنسية تتمثل في أمومة هاجر المصرية (التي أهداها صاحب مصر إلى إبراهيم النبي حين دخل مصر مع زوجته سارة) ، وفي خئولة المصريين لإبراهيم ابن النبي محمد صلى الله عليه وسلم من مارية القبطية [١] . هذا بالإضافة إلى امتثالهم لوصية النبي صلى الله عليه وسلم القائلة : «استوصوا بالقبط خيراً» .

فإذا نحن انتقلنا إلى العامل السادس ، نجد أن تفوق أي لغة وتمتعها بالهيبة يرجع إلى قيمتها الذاتية ، وفي حالة اللغة العربية نجد قيمتها عظيمة ، وتفوق إلى حد كبير القيمة الذاتية للغة القبطية في ذلك الوقت . فهي من ناحية لغة الحكام ، ومن ناحية أخرى لغة النبي . وهي بالإضافة إلى ذلك لغة حضارة عظيمة وثقافة تفوق أختها القبطية . ويشير «فندريس» في كتابه «اللغة» إلى التفوق الذاتي الذي تتمتع به بعض اللغات ، ومن بينها اللغة العربية ، بقوله : «والقدرة على الانتشار التي نشاهدها في بعض اللغات الهندية الأوربية أو السامية - كاللغة العربية مثلاً - ترجع بلا شك إلى أسباب معقدة ، ولكن القيمة الذاتية للغة لها في ذلك نصيب» [٢] .

ويمكننا أن نقدر الفجوة بين اللغتين القبطية والعربية في هذا الصدد إذا أخذنا في الاعتبار الحقيقتين التاليتين :

أولاً : أن اللغة العربية كانت قد انتشرت في كثير من أنحاء العالم وتمثلت ثقافات وحضارات كثيرة مما أعطاها ميزة ضخمة وقيمة كبيرة . وبمرور الزمن

---

(١) المرجع السابق ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٢) اللغة ص ٣٥١ .

ازداد هذا العامل قوة ، فما أن جاءت العربية إلى معركتها الحاسمة مع القبطية حتى كانت قد أصبحت لغة ثقافة عالية .

ثانيا : أن اللغة القبطية فى فترة احتكاكها باللغة العربية كانت فى موقف ضعيف بشكل واضح . فقبل ذلك بمدة طويلة كانت اللغة القبطية قد وقعت فريسة اللغة اليونانية التى أصبحت فيما بعد لغة الكتابة . وهذا يعنى أن الأعمال الكتابية الهامة كانت تكتب باليونانية لا القبطية ، ويعنى بالتالى إضعاف اللغة القبطية لدرجة عظيمة .

ويقال كذلك إن لغة الثقافة فى مصر لم تكن القبطية ، بل كانت السريانية التى كانت تستعمل بخاصة فى جامعة الإسكندرية العتيقة ، والتى صارت مألوفة للدارسين بعد هجرة بعض الأساتذة السوريين إلى مصر وعملهم على نشر ثقافتهم.

ويقال أيضا إن اللغة القبطية لم تكن وحدها لغة الحديث فى بعض أجزاء من مصر بما فيها الإسكندرية ، وإنها كانت فى صراع دائم مع اللغة اليونانية على ذلك [١] . بل أكثر من هذا يقال إن اللغة القبطية كانت لغة الحديث لعامة الشعب وغير المثقفين فقط ، وإن الطبقات الأرستقراطية كانت تفضل الحديث باللغة اليونانية [٢] .

كذلك من الثابت أن الأقباط فى ذلك الوقت لم يكونوا غيورين بدرجة كبيرة على لغتهم حتى إنهم تخلوا عن أحرفهم الهجائية فى القرن الرابع أو الخامس

(١) عبدالمسيح : الأساس المتين فى ضبط لغة المصريين ص ٩٠ .

(٢) انظر جاك تاجر : أقباط ومسلمون ص ٣٠٤ ، وانظر أيضا : بهى الدين زيان : حياة النثر فى مصر إلى القرن الرابع الهجرى ص ١٠١ – ١٠٢ ، وعبدالرزاق حميدة : الأدب العربى فى مصر ص ١٧ .

الميلادى واختاروا أبجدية جديدة استعير معظمها من الأحرف اليونانية وأضيف إليها سبعة رموز من الكتابة الديموتيقية لتعبر عن أصوات لا وجود لها فى اللغة اليونانية [١] .

ومن أجل هذا حين جاءت حركة الترجمة النشيطة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية وبلغت قمتها ، لم يجد الباحثون شيئا ذا بال يستحق الترجمة من القبطية إلا ما ندر . ولا توجد إشارات إلى ترجمات من القبطية إلى العربية حتى نهاية القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، اللهم إلا ما يتعلق بالديانة المسيحية . وربما كانت الترجمة الوحيدة التى وصلنا نصها هى تلك التى قام بها سويرس بن المقفع وأصحابه فى القرن الرابع الهجرى ، والتى أطلقوا عليها اسم : «سير الآباء البطاركة» . وتأخذ دائرة المعارف الإسلامية (مادة قبط) برأى Casanova أن الترجمة العربية للأعمال القبطية لم تتم إلا فى أيام الفاطميين . وتذكر الدائرة أن الأدب القبطى لم يكن أدبا راقيا ، وأنه عاش فى شكل ترجمات معظمها من اليونانية ، مثل ترجمة العهد القديم والعهد الجديد وقصص حياة الأولياء والقديسين .

ويقول الدكتور محمد كامل حسين نقلا عن بتلر : «لايستطيع الأقباط أن يفخروا بشعراء مجيدين أو مؤرخين معروفين أو فلاسفة أو أحد من رجال العلم . فجل آدابهم دينية لقلة ماكان لديهم من بيان وعلم ، مما سبب إهمال لغتهم وعدم انتشارها فى العالم ، مع أنه لاتكاد توجد لغة أقدم من لغتهم» [٢] .

---

(١) عبدالمسيح : الأساس المتين ص ٥ – ٩ ، وانظر أيضا ص ٧٦ من A.C. Moorhouse : The Triumph of the Alphabet وص ٤٧٠ من : D. Diringer : The Alphabet

وأما درجة القرابة بين اللغتين فهناك رأى يضع العربية والقبطية فى مجموعة واحدة هى المجموعة الحامية السامية ، ويعتمد أصحابه فى ربطهم المجموعتين فى مجموعة واحدة على النقاط التالية :

أ- اللغات الحامية تختلف عن سائر لغات إفريقية .

ب- اللغات الحامية تبدو متشابهة بقدر كبير من اللغات السامية مما يسمح بالقول بوجود قرابة لغوية قوية بينهما .

جـ- ما نادى به عالم المصريات القدير Adolf Erman من أن ما يسمى بالجنس الحامى ما هو إلا سامى هاجر إلى إفريقية من جنوب الجزيرة العربية ، ثم اختلط بدماء إفريقية متنوعة .

ومن أصحاب هذه النظرية مارسيل كوهين الذى نادى بأن اللغات الحامية ليست وحدة تقف موقف التقابل من اللغات السامية ، بل إنهما يكوّنان أسرة أكبر هى المجموعة الحامية السامية (١) .

بل قد تجاوز الإحساس بوجود قرابة - تجاوز اللغتين ليشمل الشعبين كذلك، يقول جمال حمدان : «إن جزءا من تقبل المصريين للعرب الوافدين يرجع إلى إحساسهم وإدراكهم بأنهم بعض أقاربهم وأصولهم وليسوا بغرباء أجانب حقا كسابقيهم ... وهذا يفسر لماذا سادت العروبة كل العالم السامى والحامى خارج الجزيرة العربية بينما توقفت عند سفوح زاجروس الآرية ، وأقدام الأناضول التركية ، كما ارتدت عن الأندلس القوطية» ، ويقول : «عرب الجزيرة ومصريو النيل

---

(١) انظر : Semitic and Hamitic ص ١٠ ، ودائرة المعارف البريطانية مادة African Languages والشعوب والسلالات الإفريقية ص ٢٣٨ وغيرها .

يمثلون معا المجموعتين الأكثر تشابها وتداخلا ، والأشد تقاربا وقرابة بين كل الساميين والحاميين معا » [١] .

فإذا نحن أردنا أن نحلل هذه العوامل ، ونرتب تلك الأحداث ترتيبا تاريخيا ، مضيفين إليها الحالات التي تتعلق بمصر بوجه خاص ، وحاولنا -إلى جانب ذلك- أن نبرز نقط التحول في تاريخ اللغة العربية في مصر إبان تلك الفترة ، فإننا نقترح منهاجا ذا مراحل ثلاث ، تنتهي كل مرحلة بشيء من النصر ، وفي نهاية آخر مرحلة يتم النصر الكامل للغة العربية ... هذه المراحل من الممكن أن تحدد على الوجه الآتي :

١- مرحلة المناوشة

٢- مرحلة التقدم .

٣- مرحلة النصر .

وإليكم تفصيل ذلك .

---

(١) شخصية مصر ٢٩٧/٢ . وقد لاحظ المؤلف كذلك أنه كان هناك ثلاث هجرات رئيسية إلى مصر سبقت اثنتان منهما العرب ، وهما الهكسوس واليهود . ولاحظ أن الهجرات الثلاث كانت من عناصر سامية وأنها كانت أسيوية دخلت عن طريق سيناء (٢٩٢/٢) .

الفصل الثانى

المرحلة الأولى من الصراع

مرحلة المناوشة

تحدد هذه المرحلة بفترة ما بين الفتح الإسلامى (سنة ٢٠ هـ) ونهاية القرن الأول الهجرى (٧١٨ م) . وفيها وجد تبادل بين اللغتين العربية والقبطية وتأثير من كلا الجانبين على الآخر . وعلى الرغم من تأييد اللغة العربية بالعرب الفاتحين ، فقد كان ميزان القوى متعادلا لمعظم الوقت . ولم تتمكن أى من اللغتين من إحراز نصر يذكر على الأخرى . وكانت الأسباب التى أدت إلى هذه النتيجة ما يأتى :

١- حسن معاملة العرب للمصريين . فعلى عكس ما ذكره المؤرخون الأقباط تؤكد أوراق البردى - التى يرجع عهدها إلى الفتح الإسلامى والتى كشفت حديثا - حسن معاملة العرب للأقباط ومسلكهم المشرف حيال أهل الذمة . ولدينا وثيقتان بهذا كشفهما البروفسر جروهمان يرجع تاريخهما إلى عام ٢٢ هـ = ٦٤٢ م . وإحدى الوثيقتين مكتوبة باللغة اليونانية وقد كتبها الشماس يوحنا مسجل العقود وألحق بها نص آخر باللغة العربية . ويقول النص العربى : «بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أخذه عبدالله بن جابر وزملاؤه المحاربون من النعاج للذبح فى هيراكليوبولس . لقد أخذنا من أحد وكلاء تيودوراكس النجل الثانى لأباقيرس ومن نائب خريستوفورس أكبر أنجال أباقيرس خمسين نعجة للذبح ، وخمس عشرة نعجة أخرى . وقد أعطاها لإطعام رجال

مراكبه وفرسانه وقوات مشاته .... تحرر في شهر جمادى الأولى سنة ٢٢ وكتبه ابن حديده ، وجاء في ظهر الورقة ما نصه : «شهادة بتسليم النعاج للمحاربين ولغيرهم ممن قدموا البلاد وهذا خصما (كذا) عن جزية التوقيت الأول» . وقد علق جروهمان على النصين بقوله : «إن هذه المعاملة إزاء شعب مغلوب قلما نراها من شعب منتصر» . وقد كتب ميخائيل السورى بطريرك اليعقوبيين في أنطاكية يقول : «إن رب الانتقام استقدم من المناطق الجنوبية أبناء إسماعيل لينقذنا بواسطتهم من أيدى اليونانيين ... وقد أصابنا خير ليس بالقليل بتحررنا من قسوة الرومان وشرورهم ، ومن غضبهم وحفيظتهم علينا . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى سادت الطمأنينة بيننا [١]» . ووصف الأسقف المؤرخ سويرس بن المقفع شعورهم بقوله : «كانت الشعوب فرحين مثل العجول الصغار إذا حل رباطهم وأطلقوا على ألبان أمهاتهم» . ويعلق الدكتور جاك تاجر على وصف سويرس بن المقفع بقوله : «وسويرس على حق في وصفه لأن الأقباط لم يعاملوا هذه المعاملة اللينة من مدة طويلة . أضف إلى ذلك أن العرب أثناء ولاية عمرو لم يحاولوا أن يضغطوا على الأقباط ليعتنقوا الإسلام ولم يضطهدوهم [٢]» .

٢- استمرار استعمال اللغة اليونانية (أو القبطية) بوصفها لغة رسمية حتى عام ٨٧ هـ = ٧٠٦ م عندما أصدر والى مصر إذ ذاك وهو عبدالله بن عبدالملك ابن مروان أوامره بإحلال العربية محلها [٣] . وفي التوعزل رئيس الديوان

---

(١) جاك تاجر : أقباط ومسلمون ص ١٨ ، وانظر أيضا ص ٦١ .

(٢) المرجع نفسه ص ٧٣ و انظر أمثلة أخرى في (المجتمعات الإسلامية في القرن الأول) لشكرى فيصل ص ١١٩ وما بعدها .

(٣) المقريزى : الخطط ٩٨/١ ، والولاة للكندى ص ٥٨ - ٥٩ .

القبطى وكان اسمه أثناسيوس وحل محله ابن يربوع الفزارى الحمصى ، وتشير المصادر العربية إلى أن اللغة الرسمية إذ ذاك كانت القبطية وحدها ، فى حين أن الباحثين الأوربيين يرون أنها كانت اليونانية فقط . والذى يبدو لى أن كلتا اللغتين كانت مستعملة فى الكتابة فى ذلك الوقت . اليونانية بوصفها اللغة الرسمية فى الدواوين والمصالح الحكومية ، والقبطية بوصفها لغة العامة وكانت تكتب بها عقودهم وخطاباتهم ووثائقهم . ويتضح من بعض الوثائق المكتوبة بين سنتى ٥٦ هـ = ٦٧٥ م و ١٥٩ هـ = ٧٧٥ م أن كلتا اللغتين كانت تستعمل جنبا إلى جنب ، وأحيانا مع اللغة العربية . والنسبة الكبرى فى مجموعة من هذه الوثائق كانت باللغة القبطية (٨٥٪ بالقبطية و ٩٪ باليونانية و ٦٪ بالعربية [١]) ولكن هناك وثائق أخرى كتبت باليونانية فقط . ولم يكن من الممكن – بالطبع – أن يتم تعريب الدواوين بين يوم وليلة ، ولهذا فنحن نقترح السنوات العشر الأولى من القرن الثانى الهجرى أو نحوها حينما أصبحت اللغة العربية لغة المصالح الحكومية إما بالكلية ، أو كلغة أولى فى الوثائق ذات اللغتين . ومع ذلك فقد عثر على وثيقة من وثائق البردى كتبت باللغتين اليونانية والعربية ويرجع تاريخها إلى عام ٢٢ هـ [٢] ، أى نحو ٦٥ عاما قبل المحاولة الرسمية لتعريب الدواوين فى مصر . ومن تلك الوثيقة يمكننا أن نقول إن استعمال اللغة العربية فى الوثائق الرسمية (ولكن كلغة ثانية) كان قد بدأ إن لم يكن مع الفتح الإسلامى فبعده بقليل . وأول وثيقة كتبت كاملة باللغة العربية يرجع تاريخها إلى عام ٩٠هـ = ٧٠٩ م .

---

(١) انظر ص ٨ من : P.E. Kahle : Bala'izah (لندن ١٩٤٥) .

(٢) سبق نص الوثيقة .

٣- أما العامل الثالث من عوامل التعادل بين اللغتين العربية والقبطية خلال القرن الأول الهجرى فيرجع إلى وضع الأقباط الوظيفى فى الدولة . فقد حل الأقباط فى إدارة البلاد محل الروم الذين غادروا مصر ، والذين كانوا يشغلون كثيرا من الأعمال فيها ، كما ظلوا فى وظائفهم العامة كما كانوا قبل الفتح سواء بسواء ، فكان منهم حكام المحافظات ورؤساء الدواوين وصغار الموظفين . ومن هؤلاء عامل يدعى ميناس كان هرقل قد ولاه أعمال المنطقة الشمالية من البلاد واستبقاه المسلمون فى عمله . وهناك آخر اسمه شنودة وكلت إليه حكومة الريف ، وثالث تولى حكومة الفيوم [١] ... وهكذا ، وقد كان فى الحكومة المركزية بالفسطاط أو حلوان كاتبان قبطيان لإدارة مصر العليا ومصر السفلى . وأشار سويرس بن المقفع إلى الكاتبين الأرثوذكسيين أثناسيوس الرهاوى وإسحاق فى عهد عبدالعزيز بن مروان [٢] . وقد شغل أولهما مناصب حكومية كثيرة وتدرج إلى أن بلغ مرتبة الرياسة فى دواوين الإسكندرية وأصبحا فى ديوانه عشرون كاتبا ثم زادوا إلى أربعة وأربعين . وفى نهاية ولاية عبدالعزيز بن مروان كان والى الصعيد قبطيا اسمه بطرس ، وكان حاكم مريوط قبطيا اسمه تاوفانس [٣] . ولم يقتصر الأقباط على شغلهم معظم الوظائف الإدارية فحسب ، بل كان لهم الأمر والنهى فى كثير من الأحيان ، وبقى نظام الضرائب والحسابات فى أيديهم مما أتاح لهم الفرصة لتحقيق مكاسب كبيرة [٤] .

---

(١) ترتون . أهل الذمة فى الإسلام ص [illegible] .

(٢) انظر سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ١٩٠ .

(٣) المرجع السابق ص ١٩٠ .

(٤) جاك تاجر ص ١٠٦ .

وقد أظهر الخلفاء مرارا وتكرارا منذ عهد عمر بن الخطاب رغبتهم فى إبعاد الأقباط من الوظائف الإدارية ، ولكن دراية عمرو السياسية تغلبت أول الأمر على تشدد عمر بن الخطاب الدينى وجعلته يستبقيهم فى وظائفهم . وظل الحال كذلك إلى أن وجه عمر بن عبدالعزيز رسائله إلى حكام الأقاليم يذكرهم فيها بواجبهم ويحذرهم من استخدام الذميين أولياء ويهدد بالعزل من يترك فى ولايته عاملا يدين بغير الإسلام . ومما جاء فى رسالته فى هذا الصدد : «فلا تولين أمور المسلمين أحدا من أهل الذمة فتبسط أيديهم وألسنتهم وتذل المسلمين بعد أن أعزهم الله» . وتنفيذا لتعليمات الخليفة أصدر حاكم مصر إذ ذاك ، وهو أيوب بن شرحبيل (ولايته من عام ٩٩ هـ = ٧١٧ م إلى ١٠١ هـ = ٧١٩م) ، أوامره بإحلال المسلمين أو العرب محل الأقباط . ونتيجة لذلك «نزعت موازيت القبط عن الكور واستعمل المسلمون عليها» [١] . ولكن يبدو – على أى حال – أن هذه الحركة لم تكن شاملة فى أى عصر من عصور التاريخ بدليل أننا نجد من بين أسماء محصلى الضرائب فى القرن الثالث الهجرى أسماء قبطية من مثل مينا بن شنودة وسويرس بن زكريا ويوحنا بن ميناء . ومن الثابت كذلك أن رؤساء المالية ظلوا أقباطا طوال العصر الأموى .

٤– كان عدد العرب قليلا طوال هذا القرن إذا قيس بعدد السكان الأصليين . فقد كان عدد قوات الجيش العربى الفاتح بأمداده المتعددة يتراوح بين اثنى عشر ألفا وستة عشر ألفا يعيشون على العطاء الذى تصرفه الحكومة لهم . وبعد

---

(١) كان القطر المصرى مقسما إلى أجزاء كل منها يسمى «كورة» ، وعلى رأسها كان صاحب الكورة. ومساعده كان يحمل اسما يونانيا هو «جسطل» أو «مازوت» ويذكر الدكتور مراد كامل أن كلمة «مازوت» لاتينية أو يونانية الأصل وأن معناها «قاضى» (ص ٧١) .

الفتح نظمت لهم خطط في الفساط ونزلت كل قبيلة خطة ، أى جهة معينة أو قسما من أقسامها ، وعرف كل قسم باسم القبيلة أو الجماعة التى نزلت فيه. ولم يخرج عن الفسطاط من جيوش الفتح إلا عدد قليل من القبائل مثل همدان التى نزلت فى الجيزة ، وعدد آخر نزل بالإسكندرية . وفى خلافة معاوية كان بالفسطاط أربعون ألف عربى ، وفى الإسكندرية اثنا عشر ألفا زيدت إلى سبعة وعشرين ألفا بعد شكوى قائدها من قلة العدد [١] . وفى زمان مروان بن الحكم (٦٤ – ٦٥ هـ) بلغ جند مصر من العرب أكثر من ثمانين ألفا (تضاعفوا سبع مرات خلال نصف قرن) [٢] . وقد أدى هذا التزايد إلى إعادة تدوين الدواوين مرتين (بعد تدوين عمرو بن العاص) خلال القرن الأول وذلك فى عهد عبدالعزيز بن مروان (توفى ٨٦ هـ) وقرة بن شريك (٩٥ هـ) [٣] . ومع أننا نعترف بأن أرقام هؤلاء الجنود لاتدل على عدد العرب الحقيقيين فى مصر لأن المصادر التاريخية ربما أغفلت ذكر جماعات عربية استوطنت مصر أيام الفتح غير هؤلاء الجنود ، وذلك مثل قبيلة «بلى» التى نقلت بعض بطونها من الشام إلى مصر فى أيام عمر بن الخطاب وأقامت بالصعيد [٤] ، فإنه من الواضح أنه حتى مع مضاعفة التقدير فإن عدد العرب لن يبلغ فى أى فترة من فترات هذا القرن عشر معشار عدد السكان الأصليين الذين يزيدون فى أقل تقدير على سبعة ملايين نسمة [٥] .

---

(١) القبائل العربية لخورشيد ص ٤٩ .

(٢ ، ٣) السابق ص ٥٣ ، ٥٥ .

(٤) انظر البيان والإعراب ص ٩٧ .

(٥) تختلف المراجع فى تقدير عدد المصريين الذين كانوا بمصر أيام الفتح . وليس هناك أى دليل على ترجيح أحد الآراء على الآخر . وقد قدرهم جرجس فيلوثاوس بثلاثين مليونا (اللغة القبطية سنة =

٥- وبالإضافة إلى القلة العددية كانت هناك أوامر مشددة على الجنود ألا يستكينوا إلى الراحة ، وأن يظلوا فى وضع استعداد دائم ، أو على حد تعبير عمرو بن العاص : «واعلموا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم، وتشوف قلوبهم إليكم وإلى دياركم معدن الزرع والمال والخير الواسع[١] . كذلك أمروا ألا ينزلوا الريف إلا وقت الربيع لينالوا من «خيره ولبنه وخرافه وصيده» وليسمنوا خيولهم ويطعموها . ومن تحذيرات عمرو فى هذا الشأن : «ولا أعلمن أحدا قد أسمن نفسه وأهزل فرسه . واعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال فمن أهزل فرسه فى غير علة حططت من فريضته قدر ذلك» . وقد روى ابن عبدالحكم عن عمر بن الخطاب أنه أمر مناديه أن يخرج إلى أمراء الأجناد ويسالهم أن يخبروا الرعية أن عطاءهم قائم وأن رزق عيالهم سائل فلا يزرعون . وروى ابن وهب أن شريك بن سمى الغطفى أتى عمرو بن العاص فقال : إنكم لاتعطوننا ما يكفينا ، أفتأذن لى فى الزرع ؟ قال عمرو : ما أقدر على ذلك . فزرع شريك من غير أمر عمرو

= ١٩١٦ ص ١٢) وقدرتهم دائرة المعارف الإسلامية بحوالى أربعة وعشرين مليونا (ص ٩٩٧ مادة Kibt) . وإذا أردنا أن نقدر عددهم بناء على مقدار الجزية الذى جمعه عمرو بن العاص صادفتنا صعوبة أخرى هى أن المراجع تختلف فى هذا المقدار على الوجه الآتى :

(أ) ذكر البلاذرى فى فتوح البلدان أن خراج مصر زمن الفتح كان ألفى ألف دينار أى أن من وجبت عليهم الجزية (وهم من عدا الأطفال والنساء والعجائز) كان عددهم مليون نسمة ، بواقع دينارين للفرد الواحد .

(ب) أما ابن عبدالحكم فى فتوح مصر فقد قدر عدد من وجبت عليهم الجزية بستة ملايين نسمة وكذلك فعل السيوطى فى حسن المحاضرة .

(جـ) ذكر المقريزى فى الخطط (١٣٦/١ ط لبنان) أن عدد من دفعوا الجزية كانوا ثمانية ملايين شخص .

(١) انظر حسن المحاضرة (ط الشرقية) ٦٧/١ .

فكتب عمرو إلى عمر يخبره بذلك فكتب إليه أن ابعث إلى به فبعث به إليه فقال له عمر : «لأجعلنك نكالا لمن خلفك» . وحيث كان معظم العرب يعملون كأفراد فى القوات المسلحة وينظر إليهم على أنهم غزاة فاتحون فإننا لانتوقع قيام علاقات طيبة – لبعض الوقت – بينهم وبين الأقباط . أما العرب الذين لم يفدوا بوصفهم جندا عاملين فكانوا قلة ، وتفرقوا فى البلاد ، فنزل بعض من «لخم» و «جذام» بالحوف الشرقى (١) ، وبعض من «بلى» بسوهاج واستقرت جهينة فى الصعيد ، وبعضهم نزح إلى الصحراء . ومن أشهر المناطق التى سكنتها القبائل الأولى كذلك الفيوم وبهنسا وبوصير وسخا وإتريب ومنوف وسمنود وطحا .

٦– فى النصف الثانى من هذا القرن فرضت ضريبة على الرهبان لأول مرة ، وقد فرضها عبدالعزيز بن مروان فى عام ٦٥ هـ = ٦٨٥ م وقدرها دينار عن كل فرد بحجة أنه ليس من العدل أن تدفع الطبقات الفقيرة الضرائب ويعفى منها الرهبان والمطارنة والبطاركة الذين يملكون ثروات ضخمة . واستنادا إلى ما ذكره المؤرخ القبطى سويرس بن المقفع ، فرض الأصبغ بن عبدالعزيز بن مروان (توفى عام ٨٦ هـ = ٧٠٥ م) – الذى كان نائبا عن والده عبدالعزيز ابن مروان فى حكم مصر خلال فترة ولايته – ضرائب على الرهبان الأقباط وأراضيهم ، وقبل عهده لم تكن هناك أى ضرائب مفروضة عليهم (٢) .

---

(١) يشمل الحوف الشرقى القرى الواقعة على الجانب الشرقى من الوجه البحرى وبلبيس وكان يشمل كل البلاد التابعة الآن لمحافظتى القليوبية والشرقية ، وما يقع إلى شرقى مركز السنبلاوين وأجا وبلاد مركز ميت غمر بمحافظة الدقهلية .

(٢) يبدو أن الضريبة الأولى التى فرضها عبدالعزيز بن مروان على الرهبان هى هذه الضريبة التى فرضها الأصبغ . أما إذا اختلفت فلعل الأولى كانت تقابل ما يسمى بالجزية أو ضريبة الرؤوس ، =

كذلك قال سويرس بن المقفع إن الأصبغ أمر حكام المحافظات وموظفيها فى كثير من مدن مصر العليا والسفلى أن يعتنقوا الإسلام أو يغادروا وظائفهم . وقد كان من نتائج هذه السياسة ذات الشقين أن دخل كثيرون دين الإسلام ، منهم «بيتر» حاكم الصعيد ، وأخوه «تيودور» حاكم مريوط وعدد لايحصى من القسس وعامة الشعب .

ومن الطبيعى ألا يظهر أثر هذا العامل فى خلال تلك الفترة وأن تظهر نتائجه فى المرحة التالية .

وباستثناء هذا المثال الواحد لم يكن هناك ضغط مباشر على الأقباط ليكونوا مسليمن ، وإنما كان عليه أن يدفعوا نوعا أو أنواعا معينة من الضرائب [١] .

= أما الثانية فكانت تقابل ما يسمى بالخراج أو ضريبة الأرض . ويبقى قول سويرس «وقبل عهده لم تكن هناك أى ضرائب مفروضة عليهم» فى حاجة إلى نظر .

(١) كان على الأقباط أن يدفعوا نوعين من الضرائب :

(أ) الجزية أو ما يسمى بضريبة الرؤس . وتذكر المصادر العربية أن مقدارها ديناران فى العام على كل شخص باستثناء النساء والأطفال والشيوخ . ولكن أوراق البردى تثبت أنها كانت تقدر على حسب ثروة الشخص وليست ثابتة . ويبدو أن ما ذكره المؤرخون العرب عن هذا المقدار ما هو إلا متوسط ما يؤديه دافعو الضرائب ليس إلا . ومعنى هذا أن الجزية المفروضة على كل قرية كانت تؤخذ بضرب عدد الرؤس فى اثنين ، ثم يقسم الناتج على أبناء القرية بحسب ثروة كل فرد . وقد ثبت من قوائم الضرائب المكتوبة باللغة اليونانية والتى يرجع تاريخها إلى القرن الأول للهجرة أنه كانت تحصل أحيانا مبالغ أقل من دينارين بل أقل من دينار وقد يصل الرقم المحصل إلى أربعة دنانير إذا كان الشخص من ذوى الثراء .

(ب) ضريبة الأرض ، وكان تختلف من وقت إلى وقت تبعا لدرجة الفيضان السنوى من ناحية ، ولسياسة كل حاكم من ناحية أخرى (انظر النجوم الزاهرة ٢٤/١، وفتح العرب لمصر لبتلر ص ٣٩٢ و ٣٩٥ ، والأعلاق النفيسة لابن رسته ص ١١٨ و ١١٩ (ليدن ١٨٩١) ، ودائرة المعارف الإسلامية مادة Egypt ص ١٦ ، و Lane Poole فى A History of Egypt ص ١٩ و ٢٠ و ٤٣ ، وابن حوقل : المسالك والممالك ص ٨٨ و ٨٩ و ١٠٧ =

٧- ويجب أن نذكر اسم عمر بن عبدالعزيز مرة أخرى فى هذه المرحلة لأنه كان أول من ألغى ضريبة الروس على الأقباط إذا ما اعتنقوا الإسلام ورفض فى ذلك أن يأخذ بمشورة من نصحوه باستمرار تحصيل الجزية نظرا لازدياد من يعتنقون الإسلام . وقد رد عليهم بقولته الشهيرة : «إن الله إنما بعث محمدا صلى الله عيه وسلم هاديا ولم يبعثه جابيا . ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه» . وقد أدت هذه السياسة إلى إغراء بعض الأقباط بالدخول فى الإسلام . ولكن مرة ثانية ، لم يظهر أثر هذا العامل خلال هذه المرحلة .

٨- أن حركات الدخول فى الإسلام سارت بطيئة فى أنحاء البلاد خلال هذا القرن، ولم تحدث موجات ذات بال ماعدا تلك التى سبقت الإشارة إليها . وماعدا موجات الدخول فى الإسلام التى قام بها العرب الجاهليون المقيمون بمصر . وقد أشار المؤرخون بالنسبة للقسم الأخير إلى أن عددا كبيرا من هؤلاء العرب لم يترددوا فى تأييد إخوانهم الفاتحين ، وفى تعويض عمرو بن العاص عن خسائره خلال الفترة الأولى من الصراع .

وكانت النتيجة الحتمية لتلك العوامل المتضاربة أن حققت اللغة العربية بعض النصر على حساب اللغة القبطية التى فقدت بدورها شيئا من قوتها فى صراعها من أجل الحياة . وإن بقاء اللغتين جنبا إلى جنب ، وفشل أيهما فى القضاء على الأخرى ، لايعنى أنهما كانتا فى حالة ركود ، فمن المتوقع أن يكون قد حدث بينهما نوع من التأثير المتبادل ، ومن غير المشكوك فيه أن تكون كل لغة قد تركت شيئا من معالمها على الأخرى .

= و ١٠٨ ، والمقريزى : إغاثة الأمة ١٣ - ١٨ ، والخطط المقريزى ٩٨/١ و ٩٩ وشكرى فيصل ص ١٢٤ .

الفصل الثالث

المرحلة الثانية من الصراع

مرحلة التقدم

أما المرحلة الثانية فمن الممكن أن تحدد نهايتها بعام ٢١٥ هـ = ٨٣٠ م . والعلامة المميزة لهذه المرحلة أنه بنهايتها كان ميزان القوى قد اختل لصالح اللغة العربية التى حققت نجاحا كبيرا . أما الأسباب التى أدت إلى هذه النتيجة فهى كما يلى :

١- ازدياد حركة التعريب للدولة ، وإحلال العرب أو المسلمين محل الأقباط . وقد أدت هذه الحركة بالأقباط إلى أن يهملوا تدريجيا دراسة اللغتين اليونانية والقبطية ، وأن يسرعوا فى تعلم اللغة العربية لتفتح أمامهم فرص العمل ، أو ليحتفظوا بما فى أيديهم من وظائف . ولم تؤد حركة التعريب إلى أى تذمر أو احتجاج من الأقباط ، إذ كان التعريب انتقالا من لغة أجنبية هى اليونانية إلى لغة أجنبية أخرى هى العربية . وكما تعلم الأقباط اليونانية واستعملوها فى الدواوين على الرغم من أنها ليست لغتهم ، لماذا لايتعلمون العربية ويستعملونها في الدواوين بدلا منها وهى لغة المنتصرين [1] ، ولغة سوف تفتح أمامهم أبواب الرزق ؟

---

(١) انظر أقباط ومسلمون ص ٣٠١ .

وليس هذا فحسب ، فإن بعض الأقباط لم يقنع بتعلمه اللغة العربية ، وأراد أن يذهب خطوة أبعد في التقرب من الحكام فاعتنق الإسلام ، ولم يكتف بعضهم بالإسلام فحاول أن ينتسب إلى إحدى القبائل العربية علّ ذلك يشفع له عند الناس ويجعله ينعم بالمساواة بينهم [١] .

٢- إحكام الحصار على الأقباط لمنعهم من الفرار من دفع الجزية بأى وسيلة من الوسائل عدا اختيار الإسلام ، ولإحباط مساعيهم فى التهرب من دفع التزاماتهم المالية . وقد لجأ الأقباط إلى حيل متعددة قوبلت بردود أفعال مناسبة :

(أ) فقد زاد عدد الأقباط الذين ادعوا حقهم فى الإعفاء من دفع الجزية بحجة ترهبهم أو انتسابهم إلى الكنيسة ، مما أدى بالوالى إلى فرض جزية مقدارها دينار على كل نسمة ، كما قام بإحصاء جميع الرهبان فى كل الكور وأمر ألا يرهّب أحد بعدهم .

(ب) ولجأ بعضهم إلى تغيير محال إقامتهم بعد أن انتهت السلطات من تعداد السكان ، وأقاموا فى نواح أخرى لم تدرج أسماؤهم فى قوائم الضرائب فيها ، مما أدى بالوالى أن يصدر أوامره المشددة بعدم السماح لأحد بالسفر أو الانتقال من قرية إلى قرية بدون أن يكون حاملا لجواز سفر ، وتغريم من يضبط بدونه مبلغ خمسة دنانير . كذلك صدرت الأوامر بألا يسمح لقافلة بالانتقال من مكان إلى آخر مالم تكن حاملة لإذن كتابى وإلا تعرضت للمصادرة .

---

(١) انظر ما سبق عن ذلك في الفصل الأول .

(جـ) كذلك لجأ بعض المزارعين إلى هجر أراضيهم وقراهم بحجة عدم استطاعتهم الوفاء بالتزاماتهم المالية [١] ، فاضطرت الحكومة إلى تتبع هؤلاء المهاجرين وردهم ، أو إلى تهجير بعض القبائل العربية وإحلالها محلهم كما سنتحدث فيما بعد .

(د) وقام بعضهم بثورات دموية قوبلت بشدة ، وأخمدت بقسوة ، ومن ذلك ثورات أعوام ١٠٧ و ١٢١ و ١٣٢ و ١٣٥ و ١٥٠ و ١٥٦ هجرية [٢] .

٣٦- تتابع هجرات القبائل العربية إلى مصر لأسباب مختلفة بعضها سياسي وبعضها ديني وبعضها اقتصادي . وقد حدث هذا بشكل مطرد خلال تلك الفترة ، وأحصى ماك ميكل ما أمكن التعرف عليه من القبائل التى وفدت إلى مصر فى الفترة ما بين سنة ١٣٣ هـ إلى ٢٤٢ هـ فوجدها تبلغ ثلاثا وثلاثين قبيلة متفرقة فى فروع مختلفة . ويمكن التمثيل لهذه الهجرات بما يأتى :

(أ) قبيلة لخم التى رحل بعضها مع الفاتحين إلى مصر ثم دخلت قبائل كثيرة منهم فى القرنين السابع والثامن ، وحطت رحالها فى جهات الإسكندرية،

---

(١) تلقى أوراق بردى «كوم أشقاو» شعاعا من النور على هذه الحركة التى كان محورها الزراع ، وكان الوالى يأمر بإعادتهم إلى قراهم الأصلية . فنراه يكتب إلى صاحب «أشقوه» أنه علم بوجود جالية فى أرضه ويطلب منه أن يردها إلى أرضها الأصلية . ونراه يرسل مندوبين للنظر فى حركة الهرب ، ويطلب من صاحب الكورة أن ييسر مهمتهم ، وأن يرسل معهم رجالا ثقات يعرفون الكتابة ليقوموا فى حضرتهم بكتابة أسماء الهاربين وألقابهم ، وليبينوا أيضا من أين هربوا وإلى أى جهة ذهبوا . (انظر : د. سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ٢٢٨) .

(٢) ذكر المقريزى أن أولى ثورات القبط حدثت عام ١٠٧ هـ ، ولكن أوراق البردى تتحدث عن ثورة فى الصعيد أسبق من ذلك حدثت فى عام ٩٤ هـ = ٧١٢ م .

وقد كان منهم أمير حكم مصر عام ١٣٣ هـ ، ٧٥٠ م . وقد كان تعيين وال من قبيلة معينة من أكبر الفرص للمهاجرة فقد كان يرافقه مالا يقل عن عشرين ألف مقاتل من قبيلته .

(ب) قيس عيلان التى رحل بعض منها إلى مصر عام ١٠٩ هـ = ٧٢٧ م بأعداد كبيرة تصل إلى ثلاثة آلاف شخص فى رواية ، وخمسة آلاف فى رواية أخرى ، ونزلوا بالحوف الشرقى [١] . وصرف لهم الوالى مرتبات من أموال الصدقة والعشور ، وأمرهم بالزرع وتربية الإبل والخيول . وكان يتحصل للرجل منهم فى الشهر نحو عشرة دنانير ، ولم يكن عليهم مؤنة فى علف إبلهم ولا خيولهم لجودة مرعاهم . وتضاعف عددهم فيما بعد بشكل ملحوظ ، فسرعان ما تسامع باقى أفراد القبيلة بخصب الأرض وكثرة خيراتها فهاجر عدد آخر يبلغ خمسمائة أسرة ، ثم بعد سنة أتى نحو خمسمائة أسرة أخرى وهكذا . ويقول الكندى عنهم إنهم «توالدوا وقدم عليهم من البادية من قدم» [٢] . وقد حقق تهجير هذه القبيلة أهدافا كثير أهمها :

(أ) الإقامة فى منطقة الحوف الشرقى التى قام أهلوها الأقباط بثورتهم الأولى عام ١٠٧ هـ حتى يكونوا عامل تعادل فى المنطقة .

---

(١) يرى المقريزى أن قليلا من أفراد قيس كانوا قد أتوا مصر قبل تهجير من هجروا فى عهد الوليد ابن رفاعة الفهمى . ويخالف ماك ميكل فى ذلك لأنه يرى أن ثلاثة من الحكام القيسيين حكموا مصر قبل الوليد بين سنتى ٩١ و ١٠٩ هـ ، منهم اثنان من فهم وواحد من عبس . ولا يمكن أن يحكموا من غير أن يكون قد صاحبهم عدد كبير من قبائلهم .

(٢) القبائل العربية لخورشيد ص ٥٣ .

(ب) محاولة عمل تعادل من نوع آخر يتم هذه المرة بين القبائل السبئية والعدنانية . فقبل هذه الهجرة لم يكن بأرض مصر من قيس إلا عدد قليل من فهم وعدوان .

(جـ) المساعدة على انتشار الإسلام ، إذ سكنت موقعا آهلا بالسكان الأقباط، على عكس ما حدث من قبل لمعظم القبائل العربية التى لم تختلط بسكان الريف والقرى إلا قليلا ، مما جعل انتشار الإسلام فى القرن الأول محدود الأثر .

(د) حلولها فى الزراعة محل المزارعين الذين تركوا أرضهم ، ورحلوا إلى أماكن أخرى ، فكان جزء من مهمتهم ملء الفراغ الذى تركه السكان الأصليون .

وهكذا كان تهجير هذه القبيلة بأعداد ضخمة - بالإضافة إلى موقع سكانها- عاملا كبيرا من العوامل التى أدت إلى سرعة إدماج العنصر العربى فى العنصر المصرى ، وأصبحنا نرى فى الوجهين البحرى والقبلى عربا تزوجوا من نساء قبطيات اعتنقن الإسلام ، كما أصبحنا نرى علاقات اجتماعية طيبة بين العرب وغيرهم . وهذا ولا شك أعان على انتشار الإسلام بشكل واسع وبسرعة ملحوظة .

٤- ازدياد عدد الداخلين فى الإسلام فرادى وجماعات نتيجة لأسباب كثيرة ، أهمها :

(أ) قوة الحركة الدينية ونشاط الدراسة الإسلامية والعربية فى مصر فى ذلك الوقت ، وامتلاء مصر منذ أواخر القرن الأول بعلماء الدين والقراء والمفسرين والمحدثين ، على نحو ما سنفصله فى الفصل الخامس من هذا الباب .

(ب) كان هناك حركة فردية بين المفكرين فى تقبل الإسلام . فقد استجاب له كثيرون من الذين كانوا يحسون أعمق القلق فى حياة المسيحية ويعانون أقسى الآلام حين يرون أمام أعينهم تطاحن فرقها وتنازع مذاهبها . وقد كتب بتلر فى شأن هذا اللون من الناس يقول : «وأما الحقيقة المرة فهى أن كثيرين من أهل الرأى والحصافة قد كرهوا المسيحية لما كان منها من عصيان لصاحبها ، إذ عصت ما أمر به المسيح من حب ورجاء فى الله ... ومنذ بدا ذلك لهؤلاء العقلاء لجأوا إلى الإسلام فاعتصموا بأمنه واستظلوا بوداعته وطمأنينته وبساطته [1] » .

(جـ) الإغراء المادى المتمثل فى الإعفاء من الجزية كما سبق أن أشرنا . وكان هذا الإغراء متمثلا بشكل أوضح فى المدن ، وبين أرباب الوظائف، وأصحاب المهن غير الزراعية ، لأن معنى إعفائه من الجزية إعفاؤه الكامل من دفع أى ضريبة للحكومة . أما إعفاء الفلاح من الجزية فلم يكن يعفيه من دفع ضريبة الأرض المعروفة باسم «الخراج» . فالخراج كان مربوطا بالأرض يتحمله صاحبها حتى لو أسلم أو باعها لمسلم . ولهذا يقول المستشرق دى ساسى : «ولعل ذلك أحد الأسباب التى دعت

---

(١) انظر شكرى فيصل : المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول ص ١٥٣ .

إلى بقاء المسيحية فى الأقاليم مدة أطول منها فى المدن» . كذلك كان فقد الرهبان لامتيازاتهم المادية عاملا من عوامل ازدياد اعتناق الإسلام بينهم ، مما أدى إلى تناقص عدد الرهبان ، وهجر الأديرة شيئا فشيئا حتى صارت خرابا [١] .

(د) يقول المقريزى : لم ينتشر الإسلام فى قرى مصر إلا بعد المائة من تاريخ الهجرة عندما أنزل عبيد الله بن الحبحاب مولى سلول قيسا بالحوف الشرقى . فلما كان بالمائة الثانية كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها . وقد سبق حديثنا عن الهجرات العربية وبيان أهميتها فى نشر الإسلام .

(هـ) وقد تحدث سويرس بن المقفع عن موجات عدة من الدخول فى الإسلام تمت فى تلك الفترة . وهذه الموجات – من وجهة نظر علم اللغة – بغض النظر عن أسبابها الحقيقية قد قوّت إلى درجة كبيرة من مركز اللغة العربية . ونحن نشير هنا إلى الحالتين الآتيتين اللتين ذكرهما ابن المقفع:

١- فى ولاية حفص (بين عامى ١٢٤ هـ = ٧٤١ م و ١٢٨ هـ = ٧٤٥ م) اعتنق الإسلام آلاف من الأقباط يبلغ عددهم أربعة وعشرين ألفا [٢] .

٢- فى ولاية عون (من ١٣٣ هـ = ٧٥٠ م إلى ١٣٦ هـ = ٧٥٣ م ومن ١٣٧ هـ = ٧٥٤ م إلى ١٤١ هـ = ٧٥٨ م) فرضت ضرائب باهظة على الأقباط لدرجة أن كثيرا منهم تخلوا عن دينهم المسيحى وتبعوا عبدالله [٣] .

---

(١) جاك تاجر ص ٨٨ ، وانظر شكرى فيصل ص ١٥٣ و ١٥٤ ، ومصر الإسلامية الخربوطلى ص ٣٠ .

(٢) يبدو أن سبب اعتناق هذا العدد الكبير الإسلام فى عهد حفص أنه نادى بإعفاء كل ذمى من دفع الخراج . انظر : ترتون فى كتابه : أهل الذمة فى الإسلام ص ٣٨ .

(٣) يعنى الخليفة أبا جعفر عبدالله بن محمد .

ولسنا نزعم أنه بانتهاء هذه الفترة كان كل شخص يعرف اللغة العربية ، ولكننا نزعم على الأقل أنه بانتهائها كان كل شخص يعرف العربية يحس بمكانته في المجتمع ويشعر أنه ابن من أبنائه بخلاف من أصر على تمسكه بلغته الأصلية، ولم يحاول تعلم اللغة العربية فقد أحس بانفصال عن المجتمع ، وشعر بغربة لايمكن أن يحس بها الشخص في وطنه . وأقرب مثل لذلك ما ذكره الشماس يوحنا أنه بينما كان موسى مطران أوسيم في طريقه للمثول بين يدى الخليفة مروان الذى لجأ إلى مصر عام ١٣٢ هـ = ٧٥٠ م ألقاه الجند أرضا وأخذوا يضربونه على عنقه وعلى أضلاعه ... ولم يستطع المطران أن يتفاهم معهم لأنه كان لايعرف اللغة العربية وكان محتاجا إلى مترجم ليترجم له ما يفوهون به .

الفصل الرابع

المرحلة الثالثة من الصراع

مرحلة النصر

هى آخر مراحل الصراع والتوتر ، وقد شملت بقية القرن الثالث الهجرى ومعظم القرن الرابع أو جميعه ، وتلتها مرحلة من الهدوء والاستقرار بدأت مع القرن الخامس . ويرجع ذلك للعوامل الآتية :

١- ازدياد الهجرات العربية خلال هذه المرحلة . ومن أشهر القبائل المهاجرة فى تلك الفترة :

(أ) قبيلة الكنز ، ففى سنة ٢٤٠ هـ = ٨٥٤ م فى خلافة المتوكل حدثت هجرة كبيرة إلى مصر من ربيعة ، حيث جاءت قبيلة الكنز وهى إحدى بطون ربيعة ، وتفرق رجالها فى جهات كثيرة ، ونزلت طائفة منهم فى أسوان وشمال النوبة . وفى سنة ٢٥٦ هـ رافقت ربيعة جهينة إلى البجة شرقا ، وكانت البجة تشن الغارات على القرى الشرقية فى كل وقت حتى أخربوها ، فقامت ربيعة بمنعهم من ذلك حتى كفوهم ثم تزوجوا منهم ، وفى ذلك الوقت أعيد كشف مناجم الذهب القديمة فى صحراء النوبة ، مما أغرى العرب على الإقبال على مصر العليا للاستيلاء على هذه المناجم . وخرجت قبيلة الكنز من ذلك بنصيب الأسد فكثرت أموالهم واتسعت أحوالهم (١) .

---

(١) انظر قبائل العرب فى مصر لأحمد لطفى السيد ٥٩/١ وانظر القبائل العربية لخورشيد ص١١٣

(ب) قبيلتا هلال وسليم اللتان هاجرتا فى القرن العاشر . فحين أصبح الفاطميون سادة فى شمالى إفريقية ، ونشروا نفوذهم على مصر والشام فى سنة ٣٨١ هـ = ٩٩١ م دعا الخليفة الفاطمى العزيز (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) قبائل هلال وسليم إلى النزول بمصر فهبطوها وأنزلهم الصعيد [١] .

وقد وضع جمال حمدان موجة بنى هلال وسليم على قدم المساواة مع موجة الفتح الإسلامى فى أثرها العروبى والتعريبى ، بل اعتبر هذه الموجة هى الحاسمة فى قضية التعريب قائلا : «لو اقتصر الأمر على موجة الفتح الإسلامى لما كان للعروبة والتعريب هذا الشأن الذى بلغته مصر . ولكن موجة مدّية جديدة عارمة دفعت بالعملية إلى مرحلة ومستوى جديدين تماما لاتقل إن لم تزد فى أثرها الجنسى عن موجة الفتح الإسلامى نفسه ، بحيث يمكن أن نفترض أو نتصور لمنحنى عملية تعريب مصر قمتين بارزتين لاقمة واحدة . هذه الموجة هى موجة بنى هلال وسليم» [٢] .

(جـ) فى أول القرن العاشر الميلادى اضطرت سلالة جعفر الطيار إلى النزوح عن الحجاز تحت ضغط بنى الحسن فلجأت إلى مصر [٣] .

٢- فى عام ٢١٦ هـ = ٨٣١ م نشبت أكبر ثورة فى البلاد انضم إليها عدد كبير من الأقباط وشملت الوجه البحرى كله . فاضطر المأمون إلى أن يحضر بنفسه إلى مصر ويخمدها بشدة . ويقول المقريزى فى ذلك : فلما كان فى

---

(١) المرجع قبل السابق ١/٥٥ .

(٢) شخصية مصر ٢/٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ .

(٣) قبائل العرب فى مصر ١/٦٣ ، ٧٠ .

جمادى الأولى سنة ٢١٦ انتقض أسفل الأرض بأسره عرب البلاد وقبطها ، وأخرجوا العمال وخلعوا الطاعة لسوء سيرة عمال السلطان فيها ، فكانت بينهم وبين عساكر الفسطاط حروب . وبعد هذه المعركة لم تقم للأقباط قائمة ودخل كثير منهم الإسلام . ويعلق المقريزى على إخماد المأمون للثورة قائلا : ومن حينئذ أذل الله القبط فى جميع أراضى مصر وخذل شوكتهم ، فلم يقدر أحد منه على الخروج ولا القيام على السلطان ، وغلب المسلمون على القرى .

٣- من الثابت أنه منذ القرن الثالث الهجرى أخذ عدد المسيحيين فى مصر يتناقص ، ولم يعد لهم أغلبية عددية هناك . ويعتبر عصر الحاكم بأمر الله (من ٣٨٦ هـ = ٩٩٦ إلى ٤١١ هـ = ١٠٢٠) نهاية النفوذ المسيحى فى مصر . وتنسب كثير من المراجع إليه اضطهاده للأقباط وإلزامهم بزى معين، ومنعهم من امتلاك العبيد واستخدام المسلمين ، بل وهدم كنائسهم ونهب ما فيها ، وإلغاء الاحتفالات بأعيادهم [١] .

ويعلق الدكتور جاك تاجر على عهد الحاكم بقوله : «إن هناك حقيقة واقعة لاسبيل إلى انكارها ، وهى أنه قبل أن يترك الحاكم عرشه قضى على نفوذ النصارى فى مصر . ومن ذلك الحين أصبح الأقباط مهملين فى الدولة ، وأصبح تاريخهم عبارة عن جملة أحداث ثانوية ، وفقدوا بعد ذلك شخصيتهم تدريجيا ليندمجوا فى سواد الشعب» .

وشيئا فشيئا زاد دخول الأقباط فى دين الإسلام ، ولم يأت القرن الثامن الهجرى = الرابع عشر الميلادى حتى كان عدد المسيحيين لايزيد على عشر مجموع السكان .

---

(١) أقباط ومسلمون ص ١٢٩ - ١٣٥ .

٤- فى عام ٢١٨ هـ = ٨٣٣ م صدرت أوامر الخليفة المعتصم العباسى إلى واليه على مصر كيدر بن نصر بتسريح الجيش العربى وشطب أفراده من ديوان الجند ، وقيد الأتراك فى مكانهم . وقد أدى هذا إلى تقليل النفوذ الرسمى للعرب فى مصر ، ولكنه فى نفس الوقت قوى من مركزهم الاجتماعى وبالتالى من مركز اللغة العربية . فلقد كانت النتيجة الحتمية هى محاولة العرب الجدية البحث عن وظائف مدنية لهم ، أو الاشتغال بالأعمال الحرة كالزراعة والتجارة ، والعمل على الاندماج فى السكان الأصليين ، والسعى لاكتساب صداقتهم ، وإنشاء علاقات أسرية معهم .

٥- استمرار إجراءات تعريب الدولة ، وصبغها صبغة إسلامية ، والتمسك بشرط الإسلام لمن يريد شغل أى وظيفة فى الدولة أو البقاء فى منصبه . وأشير فى ذلك إلى الأمثلة الآتية :

(أ) فى سنة ٢٣٥ هـ أصدر الخليفة المتوكل نشرة يحذر فيها من توظيف اليهود والنصارى فى الوظائف الرئيسية .

(ب) اعتنق اليهودى يعقوب بن كلس الإسلام بعد أن بلغه أن كافورا قال عنه: «لو كان مسلما لاستوزرته» . ثم خرج إلى المغرب حيث عاون الفاطميين على فتح مصر فجعله المعز أكبر مستشاريه وعينه أمينا على بيت المال .

(جـ) فى عهد الحاكم بأمر الله أصبح الإسلام شرطا أساسيا فى تولى الوظائف العامة وفصل الخليفة لذلك عددا كبيرا من أهل الذمة ، ولم يترك إلا من اتضح عدم إمكانية الاستغناء عن خدماتهم . ويصف سويرس بن المقفع ذلك الوضع بقوله : «إن الحاكم تقدم فى الحال بإثبات سائر المسلمين والمتعطلين والمتصرفين من الكتاب الذين يصلحون للخدمة

فى دواوينه وأعماله ليتخذ منهم من يستبدل به عوض النصارى.. فأسلم كثير من شيوخ الكتاب والمتصرفين وغيرهم من النصارى ، وتبعهم خلق كثير من عوامهم . وأسلم أيضا جماعة من اليهود ... وأسلم أكثرهم ، واقتدى بعضهم ببعض ، وتلاحقوا فلم يبق منهم إلا نفر يسير معدودين (كذا) ...» .

ونتيجة لكل هذه العوامل المختلفة صارت اللغة العربية مألوفة للأقباط ، وتعودوا سماعها . لقد أصبح من المستحيل على أى إنسان أن يقاوم هذا الاتجاه، أو يقف فى وجه تيار العربية . وحتى لو حاول ذلك فستقرع العربية أذنه فى كل لحظة وستصبح لغته الأم بمرور الوقت .

* * *

والسؤال الآن الذى لابد أن أختتم بإجابته هذا الفصل هو : فى أى وقت - بالتحديد - حلت اللغة العربية محل اللغة القبطية فى مصر ، ومتى أصبحت اللغة العربية اللغة الوطنية لكل المصريين على السواء ؟

ونبدأ فنقول إنه ليس من السهل مطلقا أن نحدد عاما معينا ، أو فترة زمنية قصيرة تعتبر الحد الفاصل بين عهدين . وإنما لابد من توسيع الدائرة ، وفرض مجال زمنى واسع تم فى فترة ما من فتراته هذا التحول الكبير ، ونبدأ أولا فنعرض الآراء المختلفة التى قيلت حول هذا الموضوع ، ثم نثنى برأينا فيه :

١- يذهب القس رنودو Renaudot إلى أنه بعد فتح العرب لمصر بنحو قرن تلاشت اللغة القبطية نهائيا من معظم القطر المصرى ، ولم تعد تعرف إلا بين العلماء الذين كانوا يدرسون تلك اللغة دراسة خاصة [1] .

---

(١) انظر سيدة كاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ٢٥٩ .

٢- يرى دى لاسى أوليرى De Lacy O'Leary أنه من الصعب تحديد الوقت الذى حلت فيه اللغة العربية محل القبطية باعتبارها لغة دارجة بين المصريين . ويرى أنه حتى القرن العاشر الميلادى ظلت اللغة القبطية لغة حية خارج الأديرة . ويؤيد رأيه بالحقيقة القائلة إنه خلال ذلك القرن ظهر نتاج من الشعر القبطى الشعبى وتم جمعه . وهو يحدد القرن التاسع الميلادى باعتباره قرن التحول الخطير فى تاريخ اللغة القبطية ، كما كان خطيرا فى تاريخ الأقباط .

٣- يرى آدم متز أن القبط لم يبدأو بترك لغتهم القبطية إلا نحو أواخر القرن الرابع الهجرى = العاشر الميلادى .

٤- يرى بول كهل Paul Kahle أنه فى القرن العاشر أو الحادى عشر الميلادى أصبحت اللغة العربية راسخة جدا باعتبارها اللغة الرسمية فى مصر .

٥- يرى كاتب مادة «قبط» فى دائرة المعارف الإسلامية أنه فى القرن الحادى عشر الميلادى - وربما قبل ذلك - لم تعد اللغة القبطية لغة مكتوبة .

٦- يرى الدكتور جاك تاجر أن اضمحلال القبطية حدث بالتدريج وعبر عن ذلك بقوله : «لقد كبتت اللغة العربية اللغة القبطية رويدا رويدا مثل النبات الذى حرم من الماء والشمس فى ظل شجرة كبيرة . لقد ظلت اللغة القبطية على قيد الحياة حتى القرن العاشر الميلادى بل ازدهرت فى الأديرة ولكنها منذ القرن الحادى عشر حرمت من العناية فذبلت بسرعة حتى إذا جاء القرن الثانى عشر كادت تلفظ أنفاسها» . ولكنه يرى أنها ظلت مزدهرة فى صعيد مصر مدة أطول .

٧- يؤكد المسيو ماسبيرو (مدير دار الآثار سابقا) أن سكان الصعيد كانوا يتكلمون ويكتبون باللغة القبطية حتى السنين الأولى من القرن السادس عشر فى أوائل حكم الأتراك .

٨- يرى برنس J.D. Prince أن اللغة القبطية ماتت كلغة حديث منذ نهاية القرن السابع عشر الميلادى . واستند فى ذلك إلى ما ذكره الرحالة الهولندى Van Sleb من أنه قابل رجلا عجوزا نحو عام ١٦٨٠ م يتكلم القبطية . ويرى أن الفترة الحرجة فى تاريخ اللغة القبطية فى مصر هى الفترة ما بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر ، إذ بينهما أخذت القبطية تتلاشى بالتدريج كلغة خطاب . ويعزز دعواه بما نقله عن المقريزى (فى القرن الخامس عشر الميلادى) من أنه وجد نساء الأقباط وأطفالهم فى الصعيد فى وقته يتكلمون القبطية غالبا . وينهى برنس رأيه قائلا : ولاشك أن اللغة القبطية قد بدأت تأخذ دورا ثانويا حتى قبل زمن المقريزى لأنه فى عام ١٣٩٣ م وجدت مخطوطات قبطية كتبت عليها تعليقات باللغة العربية ، مما يدل على أنه فى ذلك الوقت كانت اللغة العربية معترفا بها كلغة سائدة ، وأنها صار لها الاستعمال العام .

٩- يرى زكى شنودة أن اللغة القبطية بدأت تضمحل منذ القرن التاسع الميلادى . وما أن جاء القرن الثالث عشر حتى كانت قد دحرتها اللغة العربية وسادت عليها . ويرى أنها ظلت لغة تخاطب فى الصعيد حتى القرن السابع عشر الميلادى . ويحدد القرن التاسع عشر باعتباره نهاية زمن الكلام بالقبطية .

١٠- يرى الدكتور جمال حمدان أن العربية لم تسد فى مصر تماما ونهائيا إلا حوالى القرن الرابع عشر أى فى الوقت نفسه الذى اكتمل فيه اتجاه العرب من جانبهم إلى الاستقرار النهائى والتوطن والانصهار .

أما نحن فيتلخص رأينا فيما يأتى :

١- أنه لابد لكى يكون التحديد الزمنى دقيقا أن نميز بين ثلاثة أنواع من اللغة العربية :

(أ) اللغة العربية باعتبارها لغة الدواوين أو اللغة الرسمية للدولة .

(ب) اللغة العربية باعتبارها لغة الثقافة .

(جـ) اللغة العربية باعتبارها لغة التخاطب .

٢- أنه لابد كذلك أن نعترف بتفاوت انتشار اللغة العربية من منطقة إلى منطقة تبعا لقربها أو بعدها من مركز الحكم ، ولسهولة الوصول إليها أو صعوبته ، ولمدى فاعلية العوامل المختلفة التى سبقت الإشارة إليها ومن بينها التعريب والإسلام .

ومن أجل هذا فنحن نقترح التواريخ الآتية :

أولا : القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) حين أصبحت اللغة العربية اللغة الرسمية للدولة ، بها تكتب الوثائق وتسجل المكاتبات الرسمية وتدون الدواوين. وفى حالة استعمال لغة غير العربية كان لابد من قرنها بترجمتها العربية . ونشير فى ذلك إلى الحقائق الآتية :

(أ) أن مجموعة وثائق البردى المصرية ، ومنها التى حققها أدولف جروهمان Adolf Grohmann وبدأت دار الكتب المصرية فى نشرها منذ عام ١٩٣٤، تقل فيها الوثائق المكتوبة بغير العربية أو ذات اللغتين . ومعظمها مكتوب باللغة العربة فقط . والوثائق تشمل فترة تبدأ من القرن الأول الهجرى وتمتد لعدة قرون .

(ب) ما سبق أن قلناه عن الاجراءات التى اتخذتها الدولة منذ نهاية القرن الأول الهجرى لتعريب الدواوين .

(جـ) فى إحدى المنازعات التى شجرت عام ١٣٢ هـ = ٧٥٠ م بين الملكيين واليعاقبة بشأن ملكية بعض الكنائس ، كتب البطريرك ميخائيل الأول إلى السلطات التماسا باللغة القبطية ، ولكنه أرفق به ترجمة عربية عملا بمشورة بعض المطارنة .

وليس معنى تعريب الدواوين أن اللغة العربية أصبحت لغة الثقافة أو لغة التخاطب . فكما أن اتخاذ اليونانية لغة الدواوين لم يجعلها لغة عامة قبل الفتح الإسلامى ، كذلك اتخاذ العربية فى الدواوين لم يجعلها لغة عامة .

ثانيا : القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) حين أصبحت اللغة العربية لغة العلم والثقافة لكل المصريين على السواء ، من أسلم منهم ومن لم يسلم . ويؤيد ذلك الحقائق الآتية :

(أ) ظهور مؤلفات باللغة العربية لمؤلفين أقباط لم تعرف لهم مؤلفات بغير العربية وأذكر من بينهم :

١- سعيد بن بطريق الذى كتب كتبا منها «كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» و«كتاب البرهان» .

٢- سويرس بن المقفع المسيحى اليعقوبى الذى شغل منصب أسقف فى كنيسة أشمونين نحو عام ٩٨٥ م ، وكان رجلا خصبا فى كتاباته ومع ذلك فضل الكتابة باللغة العربية . وأهم ما كتبه مؤلفه المشهور «سير الآباء البطاركة» .

(ب) ماذكره سويرس بن المقفع فى مقدمة كتابه السابق الإشارة إليه الذى كتبه فى القرن الرابع الهجرى باللغة العربية ، من أنه ترجم مادة كتابه من اللغتين اليونانية والقبطية بعد أن وجد أقباط مصر فى عصره لايعرفون غير اللغة العربية . ونص عبارته : «فاستعنت بمن أعلم استحقاقهم من الإخوة المسيحيين وسألتهم مساعدتى على نقل ما وجدناه منها (يعنى سير الآباء البطاركة) بالقلم القبطى واليونانى إلى القلم العربى الذى هو اليوم معروف عند أهل هذا الزمان بإقليم ديار مصر لعدم اللسان القبطى واليونانى من أكثرهم» .

(جـ) من الثابت أن الأقباط – فيما بعد – كتبوا تاريخم بل ومقالاتهم الدينية باللغة العربية . وكان من أشهر كتاب الطائفة أبو شاكر بطرس ابن الراهب ، ومكين ، وأبو الفضائل ... ممن كانوا يجهلون اللغة القبطية .

(د) أن أوراق البردى الطبية القبطية التى نشرها Chassiant تستعمل بكثرة مصطلحات عربية كتبت بحروف قبطية وأحيانا بحروف عربية . لقد كتبها مؤلفون أقباط فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين استعملوا كلتا اللغتين القبطية والعربية ، ولكن بشكل يجعلنا نقول إنهم كانوا على علم باللغة العربية أكثر من علمهم باللغة القبطية . وقد كانوا كثيرا ما يفضلون استعمال المصطلح العربى على مقابله اليونانى أو القبطى .

(هـ) كتب ميخائيل السورى عن جبرائيل الثانى (من بطاركة اليعاقبة ، ١١٣١ – ١١٤٦ م) يقول : إنه كان بارعا فى اللغة العربية وخطها . ولما رأى أن الشعب المصرى يتكلم اللغة العربية ويكتب بها نظرا لطول عهد السيادة العربية اهتم بترجمة التوراة والإنجيل إلى العربية ، وكذلك بقية كتب الطقوس الدينية الأخرى ليستطيع الشعب فهمها .

ثالثا : القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) حيث أصبحت اللغة العربية لغة التخاطب العامة لكل المصريين على السواء ، بدليل ما يأتى :

(أ) أنه فى ذلك القرن كان عدد المسلمين قد زاد بشكل ملحوظ ، فى حين تناقص عدد الأقباط تناقصا حادا بإسلام الكثيرين ، وهجرة عدد آخر إلى مناطق النفوذ البيزنطى .

(ب) أن رجال الدين المسيحى كانوا يعظون منذ القرن الرابع الهجرى باللغة العربية لكى يفهمهم سامعوهم فقد أشارت المراجع فى أحداث سنة ٤٠٠ إلى مراسم احتفال الأقباط بعيد لهم فقالت بأنهم يخرجون إلى شاطىء النيل ، ويصلون ، ويخطب الأسقف المرأس عليهم باللغة العربية ويدعو للسلطان ومن شاء من خواصه .

(جـ) أن أبا صالح الأرمنى ذكر أنه فى القرن السادس الهجرى كان المثقفون القبط فقط من بين رجال الكنيسة هم الذين يعرفون القبطية .

ومع ذلك فنحن نرى أن غلبة العامية العربية على القبطية ربما تأخر عن ذلك قليلا أو كثيرا فى بعض الأماكن النائية من قرى الصعيد ولكن ذلك بأى حال لايمكن أن يتجاوز قرنا أو قرنين آخرين ، ولا يمكن أن يكون له صفة العمومية . ولهذا فنحن نشك فى أن ماقاله المقريزى (القرن الخامس عشر) : «ونساء نصارى الصعيد وأولادهم لايكادون يتكلمون إلا بالقبطية الصعيدية ولهم أيضا معرفة تامة باللغة الرومية» – ينطبق على عصره . ونرى أنه نقله عن مرجع قديم لايتجاوز الفترة التى ذكرناها بدليل ماجاء فى آخر النص من أن نساء الصعيد لها معرفة تامة باللغة اليونانية(١)، إذ لاشك أن ذلك لم يكن فى عصره بأى حال من الأحوال.

---

(١) كان العرب يسمون اليونان بالروم واللغة اليونانية باللغة الرومية (ع . صبحى : قواعد اللغة المصرية القبطية ص ٦) .

أما داخل الأديرة وبين الرهبان ، فنحن نتوقع أن يوجد بعض من كانوا يتكلمون القبطية لمدة أطول من ذلك . ويذكر المقريزى فى خططه عن «دير موشه» أن «الأغلب على نصارى هذه الأديرة معرفة القبطى الصعيدى» . ولكن مرة أخرى لايمكن أن يكون لذلك صفة العمومية وإلا ما احتاج المقريزى إلى النص عليه بالنسبة لهذا المكان ، وبدليل ما ذكره بعض المؤرخين من أنه «لم يمض على الفتح قرن من الزمن حتى اضطر بعد الرهبان أن يلجأوا إلى المترجمين لقراءة النصوص القبطية» .

وأما ماذكره بعضهم عن وجود أناس يتكلمون اللغة القبطية حتى عصر متأخر فما هى إلا حالات فردية نادرة لايبنى عليها حكم ، وهى من ناحية أخرى ليست كافية للقول بحياة لغة ما . ولا يكفى لاعتبار اللغة حية أن يتكلمها فرد أو فردان عن طريق التعلم ، أو أن تكون لغة ثانية يصطنعها بعض الناس عن عمد أو تعصب . ومما يدل على ندرة من بقى يتكلم القبطية بعد تلك الفترة أن الرحالة إلى مصر على الرغم من تنقيبهم الشديد كان يصعب عليهم مقابلة أى شخص يعرف القبطية وإذا حدث ووجد أحدهم من يتكلمها كان يزعم أنه آخر شخص يتحدث بها .

ولكن لاتعنى هزائم اللغة القبطية المتتالية أمام هجمات العربية أنها لم تثبت وجودها فى أى فترة من فترات الصرع ، فقد فرضت نفسها لفترة ما كلغة حديث حتى على العرب أنفسهم ، وتعلمها الكثيرون منهم . وممن عرفوا بإجادتهم اللغة القبطية القاضى خير بن نعيم الذى كان يتكلم للخصوم الأقباط ويستمع لشهادة شهودهم باللغة القبطية .

كما لاتعنى هزيمة اللغة القبطية زوالها النهائى من الوجود ، فلابد أنها ظلت تدرس ويتخصص فيها من يريد على الرغم من اعتبارها لغة ميتة ، كاللغة اللاتينية مثلا التى تعد لغة ميتة ومع ذلك لاتزال تدرس حتى اليوم . ولذا فمن الطبيعى أن يوجد أناس حتى الآن يعرفون اللغة القبطية ، وربما يقدرون على الكلام بها ، ومن الطبيعى كذلك أن يهتم رجال الكنيسية القبطية بوجه خاص بهذه اللغة لكتابة كثير من تراثهم الدينى بها وإن كان Prince قد ذكر فى كتابه The Modern Pronunciation of Coptic أن «معظم الوعاظ الأقباط غير متخصصين فى اللغة القبطية ، ولذا فهم يكتفون بترديد الصلوات كالببغاوات باللسان القبطى مع ترجمة لها باللغة العربية» . كذلك ظلت اللغة القبطية حية حياة جزئية فى شكل بقايا وآثار اختلطت باللغة العربية وأصبحت جزءا لايتجزأ منها ، كما سنتحدث فيما بعد .

أما إلى أى مدى بلغ هذا التأثير ، فهو ما سنعالجه – مع قضايا أخرى – فى الباب الثانى إن شاء الله .

الفصل الخامس

النهضة الثقافية فى مصر

وأثرها على اللغة العربية

كانت مصر منذ اللحظة الأولى للفتح الإسلامى مركزا كبيرا للثقافة العربية، وجامعة إسلامية تغص بالعلماء والدارسين فى مختلف التخصصات . وكانت فى قرونها الإسلامية الأولى بمثابة منارة علمية تشع نورها على كل البلاد المجاورة ، ويؤمها الطلاب من المشرق والمغرب للتزود من علمها الغزير والنهل من موردها العذب .

ويضيق بنا المقام لو أردنا أن نتحدث فى هذا الفصل عن جهود مصر المتعددة فى مجالات العلم المختلفة ، ولذا سنقصر حديثنا على الفروع التى تخص الثقافة العربية والإسلامية والتى كان لها أثر قريب أو بعيد فى النهوض بمستوى اللغة العربية فى مصر والارتقاء بأساليب الكتابة والإنشاء ، كما كان لها أثر كبير فى مساعدة الأجانب عن اللغة على تعلمها ، ومد يد العون لمن يريد إجادة فن الكتابة لينفتح أمامه سبيل العمل فى الدواوين والمصالح الحكومية . وسوف نقصر حديثنا على المجهودات التى تمت حتى نهاية القرن الرابع الهجرى ، وهو القرن الذى اعتبرناه نقطة التحول فى لغة الثقافة فى مصر ، وقرن انتصار العربية على القبطية وصيرورتها لغة التأليف للمسلمين والأقباط على السواء .

* * *

أما فى مجال الدراسات الإسلامية فقد كانت الريادة لأولئك العرب الذين صاحبوا جيش الفتح من الصحابة أو وفدوا بعده بقليل ، واتخذوا مصر موطنا لهم، وعاشوا فيها فترة من الزمن ، طالت أو قصرت .

وقد كان من أشهر علماء القراءات الذين قصدوا مصر فى وقت مبكر جدا الصحابة عبيد بن عمر الذى شغل منصب أول قارىء رسمى فى مصر ، وعقبة ابن الحارث الفهرى . وتلاهم جيل من التابعين ، منهم عبدالرحمن بن هرمز تلميذ أبى هريرة ، وعبدالله بن العباس الذى اختار الإسكندرية موطنا له ، وتوفى عام ١١٧ هـ = ٧٣٥ م .

أما رجال الحديث فكان فى مقدمتهم الصحابى الشهير أبو هريرة راوى أكبر عدد من الأحاديث النبوية ، وقد جاء إلى مصر فى عهد مسلمة بن مخلد (من ٤٧ هـ = ٦٦٧ م إلى ٦٢ هـ = ٦٨١ م) ، وكذلك الصحابة عبدالله بن عمر ابن الخطاب ، الذى جاء مع جيش الفتح إلى مصر ، وعبدالله بن العباس ، وجابر ابن عبدالله ، وعبدالله بن عمرو بن العاص ، وأبو ذر الغفارى ، وسعد بن أبى وقاص . وتلاهم جيل من التابعين خصص السيوطى فصلا لتعداد أسمائهم فى كتابه «حسن المحاضرة» .

ومن أشهر من اشتغلوا بالقانون الإسلامى وإصدار الفتاوى الدينية سليم ابن عتر التجيبى الذى أصبح كبير القضاة فى مصر عام ٤٠ هـ = ٦٦٠م وتوفى عام ٧٥ هـ = ٦٩٤ م . ومنهم عبدالرحمن بن حجيرة الذى عين كبير القضاة فى عهد عبدالعزيز بن مروان (من ٦٥ هـ = ٦٨٤ م إلى ٨٥ هـ = ٧٠٤ م) واشتهر بآرائه السديدة وفتاواه الموفقة فى المسائل الفقهية المشكلة . وأخيرا نافع مفتى المدينة ، الذى أرسله عمر بن عبدالعزيز إلى مصر ليتولى منصب الإفتاء فيها .

ومع مطلع القرن الثانى الهجرى بدأ أول جيل من المصريين يقتحم الميدان ويسهم بدوره فى إقامة صرح الدراسات الإسلامية .

وأول قارئ مصرى ذاع صيته داخل البلاد وخارجها كان عثمان بن سعيد الملقب بـ «ورش» الذى ولد عام ١١٠هـ = ٧٢٨ م ، وتتلمذ على نافع بن عبدالرحمن أحد القراء السبعة . وتوفى ورش عام ١٩٧ هـ = ٨١٢ م . وعاصره جمع آخر من القراء المحليين لم يشتهروا شهرته مثل سقلاب بن شيبة ، وعبدالله ابن وهب، ومعلى بن دحية ، وأشهب بن عبدالعزيز . ثم ظهر جيل ثالث ، وتضاعف عدد القراء بشكل ملحوظ . ولم يأت النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى حتى كانت كتب كثيرة قد ظهرت فى مصر تتناول فن القراءات والتفسير القرآنى . ومن أشهر من ألف فى هذين الموضوعين العالم المصرى الشهير أبو جعفر النحاس (توفى سنة ٣٣٨ هـ = ٩٥٠ م) الذى ألف «إعراب القرآن» و «معانى القرآن» و «الناسخ والمنسوخ» و «الوقف والابتداء» . ومن حسن الحظ أنها وصلتنا جميعا .

أما مجال التأليف فى الحديث النبوى فكان أسبق من مجال التأليف فى القراءات والتفسير ، إذ إن أقدم مجموع وصلنا هو ذلك الذى كتبه عبدالله بن وهب (ولد عام ١٢٥ هـ = ٧٤٢ م) بعنوان «الجامع فى الحديث» . وقد عثر على جزء كبير منه مؤخرا فى «إدفو» فى صعيد مصر . ومما هو جدير بالذكر كذلك أن أصحاب الكتب الستة من رجال الحديث قد زاروا مصر بحثا عن مادة جديدة، ومنهم من زارها أكثر من مرة ، مثل «النسائى» الذى غادرها لآخر مرة عام ٣٠٢هـ = ٩١٤ م .

وأول فقيه مصرى عرف كمجتهد كان يزيد بن أبى حبيب الذى شغل منصب مفتى مصر ، ثم تلاه عدد من الفقهاء المصريين الذين نافسوا أصحاب

المدارس الفقهية الأربع المشهورة مثل ، الليث بن سعد (ولد بمصر عام ٩٤ هـ = ٧١٢ م) ، وتلا ذلك جيل كبير من الفقهاء الذين ناصروا مدرسة فقهية معينة ، كمدرسة مالك أو الشافعي أو أبي حنيفة .

وقد كانت شهرة مصر فى مجال الدراسات الإسلامية معروفة فى كل أنحاء العالم الإسلامى ، وكثيرا ما استشير علماؤها فى مشكلات أثيرت خارج حدودها . ومن ذلك مارواه الكندى من أن الخليفة عبدالملك بن مروان كتب إلى والى مصر يسأله أن يرسل إليه برأى فقهاء مصر فى عدة المطلقة ثلاثا . وقد جذبت هذه الشهرة علماء كثيرين وفدوا إلى مصر للاستفادة من علمها ، وهذا بدوره أفاد علماء مصر وربطهم بجوانب مختلفة من التفكير . ومن بين من قصدوا مصر من كبار العلماء الإمام الشافعى ، والإمام الطبرى المؤرخ والمفسر المشهور (وصل مصر عام ٢٥٣ هـ = ٨٦٧ م) .

* * *

وأما فى مجال الأدب فلم تنبغ مصر طوال حكم الأمويين ، وكل ما وصلنا عن هذه الفترة أبيات شعرية قليلة منسوبة إلى شعراء زائرين .

ولكن مع مطلع العصر العباسى بدأ الشعر المصرى يحقق تقدما ملحوظا ، وظهر إلى جانب الشعراء الزائرين شعراء مصريون ، مثل سعيد بن عفير (ولد فى مصر عام ١٤٦ هـ = ٧٦٣ م) ، ومعلى الطائى . ومع قيام الدولة الطولونية حقق الأدب تقدما آخر أخذ أشكالا ثلاثة :

١- الشعر : انتعش الشعر ايام حكم الطولونيين نتيجة لتشجيع الحكام وإغداقهم الجوائز والهبات على الشعراء ، مما جذب الشعراء من الخارج من ناحية ،

ونهض بالشعر المصرى من ناحية أخرى ، وعلى رأس الشعراء المصريين نجد الحسين بن عبدالسلام المسمى بالجمل الأكبر (ولد سنة ١٧٠ وتوفى سنة ٢٥٨) ، والحسين المسمى بالجمل الأصغر والقاسم بن يحيي بن معاوية ومنصور بن إسماعيل بن عمر . ويقال إن أسماء الشعراء الذين كانوا يترددون على بلاط أحمد بن طولون كانت تملأ اثنتى عشرة كراسة .

٢- النثر : فى هذه الفترة وجهت عناية أكبر «بديوان الإنشاء» وأصبح مطمح كل كاتب أن يشغل منصبا فيه . وقد أدى هذا بالكتاب أن يحاولوا إجادة اللغة العربية والتلاعب بأساليبها ، كما أدى إلى ظهور مؤلفات تأخذ بيد الكتاب الناشئين ، وتبذل لهم النصيحة ، وترشدهم إلى كيفية الارتقاء بأساليبهم . وأشهر كتاب ظهر فى تلك الفترة كتابة «صناعة الكتاب» لأبى جعفر النحاس . والكتاب لم يصلنا ، ولكن من اقتباسات «صبح الأعشى» منه يمكننا أن نقول إنه يشتمل على نصائح عامة تفيد من يريد أن يحترف مهنة الكتابة ، ويحوى قائمة بالألقاب الرسمية التى يجب أن يخاطب بها كل شخص بحسب منصبه، ويبين مقادير قطع الورق وما يناسب كل مقدار من الأقلام ، ويعطى نماذج مختلفة لبدايات الرسائل ونهاياتها ، وقواعد مختصرة للهجاء ، ويعرف بوظائف الدولة واختصاصات كل منها ، ويشرح المصطلحات المستعملة فى الرسائل الديوانية . وهو إلى جانب ذلك يقدم نماذج للرسائل الديوانية والإخوانية على مختلف العصور . وهذا قالب للرسالة الديوانية كما اقترحها أبو جعفر النحاس ننقله عن «صبح الأعشى» .

«وقد اختلف فى تقديم الاسم والكنية واللقب . والذى رتبه أبو جعفر النحاس فى صناعة الكتاب تقديم الاسم على الكنية وتقديم الكنية على اللقب ، مثل أن يقال

(من عبدالله فلان أبى فلان الإمام الفلانى أمير المؤمنين)» . ثم قال : وهذه المكاتبة هى التى اصطلح عليها فى الأمور السلطانية التى تنشأ بها الكتب من الدواوين ... وترتيب المكاتبة على ما ذكره فى صناعة الكتاب أن يكتب : (من عبدالله فلان أبى فلان الإمام الفلانى أمير المؤمنين ، سلام عليك ، فإن أمير المؤمنين يحمد الله إليك الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله) ثم يفصل ببياض يسير ويكتب : (أما بعد فإن كذا وكذا) ثم يأتى على المعنى . فإذا فرغ من ذلك وأراد أن يأمر بأمر يفصل ببياض يسير ثم يكتب : (وقد أمر أمير المؤمنين بكذا ورأى أن يكتب إليك بكذا) فيؤمر بامتثال ما أمر به والعمل بحسبه ثم يفصل ببياض ويكتب : (فاعلم ذلك من رأى أمير المؤمنين واعمل به إن شاء الله تعالى ، وكتب فلان ابن فلان) باسم الوزير واسم أبيه (يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا) . وقد يكتب فى أواخر المكاتبة بعد استيفاء المقصد (هذه مناجاة أمير المؤمنين لك) أو (هذه مفاوضة أمير المؤمنين لك) .

ومما يدل على أهمية كتاب النحاس واحتلاله مكانا فريدا بين أقرانه أننا نجد القلقشندى فى كتابه «صبح الأعشى» يعتمد – فى الفصول المتناظرة – على هذا الكتاب إلى درجة كبيرة ، وتبلغ اقتباساته منه نحو المائة . وهناك صفحات كاملة من «صبح الأعشى» مأخوذة بنصها من كتاب النحاس .

ومما هو جدير بالذكر كذلك أنه ظهر فى ذلك الوقت فى مصر لأول مرة مجموعة من القصص القصيرة كتبها مصرى صميم هو «ابن الداية» ، وعرفت هذه المجموعة باسم «المكافأة» . وقد ولد هذا المؤلف فى مصر عام [illegible] ٣٤٠ – ٥٩١ م واسمه أحمد بن يوسف .

٣- الدراسة الأدبية : وقد ظهر فى هذه الفترة مجموعة من الدراسات الأدبية والنقدية ومن بينها كتاب «النقائض» لأبى العباس أحمد بن ولاد (توفى عام ٣٣٢ هـ = ٩٤٣ م) و«أخبار الشعراء» و«شرح المعلقات» و«معانى الشعر» و«شرح الحماسة» ، وجميعها لأبى جعفر النحاس .

* * *

فإذا انتقلنا إلى ميدان الدراسات اللغوية رأينا نشاطا لايقل عن نظيره فى سائر أنحاء العالم الإسلامى ، وإن بدأ متأخرا بعض الشىء . وأول اسم يطالعنا لشخصية لغوية هامة تفد إلى مصر هو اسم عبدالرحمن بن هرمز تلميذ أبى الأسود الدؤلى واضع علم النحو - فى بعض الروايات . وقد أقام ابن هرمز بالإسكندرية إلى أن توفى عام ١١٧ هـ .

ومع مطلع القرن الثالث الهجرى غصت مصر باللغويين والنحاة ، ونشطت فيها الحركة اللغوية إلى حد كبير . وعلى رأس اللغويين الأجانب الذين وفدوا إليها نجد أسماء مثل :

١- محمد بن يحيى اليزيدى الذى جاء مع المعتصم إلى مصر (عام ٢١٤ هـ = ٨٢٩ م) ومات بها تاركا عدة كتب منها : «النوادر» و«المقصور والممدود» و«مختصر النحو» و«النقط والشكل» .

٢- أبو على أحمد بن جعفر الدينورى الذى توفى فى مصر عام ٢٨٩ هـ = ٩٠٢ م . وقد كتب خلال إقامته بمصر كتابا فى النحو سماه «المهذب» .

٣- على بن سليمان الأخفش الذى جاء إلى مصر أكثر من مرة إحداها عام ٢٨٧هـ = ٩٠٠ م وغادرها لآخر مرة عام ٣٠٦ هـ = ٩١٨ م ومات ببغداد

عام ٣١٥ هـ = ٩٢٧ م . ومن مؤلفاته كتاب «التثنية والجمع» ، وكتاب «شرح سيبويه» في خمسة مجلدات .

ومنذ أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع أخذت الدراسات اللغوية المصرية تشق طريقها بنفسها ، وتقف على قدميها وحدها ، وتنافس نظيراتها في سائر أنحاء العالم الإسلامي . وظهر لأول مرة مؤلفون مصريون متفوقون ، انضمت جهودهم إلى جهود الوافدين من البلاد الأخرى فخلقت حركة لغوية نشيطة أثارت إليها انتباه العالم الإسلامي كله . ومن أشهر الوافدين في تلك الفترة أبو بكر الدينوري وأبو جعفر أحمد بن عبدالله بن مسلم بن قتيبة والأخوان الحسن والحسين بن الوليد . أما اللغويون المصريون فكانوا كثيرين ومتفاوتين في الشهرة وفي الإنتاج العلمي ، ولكن كان على رأسهم ثلاثة هم : كراع النمل واسمه على ابن الحسن الهنائي (توفي ٣١٠ هـ = ٩٢٢) . وابن ولاد واسمه أبو العباس أحمد بن محمد بن ولاد (توفي ٣٣٢ هـ - ٩٤٣ م) والنحاس واسمه أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل (توفي ٣٣٨ هـ = ٩٥٠ م) .

أما كراع فقد ترك آثارا لغوية كثيرة أشهرها «المنجّد» الذى يعالج مشكلات المشترك اللفظي ويعرض كثيرا من ألفاظه ، و «المنتخب» الذى يحوى نتفا مختلفة لمباحث علم اللغة ومنها نسخ مخطوطة متنوعة في دار الكتب المصرية وغيرها . كما بث كراع في ثنايا كتبه آراء ناضجة في كثير من مشكلات علم اللغة وأصوله.

وأما ابن ولاد فقد ترك آثارا منها : «المقصور والممدود» الذى يعالج مشكلات الكلمات المقصورة أو الممدودة ، ويذكر طريقة هجائها ، ويحصر مفرداتها . وقد طبع الكتاب طبعتين حتى الآن . ومن آثاره «الانتصار لسيبويه على

المبرد» الذى اتخذ جانب الدفاع عن سيبويه فى مسائل الخلاف بينه وبين المبرد ، وتوجد منه نسخ مخطوطة فى دار الكتب المصرية وغيرها . وكان لابن ولاد آراء تقدمية فى كيفية تقعيد القواعد وفى أصول النحو تعد حتى الآن من أنضج ما قيل فى الموضوع .

وأما أبو جعفر النحاس فكان نسيج وحده ، ولم يترك بابا من أبواب الدراسات الإسلامية إلا طرقه وألف فيه . كتب فى القراءات ، وفى التفسير والحديث ، وفى الناسخ والمنسوخ ، وفى النحو وفقه اللغة ، وفى الأدب ودوائر المعارف ، وكان فى كل ما يكتب موفقا . ومما تركه فى مجال الدراسات اللغوية : «إعراب القرآن» و «المقنع فى الخلاف بين البصريين والكوفيين» و «الكافى فى النحو» و «شرح أبيات سيبويه» و «شرح كتاب سيبويه» و «كتاب الاشتقاق» و«خلق الإنسان» و «التفاحة فى النحو» . والكتاب الأخير ذو أهمية كبيرة – فى نظرنا – بوجه خاص ، لأنه وضع تلبية لحاجة الناشئة ، وكتب فى أسلوب ميسّر وبطريقة أقل ما توصف به أنها سهلة مبسطة . والكتاب يلخص النحو كله فى بضع ورقات، ويقدم للدارس المبتدىء عصارة القواعد النحوية العملية ، منحيا جانبا كل مالا يفيد فى تقويم النطق وتصحيح البيان ، وكل الخلافات اللفظية والمناقشات الفلسفية التى تمتلىء بها كتب السابقين . وأغلب ظننا أنه كتب بهدف تقريب نحو اللغة العربية للأجانب ويقصد مساعدتهم فى دراسته ، ولذا اختار مؤلفه له اسما جذابا هو «التفاحة» . ويعد الكتاب ثورة على الطريقة التقليدية فى دراسة النحو العربى ، ولعله أول كتاب يصلنا وهو يحوى تطبيقا فعليا للمنهج الوصفى فى دراسة اللغة . ومن أمثلة ذلك قوله :

١- الفاعل مرفوع أبدا تقدم أو تأخر . وهذا يعنى أن «محمدا» فى الجملة «قام محمد» أو «محمد قام» تعرب فاعلا . وهذا يخالف التحليل التقليدى للجملة الثانية الذى يعتبر الفاعل ضميرا مستترا تقديره «هو» ويعرب «محمد» مبتدأ والجملة من الفعل والفاعل بعده فى محل رفع خبر ذلك المبتدأ .

٢- عد أبو جعفر النحاس من بين حروف الجر الكلمات «أعلى» و«أسفل» و«خلف» و«قدام» و«وراء» و«أمام» و«فوق» وأشباهها . وهذا خروج على النحو التقليدى الذى يعتبرها كلها ظروفا . وقد كان النحاس موفقا فى فكرته هذه وطرحه جانبا الرأى التقليدى ووصوله إلى هذا الرأى الجديد الذى ينظر إلى الأثر الإعرابى فحسب . وأى فرق بين قولنا : «الكوب على المائدة» و«الكوب فوق المائدة» ؟ لا فرق بينهما عندنا وعند النحاس وإن كان القدماء قد اعتبروا «على» حرف جر ، وما بعدها مجرورا بها ، واعتبروا «فوق» ظرفا وما بعدها مضافا إليه .

* * *

ولم يقف دور مصر فى تلك الفترة عند التأليف والتنقيب ، وإنما تجاوز ذلك إلى تمثل الثقافة الإسلامية وهضمها ثم إخراجها فى صورة مبتكرة . وقد كانت مصر بمثابة القنطرة التى عبرت عليها الثقافة العربية من الشرق إلى الغرب ، وكانت ملتقى للدارسين من شتى البقاع ، وجامعة إسلامية يقصدها الطلاب من مختلف أنحاء العالم الإسلامى . ولم يكتب للمؤلفات المصرية الرواج داخل مصر وحدها ، وإنما فى المغرب والأندلس كذلك . وحتى نهاية القرن الرابع الهجرى كانت بلاد المغرب والأندلس تعتمد اعتمادا كليا فى دراستها العربية الإسلامية

على مصر . ولم تنضج تلك الدراسات هناك إلا على يد المبعوثين الذين زاروا مصر ودرسوا فيها ثم عادوا إلى أوطانهم يحملون الزاد ويدرسون المؤلفات المختلفة التي تلقوها في مصر ، ومن بينها المؤلفات المصرية . وقد وجدنا أن كل مؤلفات ابن ولاد وثلاثة عشر مؤلفا من بين مؤلفات أبي جعفر النحاس قد دخلت الأندلس في وقت مبكر جدا قد يكون في حياة المؤلفين أو بعد وفاتهما بقليل . كما وجدنا مؤلفات كراع النمل منتشرة جدا في بلاد المغرب بخاصة . ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى الحقائق التالية :

١- من بين تلاميذ النحاس - الذين استطعت التوصل إليهم - وعددهم أربعة عشر تلميذا وجدت ثلاثة مصريين فقط . أما الباقون فمن بلاد مختلفة .

٢- من بين الأسماء الخمسمائة الأولى في كتاب «ابن الفرضي» تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس وجدت خمسة وخمسين اسما على الأقل لأناس درسوا في مصر .

٣- هناك اقتباسات كثيرة من كتب المصريين في الكتب المتأخرة ، وأخص بالذكر ما يأتي :

(أ) في الجزأين الأول والثاني من كتاب «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي يوجد نحو ستين اقتباسا من أبي جعفر النحاس .

(ب) في «صبح الأعشى» للقلقشندي نجد أكثر من مائة اقتباس من «صناعة الكتاب» للنحاس .

(جـ) في «لسان العرب» نجد أكثر من سبعمائة اقتباس من مؤلفات كراع النمل .

وقد كانت مراكز الثقافة في مصر متعددة ومتنوعة ، وكان كل مركز منها يقوم بدوره الخاص في نشر الثقافة الإسلامية ، وكثير منها كان مشمولا برعاية الحكام وذوي الثراء . وأشهر تلك المراكز :

١- المسجد : وقد كان أهم مركز ثقافي في تلك الفترة . وكانت أشهر المساجد في مصر خلال تلك الفترة هي : جامع عمرو بن العاص ، وجامع أحمد بن طولون ، ثم الجامع الأزهر . ففي جامع عمرو كانت تلقى دروس دينية منذ عام ٣٨ هـ = ٦٥٨ م . وفيه كان الإمام الشافعي يلقي دروسه ومحاضراته، وكذلك الإمام الطبري . وفي عهد الإخشديين (من سنة ٣٢٣ هـ = ٩٣٤ م إلى ٣٥٨ هـ = ٩٦٨ م) كان فيه ثلاث وثلاثون حلقة خاصة بالدروس الفقهية. وأما جامع ابن طولون فقد انتقل إليه الطبري بعد بنائه ، وكان أحمد بن طولون يجري عليه الأوقاف ويخصص لعلمائه المرتبات . وبعد تشييد الجامع الأزهر انتقل النشاط الديني إليه ، وأصبح مركزا للدعاية الفاطمية . وليس أدل على اتساع النشاط العلمي في ذلك الوقت من أن المقدسي الذي زار مصر في القرن الرابع الهجري سجل ملاحظة خطيرة فحواها أنه وجد مساجد مصر مزدحمة بالطلاب بشكل لم يره في أي بلد إسلامي آخر . وذكر أنه عد حلقات أحد هذه المساجد فوجدها تبلغ مائة وعشر حلقات .

٢- (صالونات) الحكام : كذلك قامت (صالونات) الحكام وذوي الثراء بدور كبير في نشر الثقافة الإسلامية وتشجيع البحث العلمي ، فكانت تعقد فيها اجتماعات دورية وحلقات علم مستمره . وكان من العادة أن يحضر الحكام والوجهاء هذه الاجتماعات ويشاركوا في المناقشة ويثيبوا المتفوق فيها . وقد بدأت شهرة هذه المجالس منذ قيام الدولة الطولونية وتضاعفت شهرتها في

عهد الفاطميين . ونشير بوجه خاص إلى الاجتماعات الدورية التى كانت تعقد فى (صالون) الوزير «ابن كلس» والتى كان يحضرها القضاة والفقهاء والشعراء والنحاة والمحدثون وكل ذوى الحيثية فى المجتمع . وليس هذا فحسب ، بل شاركت مصر فى الاجتماعات العلمية والمؤتمرات التى كانت تعقد فى الخارج . ومن ذلك ما حدث عام ٣٢٦ هـ = ٩٣٧ م حين انعقد مؤتمر علمى فى بغداد بإشراف الوزير الفضل بن جعفر بن الفرات ، وأرسلت مصر ممثلها الرسمى لحضوره .

٣- دور الكتب : وقد انتشرت دور الكتب الخاصة خلال تلك الفترة وتنافس الأغنياء والعلماء فى اقتناء نوادر المخطوطات . وبناء على ما ذكر ابن خلكان كانت مكتبة العزيز الفاطمى حافلة لدرجة أنه احتاج إلى تعيين «أمين» ليديرها وينظمها . ويخبرنا المقريزى أن هذه المكتبة كانت تحوى ثلاثين نسخة من كتاب «العين» أول معجم عربى ، بينها نسخة بخط المؤلف نفسه ، كما كان يوجد بها عشرون نسخة من تاريخ الطبرى ، ومائة نسخة من معجم الجمهرة لابن دريد .

٤- محلات الوراقة وبيع الكتب : ففضلا عن دورها فى نسخ المخطوطات وبيعها كانت مركزا يلتقى فى الدارسون ويتجاذبون الحديث ويديرون المناقشة . وكانت هذه المحلات تتركز فى سوق قرب جامع عمرو بن العاص وتخص بالباحثين ، وبخاصة فى زمنى الطولونيين والإخشيديين [١] .

---

(١) هذا الفصل ملخص عن رسالتى للدكتوراه :
Arabic Linguistic Studies in Egypt .

الباب الثانى

الخصائص اللغوية لعربية مصر

تمهيد

سنحاول فى هذا الباب أن نقدم وصفا للغة العربية التى كانت بمصر فى الفترة موضوع الدراسة ، وأن نحدد العوامل التى تحكمت فى تشكيلها ، وتدخلت لتصبغها صبغة معينة تميزها عن سائر العربيات .

وقد وجدنا أن هناك عاملين يعدان من أهم العوامل التى تستحق الدراسة فى هذا الخصوص ، بقصد الكشف عن مدى أثرهما فى عربية مصر ، وهما :

١- اللغة القبطية (وإلى حد ما اليونانية) .

٢- اللهجات العربية .

كما وجدنا أن هناك عوامل ثانوية أثرت فى عربية مصر ، ومنها عامل الميل نحو السهولة وتوفير الجهد ، وعامل اللامبالاة ، وعامل الاقتراض من لغات أخرى غير القبطية واليونانية ، مثل اللاتينية والفارسية والتركية . وسنتناول هذه العوامل فى ثلاثة فصول على التوالى .

وقد رأينا قبل أن نعالج هذه العوامل بالترتيب المذكور أن نبدأ بدراسة موجزة فى فصلين نتناول فى أولهما الصعوبات التى تعترض مثل هذه الدراسة اللغوية ، ونصنف فى ثانيهما المادة التى اعتمدنا عليها فى تحليلنا اللغوى .

وهكذا استقر إخراج هذا الباب فى خمسة فصول .

الفصل الأول

صعوبات على الطريق

الحقيقة التي يواجهها أي دارس للهجات العربية القديمة خارج الجزيرة العربية – ولحد ما داخلها – هي قلة المادة اللغوية من ناحية ، وانعدام الدراسة اللغوية المنهجية لها من ناحية أخرى . وهناك حقيقة أخرى تشمل اللهجات العربية القديمة جميعها ، وهي اختلاط مادتها بعضها ببعض ، وصعوبة عزل مادة أي واحدة منها عن غيرها ، وهي صعوبة قد تصل أحيانا إلى حد الاستحالة والتعذر . وحتى اللغويون المحليون ، الذين كان ينتظر منهم أن يسجلوا ما كان يدور في بيئتهم من تعبيرات خاصة ، وأن يقوموا بدراسة موضوعية للمستويات اللغوية المستعملة في أوطانهم ، سواء كانت على المستوى الأدبي ، أو مستوى الحديث العادي ، أو بين بين – حتى هؤلاء لم يلقوا بالا لهذا الجانب ، ولم يحاولوا أن يسهموا بمجهوداتهم فيه . كذلك لم يعن أحد منهم بناحية التطور في دلالة الألفاظ أو نطقها ، فلم يبين أي من لغويي القرن الخامس مثلا المعنى الذي يفهمه معاصروه من لفظ جمعه زميل له في القرن الثالث مثلا إلا في النادر . كذلك لم يعن أحد منهم بتطور نطق الألفاظ في عصره على الرغم مما نجده في كتاب سيبويه وفي البيان والتبيين للجاحظ من إشارات مفيدة في هذا الموضوع ، ومن تسجيل لنماذج من التطورات التي تمس الأصوات وطريقة نطقها [1] . والسر في

---

(١) انظر الكتاب (ط بولاق) ٢/٤٠٤ وما بعدها ، والبيان والتبيين ص ١٥ ، ١٨ – ٢٢ وبخاصة قوله: =

عدم العناية هذا أنهم جميعا كانوا ينظرون إلى هذا التطور على أنه نوع من اللحن أو المولد ، أو شيء من سقط المتاع الذى لاصح تسجيله ، ولايجوز إعارته أى انتباه . ولذلك نجدهم جميعا قد وجهوا كل اهتمامهم إلى جمع المادة اللغوية القديمة التى سموها بالفصحى ، والتى وضعوا لها شروطا ومواصفات تشمل الزمان والمكان ، وتسابقوا فى تنظيم هذه المادة ، وعرضها بطرق مختلفة .

ويبرز من بين المحاولات التى بذلت لتسجيل بعض جوانب التطور اللغوى نوعان من البحوث : أولهما : كتب اللحن والخطأ والمولد والتصحيف والتحريف . وثانيهما : كتب المعرب والدخيل . وكتب اللحن – وما لفّ لفّها – عبارة عن رسائل صغيرة ألفت على مر العصور وفى مختلف الأصقاع التى تتكلم العربية ، بقصد علاج داء استشرى فى لغة العرب ، وهو داء اللحن والخطأ فى الكلام . وقد بدأ التأليف فيه فى عصر مبكر جدا ، ربما منذ القرن الثانى الهجرى ، وشهدت بداية القرن الثالث طائفة كبيرة من كتب هذا النوع . ويدخل فى ذلك الباب تلك الفصول التى اشتملت عليها كتب مثل «إصلاح المنطق» لابن السكيت ، و «أدب الكاتب» لابن قتيبة ، و «الغريب المنصف» لأبى عبيد ، والتى تعالج مظاهر التغييرات التى

= «وأهل الأمصار إنما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب ، ولذلك تجد الاختلاف فى ألفاظ من ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر» (ص ١٨) ، وكذلك باب «ذكر الحروف التى تدخلها اللثغة وما يحضرنى منها» (ص ٣٤ وما بعدها) . وانظر ص ٧٠ – ٧٤ وبخاصة قوله «ألا ترى أن السندى إذا جلب كبيرا فإنه لايستطيع إلا أن يجعل الجيم زايا ، ولو أقام فى عليا تميم وفى سفلى قيس وبين عجز هوازن خمسين عاما . وكذلك النبطى القح ... يجعل الزاى سينا ، فإذا أراد أن يقول زورق قال سورق ، ويجعل العين همزة ...» (ص ٧٠) ، ومقدمة ابن خلدون ص ٤٢٤ وما بعدها «فصل فى لغات أهل الأمصار» وص ٦٤٩ وما بعدها «فصل فى أن لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير» وكذلك الفصول التالية لهذا الفصل .

حدثت فى بعض الكلمات ، سواء من ناحية اللفظ أو من ناحية الدلالة . أما كتب المعرب والدخيل فمن أشهرها : كتاب الجواليقى ، ويدخل فيها البحوث المتناثرة التى نجدها فى كتب النحو واللغة .

ولكننا – مع الأسف – لانظفر لمصر بشىء ذى بال فى أى من هذين المجالين إبان فترتنا المبكرة . أما عن الجانب الأول فنحن نجد كتبا ألفت لتتبع أخطاء قطر بعينه أو شعب عربى بذاته ، ومن ذلك «لحن العامة» للزبيدى (ت٣٧٩ هـ) ، الذى تناول فيه لحن عامة الأندلس ، و «تثقيف اللسان وتلقيح الجنان» لابن خلف الصقلى (ت ٥٠١ هـ) فى لحن عامة صقلية ، و «تقويم اللسان» لابن الجوزى (ت ٥٩٧ هـ) فى لحن عامة بغداد . ومع ذلك لانجد كتابا يظهر فى البيئة المصرية يعالج بعض مظاهر التغيير الذى حدث فى لغة مصر سواء اعتبر هذا تطورا طبيعيا ، أو رمى بالخطأ . وحتى لو وجد شىء من هذا النوع ، فلم يكن ليفيدنا كثيرا ، لأن مؤلفى هذا العصر اعتادوا أن ينقلوا لاحقهم من سابقهم بدون تنبيه على ذلك . فما يتعرض له الواحد منه فى كتبه ربما لايمثل بيئته أدنى تمثيل، وإنما يمثل بيئات أخرى لم يهتم بالتنبيه عليها . وضرر مثل هذا النوع من البحوث المختلطة أكثر من نفعه . وأما عن الجانب الثانى فكان الاتجاه نحو دراسة النقل والتعريب من اللغة الفارسية هو الاتجاه الغالب ، ولا نجد إشارة إلى النقل أو التعريب من القبطية ، وبين أيدينا كتاب «المعرب» للجواليقى يشهد بذلك . نعم هناك إشارات سريعة إلى التعريب من لغات أخرى متعددة ، إلا أن معظم هذه الإشارات ألقى القول فيها على عواهنه ، وصدر من غير ذى ثقة ، ومن أناس لاخبرة لهم باللغات التى يتحدثون عنها ، ولذا لايمكن الاعتماد على أقوالهم كما سبق أن بينا بالنسبة للسيوطى فى كتابه «المتوكلى فيما ورد فى القرآن باللغة

الحبشية والفارسية ... إلخ» . كذلك من الأمثلة المؤسفة للعمل المرتجل ذلك البحث الذى كتبه حمزة فتح الله بعنوان «رسالة الكلمات الغير العربية (كذا) الواقعة فى القرآن الكريم» ، والذى تنقصه دقة البحث العلمى وتمحصيه . ومن الأمثلة التى ذكرها هذا المؤلف للكلمات المستعارة من اللغة القبطية قوله :

الأولى والآخرة : القبط يسمون الآخرة الأولى ، والأولى الآخرة .

سيدها : زوجها بالقبطية .

بطائنها : ظواهرها بالقبطية .

وهكذا ...

وقد حاولت أن أعثر على آثار ذات بال فى مؤلفات اللغويين المصريين المبكرين فى أى من هذين المجالين ، أو فى مجال تحديد مراكز القبائل العربية التى استوطنت مصر ، وتسجيل لهجاتها ، وخصائص كل لهجة ، دون جدوى . وكل ما وجدته تصريحات مقتضبة متناثرة هنا وهناك ، لاتكاد تهتدى إليها وسط زحام الأبحاث اللغوية الأخرى . فمن ذلك ما ذكره أبو جعفر النحاس وهو كل ماعثرت له عليه بعد البحث والتنقيب الشديدين – من أن :

١– المصريين يستعملون كلمة «إسباطة» (التى تحولت الآن إلى سباطة) بمعنى الكباسة أو العذق أو القنو [١] .

٢– المصريين يستعملون كلمة «الجسر» بدلا من المسناة [٢] .

ولكنه لم يذكر لنا فى أى المستويات الكلامية تستعمل هاتان الكلمتان ؟ وهل لهما أصل أجنبى أوْ لا ؟

---

(١) شرح معلقة امرىء القيس (تحقيق فرنكل ١٨٧٦) ص ٢٩ .

(٢) إعراب القرآن (معهد المخطوطات ١٥ تفسير) ص ١٨٠ .

٣- وروى القلقشندى عن أبى جعفر النحاس أنه قال فى كتابه «صناعة الكتاب» إن «الديوان» اسم للموضع الذى يجلس فيه الكتاب وإنه بكسر الدال وإن فتحها خطأ . وحيث لم يكن هناك دلالة صريحة على أن هذا الخطأ كان شائعا فى مصر ، فمن المحتمل أن يكون من الأخطاء العامة ، أو غير الخاصة بمصر ، وهو ما نرجحه بدليل ورود هذه الكلمة فى غيره من الكتب التى عالجت أخطاء العامة أو الخاصة .

٤- كذلك روى القلقشندى - عن نفس المصدر - أن الكتاب فى عصر النحاس كانوا - لصعوبة باب العدد عليهم - يعيبون من أعرب الحساب . ومعنى هذا كثرة الخطأ فى هذا الباب . وهى ظاهرة ملاحظة فى كثير من النصوص المصرية التى عثرنا عليها لذلك العصر . ولكن - مرة أخرى - هى ظاهرة عامة ، وليست خاصة بمصر .

ويبدو أنه كان فى عصر النحاس - وربما من قبله - حركة قوية بين المستعربين أو غير العرب ضد اللغة العربية ومن يتكلمونها أو يتعلمونها . ويبدو أن كثيرا من أناس ذلك العصر ضاقوا بقيود اللغة وقواعدها ، وعجزوا عن إتقانها وتذليل صعوباتها ، فرأوا أن مهاجمة اللغة أيسر من تعلمها ، والنيل منها أسهل من السيطرة عليها . وقد تكفل النحاس بنقل دعوى هؤلاء الشعوبية ، وانبرى للرد عليها وتفنيدها فقال : «وقد صار أكثر الناس يطعن على متعلمى العربية جهلا وتعديا حتى إنهم يحتجون بما يزعمون أن القاسم بن مخيمرة قال : النحو أوله شغل وآخره بغى . قال : وهذا كلام لامعنى له لأن أول الفقه شغل ، وأول الحساب شغل ، وكذا أوائل العلوم . أفترى الناس تاركين العلوم من أجل أن أولها شغل ؟ قال : وأما قوله : وآخره بغى ، إن كان يريد به أن صاحب النحو إذا حذقه

صار فى زهو ، واستحقر من يلحن ، فهذا موجود فى غيره من العلوم من الفقه وغيره ، فى بعض الناس وإن كان مكروها . وإن كان يريد بالبغى التجاوز فيما لايحل فهذا كلام محال ، فإن النحو إنما هو العلم باللغة التى نزل بها القرآن ، وهى لغة النبى صلى الله عليه وسلم وكلام أهل الجنة وكلام أهل السماء .ثم قال بعد كلام طويل : وقد كان الكتاب فيما مضى أرغب الناس فى علم النحو ، وأكثرهم تعظيما للعلماء ، حتى دخل فيها من لايستحق هذا الاسم ، فصعب عليه باب العدد ، فعابوا من أعرب الحساب . وبعدت عليهم معرفة الهمزة التى ينضم وينفتح ما قبلها ، أو تختلف حركتها وحركة ما قبلها فيكتبون (يقرؤه) بزيادة ألف لامعنى لها [١] ...» . والذى يهمنا من هذا ما يسجله من وجود ضيق بين المتعلمين بقواعد اللغة ، وصعوبة أبواب النحو ، وما يستتبعه ذلك من محاولات لكسر تلك القيود ، والتخفف من قسوتها . وهو ما حدث بالفعل وكان سببا من أهم الأسباب التى غيرت فى شكل اللغة .

وقد وجد لكراع (على بن الحسن الهنائى المصرى) إشارات خاطفة إلى بعض تعبيرات مصرية ، وإن كانت كلها عربية فصيحة ، أو عربية محرفة لا أثر للأجنبى فيها . ولكن لم يلتزم كراع أن يبين لنا فى أى مستوى كلامى كانت تشيع هذه العبارات ، ولم يوضح صراحة ما إذا كانت هذه من اللهجات المحلية أو اللغة المشتركة . ومن ذلك قوله :

١- ويقال للذى يوزن به الصنجة والعامة تقول السنجة .

٢- الخطاف العصفور الأسود الذى تدعوه العامة عصفور الجنة .

---

(١) انظر صبح الأعشى ١٧١/١ .

٣- يقال رف الحاجب اختلج .

٤- يقال فش القفل إذا فتحه بغير مفتاح .

٥- يقال فحم الصبي يفحم فحوما وفحاما إذا بكى حتى ينقطع صوته (١) .

وهناك صعوبة أخرى تواجه من يريد بيان الخصائص اللغوية لعربية مصر في تلك الفترة السحيقة ، وهي أن كل المادة التي بين أيدينا وصلتنا عن طريق الكتابة . ومن المعروف أن الرموز المكتوبة لاتمثل إلا قدرا ضئيلا من اللغة . فهي تخفي أكثر مما تظهر وبخاصة حين تستعمل الرموز الكتابية العادية لا الرموز الصوتية الدقيقة بعض الشيء . ولم يشذ عن ذلك إلا بعض نصوص قليلة عثر عليها في دير القديس مكاريوس حيث كتبت بحروف قبطية تمثل الصوت المنطوق إلى حد كبير (٢) .

وصعوبة أخرى هي عدم استطاعة القيام بمسح جغرافي لمناطق اللهجات في مصر ، وفصل اللهجات الإقليمية بعضها عن بعض ، أو عمل ما يمكن أن يسمى بالأطلس اللغوي ، نظرا لاختلاط المادة اللغوية التي وصلتنا من ناحية ، واندثار معظمها من ناحية أخرى ، وعدم إمكان تسجيل مادة جديدة لطول العهد بفترة دراستنا ، والتطور الكبير الذي يتوقع حدوثه بعد ذلك . ولهذا لم يكن هناك

---

(١) انظر – على سبيل المثال – المنجد في اللغة لكراع (مخطوط) صفحات ١٣٦ و ١٣٧ و ١٨٦ .

(٢) انظر

Fragments of an Arabic M. S. in Coptic Script, ed. by G Sobhy.

والملحق رقم ١ الجزء الأول من كتاب :

New Coptic Texts from the Monastery of Saint Macarius .

مفر من أن نعالج المادة اللغوية التى جمعناها باعتبارها وحدة واحدة ولا نشير إلى الخصائص المحلية أو الإقليمية إلا إذا كان فى يدنا الدليل على ذلك .

وهناك صعوبة أخيرة هى أن الدراسات القديمة جميعها قد ألقت ثقلها فى جانب اللفظ المفرد وبناء الكلمة ، ولم يكن منها ما اهتم بنظام الجملة وجانب النحو والإعراب ولذلك يندر أن تجد إشارة إلى تغيير من هذا النوع .

الفصل الثانى

مادة التحليل اللغوى

تتخذ مادة البحث التى اعتمدنا عليها فى دراستنا اللغوية صورا متعددة ، كما أن تاريخها محدد ، ومعروف وقتها الذى كتبت فيه بدقة .

وعلى الرغم من أننا اخترنا القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادي) كقرن التحول النهائى فى لغة الكتابة والحديث من اليونانية والقبطية إلى العربية ، فقد رأينا أن ندخل فى التحليل اللغوى كتابات القرنين الثانى عشر والثالث عشر كذلك لعدة أسباب ، منها :

أولا : امتداد الفترة الخصبة فى كتابات الأقباط العربية إلى نهاية هذين القرنين .

وثانيا : لأن معظم المخطوطات وأوراق البردى العربية التى كشفت حديثا تتعلق بفترة تمتد نحو سبعة قرون بعد الفتح العربى لمصر .

وثالثا : لأننا رجحنا احتمال بقاء اللغة القبطية فى بعض الأماكن النائية لمدة قرن أو قرنين آخرين ، ولمدة أطول فى داخل الأديرة وبين الرهبان ، أو كلغة متعلمة بين العلماء الأقباط . ومعنى هذا أن اللغة القبطية ظلت خلال هذه الفترة أداة فى يد بعض الناس لدرجة محدودة وإن لم يحرمها ذلك الحياة فى عقول كثير من الباحثين والمثقفين من رجال الدين الأقباط . ومن الملاحظ أن معظم كتابات

الأقباط العربية فى تلك الفترة ، قام بها رجال الدين أو العلماء المتعصبون للغتهم وقوميتهم القديمة ، ممن كانوا يعرفون القبطية إلى جانب العربية . ومعنى هذا أنهم كانوا فى كتاباتهم العربية متأثرين بثقافتهم القبطية ، وبمعرفتهم للغة القبطية وغيرها من اللغات الأجنبية ، كاليونانية والسريانية .

ومن أجل هذا لايصح إسقاط القرنين الثانى عشر والثالث عشر من حسابنا إذا أردنا أن ندرس آثار اللغة القبطية على عربية مصر ، وأن نؤرخ لحركة التأثير والتأثر من كلا الجانبين على الآخر .

ولكى ندرس عربية مصر فى تلك الفترة ، نحن فى حاجة إلى نماذج عديدة تمثل المستويات المختلفة للغة . فما لاشك فيه أن لغة الكتابة تختلف عن لغة الحديث ، ولغة الكتابة نفسها تتفاوت من كاتب إلى كاتب ، وكذلك لغة الحديث تختلف من متكلم إلى متكلم . ولو جارينا علماء اللغة المحدثين لقلنا إن لكل شخص لغة خاصة ، ولكل متكلم لهجة معينة ، ولهذا فهم لايرضون فى تقسيمهم لمستويات اللغة بمستوى دون المتكلم الفرد نفسه . بل منهم من يذهب إلى أبعد من ذلك فيقسم العادة الكلامية للشخص إلى مستويات متعددة تختلف بحسب حالة المتكلم الراهنة ، ودوره الذى يلعبه فى المجتمع . ومن السهل على المرء أن يميز فى كلام الشخص الواحد بين عدة مستويات ، حين يتكلم مع أسرة صديقه ، أو مع غرباء، أو مع أفراد ذوى مراكز اجتماعية مختلفة ، أو فى مجال العمل ... إلخ .

ولصعوبة هذا النوع من الدراسة أو استحالته بالنسبة للفترة التى ندرسها، فضلا عما يؤدى إليه من نتائج جزئية خاصة ، فإننا آثرنا أن نتجه فى مجال دراستنا إلى الخصائص العامة ، وأن تكون نظرتنا دائما كلية تصور ما يمكن أن يسمى باللغة أو اللهجة فى خطوطها العريضة وظواهرها المشتركة .

والمادة المكتوبة التى اعتمدنا عليها فى تلك الدراسة كثيرة ومتنوعة وتشمل ما يأتى :

أولا : أوراق البردى العربية : وكان أول ما عثر عليه من هذه الأوراق ورقتان مكتوبتان باللغة العربية فى مكان قرب أهرام سقارة وذلك عام ١٨٢٤ م . وقد سلمت الورقتان إلى قنصل فرنسا بالقاهرة يومئذ فاهتم بها وأرسلها للبارون سلفستر دى ساسى المستشرق المتخصص فنشر ما بالورقتين . وبذا بدأت دراسات أوراق البردى ترى النور ، وأخذ هذا النوع من البحوث يتطور منذ أوائل القرن العشرين حتى أصبح علما مستقلا له متخصصوه والمشتغلون به .

وبعد مضى خمسين سنة من الكشف السابق ، وجد بالفيوم كمية كبيرة من أوراق البردى نقل معظمها إلى المكتبات الأوربية ، ومن المحتمل أن تكون محفوظات دار الكتب المصرية من هذه البرديات متصلا بهذا الكشف ، أو تكون جزءا منه . ثم اكتشفت بعد ذلك مجموعات أخرى وجدها الباحثون عن «السباخ» بين تلال أهناس وإخميم والأشمونين والبهنسا وكوم أشقاو وميت رهينة وإدفو ... ومنها ماعثر عليه فى خرائب الفسطاط .

ومن الصعب أن نحدد عدد الأوراق البردية العربية الموجودة فى مكتبات العالم الآن نظرا لعدم تمام الفهارس . ولكن يقدرها البروفسر جروهمان خبير البرديات العربية بنحو ستة عشر ألف قطعة موزعة على مكتبات كثيرة من دول العالم مثل فينا ومصر وتونس وألمانيا وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا والنرويج وروسيا وتركيا والولايات المتحدة الأمريكية .

ويقول البروفسر جروهمان إن أوراق البردى العربية ذات الصبغة الأدبية قليلة بالنسبة لمقابلتها فى البرديات اليونانية [١] . وتوافقه السيدة نابية أبوت فى هذا الرأى إذ تقول : إن «وثائق البردى التى اكتشفت ونشرت معظمها يتعلق بالإدارة والاقتصاد . أما أوراق البردى الأدبية فنادرة جدا ، وهى عبارة عن شذرات متفرقة . وقد بذلت جهود قليلة جدا لدراستها حتى الآن [٢] » . ومما عثر عليه فى مجال الأدب ورقة من ديوان شعر ، وأبيات متناثرة ، وأحيانا قصائد كاملة . كذلك عثر على قطع من كتاب فى النحو وهى محفوظة فى مجموعة مكتبة شيكاغو [٣] .

وكثير من الوثائق التى عثر عليها وجد متلاصقا متماسكا إلى حد يقرب من التحجر ، إلى جانب ما وصل متمزقا كله أو بعضه بفعل الأرضة أو الرطوبة . ولكن إلى جانب هذا توجد – لحسن الحظ – قطع سليمة يمكن قراءتها بسهولة .

وتغطى هذه الوثائق فترة تزيد على سبعة قرون من عام ٢٢ للهجرة إلى عام ٧٨٠ هـ . وإذا كان لهذه الوثائق قيمة خاصة بالنسبة للمؤرخ ودارس الحضارة الإسلامية فهى من الأهمية بمكان كذلك لدارس اللغة ، وهى ثروة نفيسة من المادة اللغوية قلما يجود التاريخ بمثلها . ويمكن بدراسة هذه الوثائق الوصول إلى نتائج لغوية وفلولوجية هامة سواء من ناحية أسلوب الكتابة الكلاسيكية فى تلك الفترة ، أو فى أسلوب الكتابة الإدارية أو الرسائل الخاصة ، أو الأسلوب العامى [٤] .

---

(١) انظر جروهمان ص ٥ من كتابه : From the World of Arabic Papyri

(٢) انظر نابية أبوت فى مقدمة كتابها : Studies in Arabic Literary Papyri

(٣) جروهمان : المرجع قبل السابق ص ٥ – ١٠ .

(٤) انظر جروهمان : المحاضرة الأولى عن الأوراق البردية العربية ، كذلك مراد كامل «حضارة مصر فى العصر القبطى» ص ٧٠ .

ويكفى للتدليل على قيمة هذه الوثائق أنها نقضت ما هو شائع بين الباحثين من أن اختراع الإعجام تم على يد يحيي بن يعمر فى النصف الثانى من القرن الأول ، فقد وجدت أقدم وثيقة بردى عربية وهى مؤرخة عام ٢٢ هـ وهى تشتمل على نقط فوق الحروف : ش ، ز ، ذ ، خ ، ن .

وأهم الوثائق العربية التى رجعنا إليها تلك التى نشرها Adolf Grohmann تحت عنوان :

1- Arabic papyri in the Egyptian Library .

2- From the world of Arabic papyri .

والتى نشرتها Nabia Abbott تحت عنوان :

1- The Kurrah Papyri .

2- Studies in Arabic Literary Papyri .

وإلى جانب هذا وذاك توجد مجموعة من النصوص القبطية عثر عليها فى دير البلاعزة حققها الدكتور Kahle ، وهى تغطى فترة محدودة جدا نحو مائة سنة من ٦٧٥ إلى ٧٧٥ م . وهذه الوثائق وإن كانت قد كتب معظمها بالقبطية ففيها نسبة نحو ٦٪ كتبت باللغة العربية .

وإليكم نماذج من هذه البرديات راعينا فيها التنوع لتشمل أكثر من مستوى كلامى :

١- بسم الله الرحمن الرحيم ، من قرة بن شريك إلى صاحب أشقوه . فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد فانظر الذى كان بقى على أسقف كورتك مما فرض عليه عبدالله بن عبدالملك ... فجعل به مع رسولى ورسول الأسقف. ولا توخرن من تلك البقية قليلا ولا كثيرا والسلم على من اتبع الهدى .

وكتب في ربيع الأول سنة ٩٠ .

٢- بسم الله الرحمن الرحيم . من قرة بن شريك إلى صاحب أشقوه . فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو . فإن إبشادة بن أبنيلة قد أخبرني أن له على أنباط (فلاحين) من أهل كورتك (خمسة) عشر دينارا ، فزعم أنهم غلبوه على حقه . فإذا جاك كتابي هذا ، وأقام البينة على ما أخبرني فاستخرج له ، ولا تظلمن عبدك إلا إن كانت بينته غير ذلك فاكتب لي . والسلم على من اتبع الهدى .

وكتب مسلم بن لبان ونسخ الصلت :

في صفر سنة إحدى وتسعين .

٣- من قرة بن شريك إلى بطرس جرجه القسطال (حاكم المدينة) . قد قبضت منك المال الذي من مدينة «أهناس» عما بقّالك من الغرامة مما أدرك عليك من الجباية ... إلخ .

٤- من قرة بن شريك إلى بسيل صاحب أشقوه . فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فإنك قد علمت الذي كتبت إليك به من جمع المال الذي قد حضر من عطا الجند وعيالهم وغزو الناس . فإذا جاك كتابي هذا فخذ في جمع المال ... ثم عجل إلي بما اجتمع عندك من المال بالأول فالأول ، ولا أعرفنك ما حبستنا بما قبلك ، فإن أهل الأرض قد فرغوا من الحرثة وعلموا ما عليهم ... فعجل عجل بما اجتمع عندك من المال فإنه لو قد قدم إلي المال قد أمرت للجند بعطائهم إن شاء الله . فلا تكونن آخر العمال بعثا بما قبلك ، ولاآلومنك في ذلك والسلم على من اتبع الهدى .

٥- بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من قرة بن شريك لأهل شبرا بسيرو من كورة أشقوه ، إنه أصابكم من جزية سنة ثمان وثمانين مائة دينار وأربعة

دنانير وثلثي (كذا) دينار عددا ، ومن ضريبة الطعام أحد عشر أردب قمح وثلث إردب .

وكتب راشد في صفر سنة ٩١ .

٦-وهذا خطاب مؤرخ عام ٢٤١ هـ يتحدث عن هجوم الأسطوى البيزنطى على دمياط :

يابا حفص ، لو رأيت الناس فيه عندنا اليوم من التخليط والسخرة . يوخذ النواتية وغير النواتية . وكلمن قدروا عليه أخذوه . يدخلوا كل يوم جماعة من كل موضع . أسأل الله الفرج من عند رحمته . والأمير – أيده الله – قد خرج إلى المحلة بدمياط وهو أول يوم من مسرى ، وأخرج معه جماعة من الجند . وذلك أنه ورد عليه كتاب من أمير المؤمنين – أعزه الله – يشدد عليه أن يريح . عندى رسم كتاب لا أقدر أن أكتب به إليك .... إلخ .

٧- وهذه وثيقة من القرن الثالث الهجرى عن تسليم بضائع ودفع نقود :

بسم الله الرحمن الرحيم . حفظكم الله وأبقاكم وأمتع بكم وأتم نعمه عليكم ودع السو عنكم وعنا وعن جميع أمة محمد إنه على ذالك قادر برحمته . قد بعثت إليكم مع ميمون المكارى بصرّة فيها اثنين وأربعين دينر شهرية لى . وفيها دينرين لحمد بن حبة . ومعها فى الصرة صرة لسلمن بن داود ... فانظروا إذا وصلت إليكم أن تثبتو إلينا بوصلها إليكم إن شاء الله . وانظرو أن تشترو لى منديلين شقاق مختص ومنديلين رياط مختص . وأنا باعث بتمام خمس مناديل حتا يكفى ثلثة رياط ومنديلين شقاق جياد . فإن الشقاق الذى بعثت به وحيش جدا . فعليك بالجيد فإن الجيد كويس ... انظر حفظك الله يابا على ألا تشترى إلا الجيد من

الشقاق فقد نفر الناس من الوحيش . وقد كتبت إليك غير كتاب يبعث إلى بالقلة الحائج فلم تفعل فيخفى على إلا ما عجلتها . واشترى لى أربعة قلال صغار للجارية تستقى بهم الماء فإنى أحتاج إليهم وتسرنى بذالك ...

٨- وهذه وثيقة كتبت فى القرن الرابع الهجرى :

بسم الله الرحمن الرحيم . وصل كتابك يا شيخى وسيدى ... وغمنى ماذكرته من الأحوال الذى شرحتها لى مما ذكرت من الخراب الذى نزل بناحيتك عمرها الله ببقايك ... لقد كنت على قلق عظيم وارتجاف شديد لحبس كتابك عنى وبطؤ خبرك على حتى ... ورد بعد ذلك كتابك فزال جميع همى ... وذكرت يا سيدى أيدك الله أمر القمح وشدة حاجتك إليه وأن أتسلف لك من عند عطا أو جبارة أو غيرهم ممن أعلم أن عندهم شيا . فوالله العظيم شانه القوى سلطانه لقد عظم على مكاتبتك لهم تسئلهم مثل هذا المقدار حيث لم يكون عندى أنا شى أغنيك به عن سوالهم ... ووالله العظيم لقد أحضرت عطا وجبارة وحسين وأولاد عتيق عبدالرحمن وأخوه وأخرجت لهم الدنانير وسألتهم أن يبيعونى لك المقدار الذى ذكرته بأى سعر أحبوه فبالله إنكان واحد منهم قر لى بمد وأحد فضلا عما سواه. وقامو وبقيت الدنانير بين يدى . ووكلاك حضر مثل هذا ... فكيف تسمح نفوسهم يسلفوا شى وياخذوه وقت الغلة ...

٩- وهناك إلى جانب ذلك مخطوطة فريدة من نوعها نشرها الدكتور جورجى صبحى تحت عنوان :

New Texts from the Monastery of Saint Macarius.

وتقع فى ٣٢ ورقة كاملة و ٦ ورقات ممزقة وورقة صغيرة ، وترجع إلى أواخر القرن الثالث عشر أو القرن الرابع عشر . وأهم ما يميز هذه المخطوطة أن

لغتها عربية مكتوبة بحروف قبطية ، وممثلة فيها أصوات العلة إلى جانب الأصوات الساكنة . وترينا هذه المخطوطة - إلى حد كبير - كيف كانت تنطق عربية مصر فى وقت كتابتها . ولغتها مزيج من العامية والفصيحة . وإليكم اقتباسا من هذه المخطوطة .

احفظ نفسك أن لايسبى عقلك فى ذكر خطاياك القديمة . بل اذكرها واندم عليها لئلا يذهب منك الاتضاع . فإن ذلك ينقيك من الخطية . لاتكن مناقض تحب تقيم كلمتك لئلا يسكن فيك الشر . لاتجعل نفسك حكيم برأى نفسك لئلا تقع فى أيدى أعداك . عود لسانك يقول اغفر لى والاتضاع يأتيك . إذا جلست فى قلايتك (بيت خلوتك) فاهتم بهذه الثلاثة خصال ، دائما أبدا : عمل يديك ودرس مزاميرك وصلاتك . اجعل فى نفسك وذكرك أن ليس بقالك فى الدنيا .

ثانيا : كتب ألفها علماء متخصصون فى الدراسات اللغوية أو الأدبية ، ويمثل أسلوبها المستوى الرفيع فى الكتابة فى ذلك العصر . وقد اخترنا منها ما يأتى :

١- «المكافأة» لأحمد بن يوسف المعروف بابن الداية (ت نحو سنة ٣٤٠ هـ) الذى هاجر أبوه من بغداد إلى مصر وأصبح من جلة الكتاب بها .

٢- «أخبار سيبويه المصرى» لابن زولاق الليثى المصرى (ت سنة ٣٨٦ هـ) .

٣- «الرسالة» للإمام الشافعى . ومن المعروف أن الشافعى دخل مصر سنة ١٩٩هـ ومات ودفن بها سنة ٢٠٤ هـ ، وقد ألف كتابه هذا بمصر . وقد وصف محقق الكتاب المرحوم الشيخ أحمد محمد شاكر أسلوب الشافعى فقال : «لغته حجة لفصاحته وعلمه بالعربية ... وأصل الربيع من كتاب الرسالة أصل صحيح ثابت غاية فى الدقة والصحة . فما وجدناه مما شذ عن القواعد

المعروفة أو كان على لغةٍ من لغات العرب لم نحمله على الخطأ ، بل جعلناه شاهداً لما استعمل فيه» .

٤- مؤلفات علماء اللغة المصريين الثلاثة الذى اشتهروا فى مصر خلال القرن الرابع الهجرى وهم : كراع (ت سنة ٣١٠ هـ) ، وابن ولاد (ت سنة ٣٣٢هـ)، وأبو جعفر النحاس (ت سنة ٣٣٨هـ) . وإليكم نصوصا مختارة من هذه الكتب :

١- من «المكافأة» لابن الداية :

وحدثتنى أم آسية قابلة أولاد خمارويه بن طولون ... أنه تزوجها وأختها أخوان ، فاقبلت حال زوج أختها ، وأدبرت حال زوجها . قالت : وتوفى زوجها بأسوأ حالة وخلف لها بنات .. قالت فكنت أجاهد فى مؤونة ولدى . إذا وقف أمرى صرت إلى أختى فقلت أقرضينى كذا وكذا استحياء من أن أقول لها هبى لى . ودخل شهر رمضان فلما مضى نصفه اشتهوا على صبيانى حلوى فى العيد . فصرت إلى أختى فقلت لها : أقرضينى دينارا أعمل به للصبيان حلوى فى العيد . فقالت يا أختى تغيظينى بقولك أقرضينى ، وإذا أقرضتك من أين تعطينى . أمن غلة دورك أو بستانك ؟ لو قلت هبى لى كان أحسن . فقلت لها أقضيك من لطف الله تعالى الذى لايحتسب ، وجوده الذى يأتى من حيث لايرتقب . فتضاحكت وقالت : يا أختى هذا والله من المنى ، والمنى بضائع النوكى . فانصرفت عنها أجر رجلى إلى منزلى .

٢- من «أخبار سيبويه المصرى» لابن زولاق :

وسمعت سيبويه يقول وقد جرى ذكر ابن المدبر عامل خراج مصر فقال : لقد بلغنى عنه أنه كان سائرا فى جمعه وعديده ، ورجاله وجنوده ، حتى وقفت له

امرأة معها أطفال فقالت له : هؤلاء أطفال فلان وقد طال حبسه وهو فقير . فالتفت إليها بفظاظة وغلظة وقال : لايخرج من الحبس إلا بأداء ما عليه ... فانكر كل من حوله الكلام فى أنفسهم . فلم تمض جمعة حتى قبض عليه أحمد بن طولون وسلمه إلى محمد بن هلال عامل خراجه وقال : قيده وغله وألبسه جبة صوف منقعة فى دهن الأكارع مختومة ، وأوقفه فى الشمس على مزبلة على باب دارك . ففعل به ابن هلال ذلك .

٣- من «المقصور والممدود» لابن ولاد :

فأما المقصور الذى يسمى منقوصا فهو ما كانت ألفه التى فى آخره مبدلة من ياء أو واو وانفتح ما قبلهما ، وكانت فى موضع حركة فأبدل منها ألف نحو ملهى ، ألفه مبدلة من واو لأنه من اللهو ، ومرمى ألفه مبدلة من الياء لأنه من الرمى . والأصل فيها ملهو ومرمى . فلما تحركت الواو والياء وانفتح ما قبلهما أبدل منهما ألف . وكذلك عصا ورحى ... وإنما سموا عصا ورحى وماشاكل ذلك منقوصا ... من أجل أن الألف أبدلت مكان الياء والواو ... فلم يدخلها رفع ولا نصب ولا جر .. فهذا وجه نقصانها .

٤- من كتاب «المنجد» لكراع :

قال أبو الحسن على بن الحسن الهنائى : هذا كتاب ألفته فيما اجتمعت عليه الخاصة والعامة من الألفاظ التى عمت مرائيها وخصت معانيها . وجعلته ستة أبواب :

الباب الأول منها فى ذكر أعضاء البدن من الرأس إلى القدم .

الباب الثانى فى ذكر صنوف الحيوان من الناس والسباع والبهائم والهوام.

الباب الثالث في ذكر الطير الصوائد منها والبغاث وغير ذلك .

الباب الرابع في ذكر السلاح وما قاربه .

الباب الخامس في ذكر السماء وما يليها .

الباب السادس في ذكر الأرض وما عليها . وفي هذا الباب ٢٨ فصلا على عدد حروف الهجاء من الألف إلى الياء . وأثبت في كل باب منها ما قصدت له من الحروف المتشابهة بأجناسها وما سنح من الشواهد عليها مما يكون فيه الدلالة دون الإكثار والإطالة . وبالله التوفيق والتسديد ومنه العون والتأييد .

ثالثا : كتب ألفها علماء أقباط ظلوا محتفظين بدينهم ، وتعلموا اللغة العربية لسبب أو لآخر وأتقنوها ، ولكن ظلت كتاباتهم تعكس خصائص معينة وتبدو عليها المسحة الأجنبية . وقد اخترنا من بين هؤلاء العلماء :

١- سويرس بن المقفع (القرن ٤ هـ) في كتابه : «سير الآباء البطاركة» .

٢- سعيد بن بطريق (القرن ٤ هـ) في كتابيه : «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» و«البرهان» .

٣- الشيخ أبو صالح الأرمني الذي هاجر إلى مصر واستوطن بها (القرن ٦ هـ) وله كتاب مشهور في التاريخ .

٤- مجموعة من العلماء الأقباط وجدوا في القرنين ٦ و ٧ هـ وتركوا مؤلفات باللغة العربية معظمها يتناول النحو القبطي والتعاليم المسيحية . وعلى رأسهم :

(أ) أولاد العسال . وأصلهم من بلدة سدمنت من صعيد مصر من عائلة رجل اسمه أبو البشر يوحنا الكاتب المصري . وقد شغل بعض أولاد العسال مناصب كبيرة في الحكومة ، وألفوا كتبا في الديانة المسيحية باللغة

العربية ، وترجموا بعض الكتب الدينية من اللغة القبطية إلى اللغة العربية، وألفوا بعض الكتب في الغرض المتقدم . ويبدو من كتبهم أنهم أخذوا بحظ وافر من الثقافة الإسلامية . واشتهر بينهم الصفي بن العسال وله مجموع يسمى «المجموع الصفوي» ، وهو كتاب ضخم ألف في فقه المذهب الأرثوذكسي ، وقد رجعنا إليه . وللأسعد ابن العسال أرجوزة في المواريث جاء فيها :

الشكر لله الوحيد الذات — سبحانه مثلث الصفات
أحمده حمدا كما هو أهله — إذ فاض بحر جوده وفضله
أزيد في التمجيد والتسبيح — لابن الإله السيد المسيح

ومنها :

يأيها الطالب علم الشرع — في الإرث خذ مختصرا من فرع
اسمع هديت أفضل السبيل — جملته نظما بلا تفصيل
ابدأ بما يصلح للأكفان — والقبر والحمال والقربان
أوف الديون قبل أن تقسما — فالشرع قد صيره مقدما

ولأبي الفضل بن العسال معجم سماه «السلم المقفى والذهب المصفى» ، وهو معجم قبطي عربي رجعنا إليه . وللمؤتمن بن العسال كتاب في نحو اللغة القبطية سماه «المقدمة» رجعنا إليه .

(ب) أنبا يؤانس (يوحنا) أسقف سمنود المشهور باسم السمنودي ، وله مقدمة أجرومية وسلم (مجموع كلمات) . وقد رجعت إلى مقدمته في نحو اللغة القبطية .

(جـ) الوجيه القليوبي الذي ألف كتابا أسماه «الكفاية في نحو اللغة القبطية» ، وقد رجعت إليه .

(د) الشيخ الرئيس ابن كاتب قيصر الذى ألف كتابا فى نحو اللغة القبطية سماه «التبصرة» ، وقد رجعت إليه .

(هـ) ابن الدهيرى الذى ألف «مقدمة فى نحو اللغة القبطية» رجعت إليها .

(و) ابن كبر شمس الرياسة أو البركات الذى ألف «السلم الكبير» وهو فى تفسير كلمات قبطية بالعربية ، مرتبة على المعانى وهى على أبواب . وقد رجعت إليه كذلك . وله إلى جانب ذلك مجموعة من الخطب الدينية . ويبدو من مؤلفاته أنه واسع الاطلاع على التاريخ والأدب العربى وعلوم اللغة العربية .

والظاهرة التى تلفت النظر فى مؤلفات هؤلاء أن معظمهم لم يكن متمكنا من اللغة العربية ، وكان أسلوبه ركيكا أو أشبه بالأسلوب الدارج منه بأسلوب الكتابة ، وإن تفاوتوا فى ذلك بشكل ملحوظ . ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا القليلون جدا الذين يصعب تمييز كتاباتهم من كتابات العرب أو المسلمين .

ولكثرة ما ظهر من إنتاج فى هذه الفترة سمى بعضهم القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين (٦ و ٧ هـ) بالعصر الذهبى لآثار الأقباط الفكرية .

وإليكم نماذج مختلفة لكتابات هذه المجموعة :

١- من «المجموع الصفوى» لابن العسال :

باسم الآب والابن والروح القدس إله واحد ، له المجد دائما إلى الأبد . آمين. المجد لله الذى شرفنا بأفضل الإيمان والأعمال ، وثقف أفعالنا الظاهرة والباطنة بشريعتى المبدأ والكمال . وبعد : فإن هذا الكتاب مجموع من الكتب الإلهية ، والقوانين البيعية ، ومما فرعه العقل عليها ، ورده القياس إليها ، جمعا

يخلو مع الاختصار من الإخلال ، ويجمع بين فائدتي التفصيل والإجمال . أعتضد فيه بمجموعات جمعت ببصيرة وتوفيق واجتهاد ، وأنتخب من موضوعات وضعها من له في التصنيف خبرة وتحقيق واعتياد .

٢- من «سير الآباء البطاركة» لابن المقفع :

فشال الدبوس ليضرب أبي على رأسه فقدم رأسه إليه . فلما أراد أن يضربه صاحوا عليه جماعة من أصحابه المستخدمين ، ولم يدعوه يضربه . وكان جميع العسكر يقولوا بلسانه حقا إن هذا الأسقف نعم الخادم لربه . ثم جاء رسول أبى قائلا ادخلوا بجميعهم فقد استدعاهم الملك ، فدخلنا جميعا فكان مروان جالس على شاطىء البحر ... فأمر أن يجعلونا على يساره في ناحية مفردة، وأمر أيضا بإحضارنا وتسليمنا إلى قوما آخرين غير الذين جابونا من الإسكندرية .. فلما حميت الشمس أعد لنا ذلك الأمير آلة العذاب ... وحمل على كل مركب ثمانين رجل ... وكانوا الخراسانيين قد جابوا مراكب عدة إلى مصر ، فلما جاءت عشرة ساعات من ذلك اليوم تقدم إلى يزيد الذي تحن عنده ... إلخ .

٣- من «تاريخ الشيخ أبى صالح الأرمني» :

ورجع طلع إلى الأب البطرك .. فقال له البطرك إيش رجع جانبك إلى عندى يامحروم بهذا الزى المغير عن صنعتنا ، ومد يده إلى رأسه وطرح البرطلة ... وإن أحد تلاميذ البطرك أعاد البرطلة على رأسه فصعب ذلك على البطرك ... وقام من عنده وخرج مخزى لايعرف كيف يمشى ... ثم إن بطرك الملكية شيعه دير القصير وأقام به هو وأصحابه .... إلخ .

٤- من «مقدمة فى نحو اللغة القبطية» لابن الدهيرى :

المجد لله العظيم العلى ، القديم الأزلى ، ذى الطول المتين ، والفضل المبين ، الذى أصفى موارد حكمه ، وأضفى ملابس نعمه ، للعاملين والعالمين ، وأسدل جلابيب كرمه ، وأسبل شآبيب ديمه . على العاكفين العارفين ، وأنار بصائر أولى الهداية بنور الحقيقة ، وعلم اليقين ، وعم فضله ، وخص فيضه للعاملين والمرسلين ، وقسم المواهب بين براياه ، على قدر استعداد القابلين والقائلين ، وميز الإنسان بالعقل والنطق عن بقية الحيوانات غير الناطقين . .

٥- من «مقدمة فى نحو اللغة القبطية» للسمنودى :

كان لما كانوا آباء فضلاء لأجل عدم تفسير اللسان القبطى قد تقدموا وعملوا سلما للتفسير ، وجمعوا فيه جميع الكلام من الأسماء والأفعال ، وقصدوا بذلك كمال معرفة التفسير ، وإن بعض الناس لما استكثروا مقدار جملة الكتاب وأنه لايحصل لهم قصد فى جزء منه دون حفظ جميعه فلذلك ملوا وكسلوا قضى الحال إلى أن أعمل تفسير كلام كتب البيعة أعنى الحديثة وهم الأناجيل المقدسة ورسائل بولص الرسول ... وما انضاف إليهم مساقا على فصوله أولا فأولا ... وجعل إنجيل يوحنا فاتحته لأجل سهولة كلامه ليسهل للطالب القصد بذلك .

رابعا : متفرقات ونماذج نثرية شعرية متناثرة فى كتب الأدب والتاريخ واللغة :

أذكر من بينها «صبح الأعشى» للقلقشندى ، و «الولاة والقضاة» للكندى ، و «النجوم الزاهرة» لابن تغرى بردى ، ومن أمثلة ذلك :

١- كتب ابن عبدكان على لسان أحمد بن طولون إلى ابنه العباس :

من أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين إلى الظالم لنفسه ، العاصي لربه ، الملم بذنبه ، المفسد لكسبه ، العادى لطوره ، الجاهل لقدره ، الناكص على عقبه .. سلام على كل منيب مستجيب ، تائب من قريب ... أما بعد فإن مثلك مثل البقرة تثير المدية بقرنيها ، والنحلة يكون حتفها فى جناحيها . وستعلم – هبلتك الهوابل – أيها الأحمق الجاهل الذى ثنى على الغيّ عطفه ... أى مورد هلكة سلكت .

٢- من الشعر الذى قيل فى قضية القاضى العمرى :

قال طاهر القيسى :

ولقد قمعت بنى الخبائث عندما ... راموا العلا وتحوتكوا وتعربوا
فرددتهم قبطا إلى آبائهم ... ونَسيت أصلهم الذى قد غيبوا

وقال المعلى الطائى يهجو القاضى العمرى :

كم كم تطول فى قراتك ... والجور يضحك من صلاتك
تقضى نهارك بالهوى ... وتبيت بين مغنياتك
فاشرب على صرف الزما ... ن بما ارتشيت من الحواتك
إن كنت قد ألحقتهم ... عربا فزوجهم بناتك

الفصل الثالث

المؤثر الأول : اللغة القبطية

إن حياة أى لغة بمعزل عن التأثيرات الخارجية شيء خيالى ربما لم يتحقق لأى لغة على مدى تاريخها الطويل . ومهما فرض من قيود ووضع من سدود حول اللغة ومتكلميها فإن الاحتكاك بالعالم الخارجى لابد أن يحدث ، والتبادل اللغوى لامفر من أى يتم .

وحين يحدث – لسبب أو لآخر – أن تلتقى لغتان أو أكثر فى مكان واحد ، لايمكن أن يتصور وقوف كل منهما بمعزل عن الأخرى تقول لامساس ، وإنما الذى يحدث أن يبدأ الاحتكاك بينهما ، وأن يتبادلا التأثير والتأثر . وبعد فترة تطول أو تقصر قد تتمكن إحداهما من القضاء على الأخرى والحلول محلها ، وقد لايحدث هذا وتظل اللغتان جنبا إلى جنب تتعرض كل منهما لسهام الأخرى دون أن تقضى عليها .

ولا يعنى انتصار لغة وانهزام أخرى أن اللغة المنهزمة تموت وتتلاشى من الوجود نهائيا ، فهى ربما تختفى كلغة متكلمة عامة وتظل مستعملة فى مجالات ضيقة ، وبين عدد محدود من الناس لمدة طالت أو قصرت . كما لايعنى انهزام لغة أنها تموت موتا كاملا فهى تظل حية حياة جزئية فى شكل بقايا وآثار تختلط باللغة المنتصرة ، وتصبح جزءا لايتجزأ منها . وقد حدث هذا – على سبيل المثال – مع

اللغة العربية حين رحلت إلى بلاد الفرس وقام الصراع بينها وبين الفارسية ، فقد خرجت العربية منتصرة فى هذا الصراع ، ومع ذلك فقد أصابها قدر كبير من التغيير الذى يميز عربية ما وراء نهرى دجلة والفرات من سائر العربيات . وحدث هذا أيضا مع اللغة العربية حين وفدت إلى مصر مع العرب ، واختلطت باللغات المحلية التى كان أهمها القبطية ثم اليونانية . فحين استوت اللغة العربية على سوقها ، وقهرت أولا اللغة الرسمية والثقافية وهى اليونانية ، ثم اللغة الوطنية وهى القبطية ، تحملت آثارا من كل منهما ، وظهرت عليها ملامح من كلتا اللغتين . ويبدو أن التأثير اليونانى على عربية مصر كان محدودا ، إذ لم يتعد إقراضها بعد المفردات ، وبخاصة فى مجال المصطلحات العلمية ولغة الدواوين ، لأنها لم تكن لغة متكلمة بقدر ما كانت لغة مكتوبة ، ولم تشع على ألسنة العامة شيوع اللغة القبطية . ومعظم الصراع اللغوى يتم بين لغتين حيتين متحركتين تريد كل منهما السيطرة على لغة الحياة العامة ، واحتكار ميدان الحديث والتخاطب العادى . وفضلا عن ذلك فإنه من المستحيل – بالنسبة لكثير من الكلمات – القطع بأن الاقتراض من اليونانية قد تم فى مصر ولم يتم فى بلد عربى آخر ، وأنه خاصة تميز عربية مصر من سائر العربيات . وصعوبة أخرى تمس التأثير اليونانى فى عربية مصر يتمثل فى صعوبة الفصل بينه وبين التأثير القبطى ، وذلك لأن اللغة القبطية حين جاءت إلى معركتها مع العربية كانت قد اقترضت كلمات كثيرة من اليونانية ، وبخاصة فى مجال الطقوس والعبادة وحياة الرهبنة . وحين ترجمت الكتب المقدسة إلى اللغة القبطية روعى المحافظة على كل الكلمات اليونانية التى لها دخل بالعقيدة أو تعبر عن أفكار مسيحية . ولذلك نجد من يبحثون فى التأثير الأجنبى على عربية مصر يدمجون اللغتين القبطية واليونانية ، ويتحدثون عنهما معا

فى وقت واحد . وخير مثال على هذا مافعله الدكتور جورجى صبحى فى بحثه المعنون :

Common Words in the Arbic of Egypt of Greek or Coptic Origin.

فلهذا كله سنركز حديثنا على الأثر القبطى وسنكتفى بالإشارة العابرة إلى التأثير اليونانى حين نملك الدليل عليه .

فإذا أردنا الحديث عن التأثير القبطى وجدنا شقة الخلاف تتسع بين الدارسين حول مداه على عربية مصر إلى حد التطرف فى الاتجاهين المتضادين . ففريق بالغ مبالغة واضحة فى ادعاء الأثر القبطى ، وأخذ يتصيد أى فرصة لإثبات نفوذه ، كما حاول تفسير كثير من الملامح الخاصة بعربية مصر على أنها من آثار اللغة القبطية . وفريق ثان أخذ الطرف المضاد ، وبالغ فى التقليل من آثار القبطية على العربية ، وحاول تفسير كل ظاهرة يشتم منها رائحة القبطية تفسيرا يخرجها عن المجال . وهناك فريق ثالث توسط بين الرأيين ، وسلك مسلكا معتدلا لاتحيز فيه لأحد الجانبين ولا تعصب فيه لإحدى اللغتين ضد الأخرى . ويوجد فريق رابع من الدراسين مس القضية مسا خفيفا وأشار إشارات عابرة إلى التأثير القبطى وأعطى أحكاما مبتسرة ليست مبنية على التحليل العلمى للواقع اللغوى . وسنعرض فى إيجاز لهذه الاتجاهات الأربعة ثم نعقب برأينا فى الموضوع .

أما الفريق الأول : فيمثله الدكتور جورجى صبحى الذى اشتهر بأبحاثه الضافية فى هذا الموضوع ، ونشره لكثير من الوثائق والبرديات الهامة . ولكنه مال كل الميل فى أحكامه ، وحاف حين أراد أن ينسب كل شىء إلى القبطية . ومما قاله فى هذا الموضوع :

١- بفحص مفردات اللغة العامية العربية فى مصر يفاجأ الشخص بأن يجد عددا عظيما من الكلمات التى يمكن ردها بسهولة إلى أصلها المصرى القديم أو أصلها القبطى [١] .

٢- من الممكن أحيانا ترجمة جملة صعيدية إلى القبطية ترجمة حرفية بدون تغيير نحوى ، أو عمل أى تعديل فى نظام الجملة [٢] .

٣- استعمال القبطية بجانب اللغة العربية فى مصر لمدة طويلة من الزمن قد ترك آثارا قبطية كثيرة فى اللغة العربية الدارجة ككلمات وتعابير وتراكيب أثرت على تعابير وتراكيب اللغة العربية الدارجة فى مصر ، حتى فى نطق حروف هذه الأخيرة ، وبذا أصبحت لغة مصر الدارجة مختلفة بالمرة عن سائر لهجات اللغة العربية المستعملة فى الأقطار المجاورة لمصر ، ليس فقط فى معجمها ، بل فى نحوها وصرفها [٣] .

٤- من الغريب أن الاختلاف الحالى بين لهجات اللغة العربية الدارجة (فى مصر) يوافق جغرافيا الاختلاف بين اللهجات القبطية القديمة [٤] .

---

(١) انظر جورجى صبحى ص ٢٢ من كتابه :

Common words in the Spoken Arabic of Eygypt of Greek or Coptic Origin.

و ص ٧٢ من مقاله :

Studies of Ancient Egyptian in Modern Dialects

المنشور بمجلة : Ancient Egypt عام ١٩٢١ .

(٢) نفس المرجعين ونفس الصفحتين السابقتين .

(٣) قواعد اللغة المصرية القبطية للدكتور جورج صبحى ص ٣ و ٤ .

(٤) المرجع السابق ص ٤ و ٨ .

٥-كما يتمثل تطرفه فى القوائم الطويلة التى قدمها فى كتاباته المختلفة لكلمات شائعة فى عربية مصر ادعى أن لها أصلا قبطيا [١] .

ويشاركه فى القوائم الطويلة باحث قبطى آخر هو الأستاذ جرجس فيلوثاوس عــوض[٢] . كما يشاركه فى مبالغاته فى مدى التأثير القبطى على اللغة العربية مستشرقون كثيرون منه D. Prince الذى يقرر أن هناك أثرا كبيرا للقبطية على العربية المصرية يشمل نظام الجملة والمفردات وطريقة النطق ، ومثل E. Littmann و F. Praetorius الذين صرحوا بوجود نفوذ قبطى كبير وبخاصة فى مجال النحو ونظام الجملة ، وردوا عددا من خصائص اللغة العربية المصرية إلى أصول قبطية .

بــل أكثــر مــن هذا يــرى D. Prince أن صــوت الجـيم فــى عــربية مصــر (بنطقــه القاهرى) هــو نتيجة نفوذ قبطى وليس نتيجة تأثير لهجى عربى (انظر The Coptic Influence ص ٢) .

وسوف نناقش هذا وغيره حينما يأتى دور إبداء رأينا فى الموضوع .

وأما الفريق الثانى : فيمثله المستشرق المشهور De Lacy O'Leary [٣] الذى ينفى هذا التأثير بشدة ، ويخالف Littmann و Praetorius و Stern مفسرا الأمثلة التى ذكروها على أنها ذات أصل قبطى - تفسيرا عربيا صرفا . ويذهب

---

(١) انظر مثلا ص ٧٤ و ما بعدها من : Ancient Egypt 1921 وبحثه ... Common Words وبحثه : ... The Persistence of Ancient Coptic Methods of Medical

(٢) انظر المجلة القبطية السنة الأولى ص ١٤٠ وما بعدها ، وص ٣٦٩ وما بعدها ، وص ٤١٢ ومابعدها ، وص ٤٧٠ وما بعدها ، والسنة الثالثة ص ٢٩٧ وما بعدها .

(٣) انظر Notes on the Coptic Language

أو ليرى إلى أن لهجة الصعيد لاتعكس نفوذا قبطيا – كما يزعم بعضهم – وإنما تعكس نفوذا بدويا عربيا . وممن أنكر وجود أى تأثير نحوى للغة القبطية على عربية مصر المستشرق E. Galtier فى بحثه : [١] .

De l'influence du Copte sur l'Arabe d'Egypte

وأما الفريق الثالث : فيمثله الدكتور ولسن بشاى الذى درس القضية دراسة موضوعية ونظر إلى جميع أطرافها نظرة علمية صرفة [٢] ، وانتهى إلى محدودية التأثير الصوتى للهجة القبطية الصعيدية على اللهجة العربية المصرية المستعملة فى الصعيد ، وانعدام تأثير اللهجة القبطية البحيرية على لهجة القاهرة . أما فى مجال النحو فقد أثبت أربعة أمثلة فقط للتأثير القبطى على المصرية الدارجة وعقب ذلك بقوله : «وهذه النتيجة تدل على أن النفوذ القبطى على العامية المصرية من جانب النحو قليل جدا بدرجة تثير الانتباه» . وأما فى مجال المفردات فقد جمع الكاتب أكثر من مائتى كلمة ادعى غيره اقتراضها من اللغة القبطية فوجد من بينها ١٠٩ كلمات فقط وافق على اقتراضها ، أما الباقى فمعظمه تمكن من رده إلى أصله العربى ، وبعضه وجده مقترضا من لغات أخرى غير القبطية وانتهى بفحصه إلى النتيجة الآتية : «إن معظم الكلمات القبطية المقترضة تتعلق بكلمات خاصة بالكنيسة ، وكلمات تستعمل فى القرى النائية وغير معروفة لكثير

---

(١) انظر Bulletin de l'Institut Francais d'Archeologie Orientale
الجزء الثانى سنة ١٩٠٢ صفحة ٢١٢ وما بعدها .

(٢) يتميز الدكتور ولسن بشاى على غيره من الباحثين بما يأتى .
(أ) أنه مصرى يتكلم العامية المصرية .
(ب) أنه دارس للعربية الفصحى ولكل من المصرية القديمة والقبطية .
(جـ) أنه على معرفة بعدد من اللغات السامية الأخرى .
(د) أنه مهتم بالدراسات اللغوية الحديثة .

من المصريين . أما الكلمات القبطية المشتركة الموجودة فى المصرية الدارجة فقليلة العدد [١]» . وحين قارن الباحث التأثير القبطى بالتأثير التركى انتهى إلى القول بأن المقارنة تثبت تأثيرا قبطيا محدودا بخلاف التركى [٢] .

ونحن وإن كنا نوافق الباحث فى نظريته العامة فإننا نخالفه فى بعض التفصيلات كما سيأتى فى موضعه .

وأما الفريق الرابع : فيمثله يوهان فوك الذى قال فى كتابه «العربية» : «بينما أثرت الفارسية فى عربية العراق تأثيرا بعيد المدى وكثرت فى اللغة العربية الفصحى الألفاظ الفارسية المعربة بصورة ملحوظة ، فإن أثر القبطية فى اللهجة العربية جد ضئيل» ، والدكتور عبدالرحمن أيوب الذى قال فى كتابه «التطور اللغوى» : «وإذا كان من الصحيح أننا نتكلم اليوم لهجة عربية فمن الصحيح أيضا أن كثيرا من الخصائص القبطية قد تسربت إلى هذه اللهجة» ، واكتفيا بذلك دون أن يحاولا مناقشة القضية مناقشة علمية ، أو يقدما الدليل على ما قالاه .

أما نحن : فنرى أن التأثير القبطى على عربية مصر لايمكن إنكاره ، وأن فترة التأثير القوى كانت فى القرون الثلاثة أو الأربعة الأولى حينما كانت اللغتان حيتين ومتكلمتين . وقبل أن نبدأ دراستنا التفصيلية لهذا الموضوع نحب أن نوضح المبادىء الآتية :

---

(١) انظر : Notes on the Coptic Substratum in Egyptian Arabic
ولنفس المؤلف رسالة نال بها درجة الدكتوراة من جامعة جونز هوبكنز بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٥٩ بعنوان : The Coptic Influence on Egyptian Arabic وقد حصلت عليها مؤخرا ورجعت إليها فى هذه الطبعة .

(٢) The Coptic Influence – المقدمة .

١- أن بعض التأثيرات القبطية قد غزا العربية الفصحى المشتركة ، وذكر فى كتب اللغة الموثوق بها [١] . وبعضها انتقل إلى عاميات أخرى غير عامية مصر .

٢- أن قضية التأثير والتأثر من القضايا الشائكة التى يعسر أو يستحيل فى بعض الأحيان القطع فيها برأى . فرب كلمة عربية يظن أصلها القبطى يظهر فيها العكس أو يظهر لها أصل أجنبى آخر تكون اللغتان قد استعارتاها منه سواء عن طريقين منفصلين أو عن طريق إحداهما . وربما يمكننى أن أمثل لذلك بكلمة «سفتجة» بمعنى «إيصال» التى وردت فى وثيقة عربية من وثائق البردى المحفوظة بدار الكتب المصرية ، والتى يرجع تاريخها إلى عام ٣٤٦ هـ . فواضح أنها كلمة غير عربية ، ولكنها فى الحقيقة ليست قبطية وإنما فارسية[٢] . ومن أمثلة ذلك الكلمات اليونانية الأصل الموجودة فى كلتا اللغتين القبطية والعربية ، إذ لايمكننا أن نقطع هل كانت قد دخلت العربية عن طريق القبطية أو عن اليونانية مباشرة ، كما لا يمكننا أن نقطع ما إذا كانت هذه الكلمات قد دخلت العربية عن طريق مصر أو عن طريق بلد عربى آخر . ورب كلمة نجدها فى العربية واليونانية فنظن أن أصلها يونانى وهى فى الحقيقة عربية أو سامية . وقد ضرب الأب أنساتس مارى الكرملى أمثلة كثيرة لهذا فى بحثه المعنون «تناظر العربية واليونانية» الموجود بمجلة مجمع اللغة العربية، الجزء الأول .

---

(١) سبق التمثيل لذلك بكلمات مثل «تبس» و «صداع» و «مشط» (انظر التمهيد) .

(٢) انظر كتاب تفسير الألفاظ الدخيلة فى اللغة العربية مع ذكر أصلها بحروفه للقس طوبيا العنيسى ص ٣٥ . ومثل هذا كلمة «بوش» التى قال عنها ولسن بشاى : إن النظرة الأولى قد تردها إلى أصل قبطى ، ولكن الشواهد تظهر أنها ذات أصل تركى . (The Coptic Influence ص ٨) .

٣- أن اللغة المصرية الحديثة نتاج احتكاك بلغات أجنبية كثيرة مثل اليونانية والتركية والفارسية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية ، ولاشك أن كلا من هذه اللغات قد ترك آثاره عليها . ومن أجل هذا فإن الكلمات غير العربية المستعملة في المصرية الحديثة لايمكن ردها إلى القبطية إلا بعد استبعاد آثار اللغات السابق الإشارة إليها .

٤- أن كثيرا من الخصائص التي تتميز بها عربية مصر عن سائر العربيات مرده أسباب أخرى غير النفوذ الأجنبي وغير التأثير القبطي مثل : التطور الطبيعي للغة ونفوذ اللهجات العربية . ومن الثابت تاريخيا أن القبائل العربية التي وفدت إلى مصر كانت كثيرة ومتنوعة وأنها حملت معها سمات لهجاتها وخصائصها . وكثير من هذه السمات والخصائص لم يسجل ولم يدرس ، وبالتالي فمعرفتنا به محدودة أو معدومة . ورب ظاهرة نظن أصلها القبطي يرجع أصلها إلى لهجة عربية ، أو يمكن ردها بعد التدقيق إلى قبيلة عربية معينة ، على نحو ما سنذكر فيما بعد .

٥- أن درجة تأثير اللغة القبطية على عربية مصر قد تفاوتت من مستوى لغوى إلى مستوى آخر ، وربما من كاتب إلى كاتب ومن متحدث إلى متحدث . ولكننا في دراستنا سنقسم المستويات اللغوية إلى ثلاثة ، ونعالج كلا منها على حدة . هذه المستويات هي :

(أ) المستوى الأدبي ، أو اللغة الكتابية للأدباء ، وهذا يتمثل في كتابات كبار الأدباء الذين شغلوا مناصب رؤساء دواوين الإنشاء ، والتي كانت تتبع مباشرة الوالي أو الخليفة . كما يتمثل في كتابات المتخصصين في اللغة العربية وأشعار الشعراء التقليديين ورجال الأدب بعامة .

(ب) المستوى نصف الأدبى ، أو اللغة الكتابية لغير المتخصصين . وهذا المستوى تمثله كتابات صغار الكتاب وموظفى الحكومة فى تسجيلهم للوثائق وكتابتهم للعقود ونحو ذلك . كما تمثله كتابات غير المتخصصين الذى خلفوا كتابات باللغة العربية دون أن يحققوا مستوى رفيعا فى تعلمهم اللغة العربية . والأمثلة على هذا المستوى قد حفظت لنا فى شكل وثائق من أوراق البردى ، كما حفظت فى شكل مؤلفات وصلتنا مما كتبه المؤلفون الأقباط باللغة العربية مثل سويرس بن المقفع وسعيد بن بطريق .

(جـ) المستوى العامى ، أو مستوى لغة التخاطب . وبالنظر إلى التأثير القبطى، فإننا قد اعتبرنا كل الآثار القبطية الموجودة فى لغة الكتابة لهذه الفترة – اعتبرناها موجودة كذلك فى لغة الحديث . كما اعتبرنا الآثار القبطية الموجودة فى لغة الحديث الآن تمثل الآثار القبطية التى كانت موجودة فى فترة دراستنا ، إذ أننا نفترض أن هذه الآثار إنما ترجع إلى القرون الأولى للهجرة حينما كانت اللغة القبطية لاتزال لغة حية متكلمة ، وحينما كان لها نفوذ على اللغة العربية .

٦- أننا فى دراستنا للأثر القبطى سنفصل بين ثلاثة أنواع من التأثيرات وسنحاول أن نتتبع كلا منها على حدة . أما هذه الأنواع الثلاثة فهى :

(أ) التأثيرات الصوتية .

(ب) التأثيرات النحوية والصرفية .

(جـ) التأثيرات فى مجال المفردات .

وإليكم التفصيل :

(أ) التأثير الصوتى

من الصعب أن نتتبع التأثير القبطى على الأصوات فى لغة الكتابة على المستويين الأول والثاني ، ولهذا فسنقصر حديثنا على المستوى الثالث ، وهو مستوى لغة الخطاب .

لاشك أن من أهم الصعوبات التى تصادف المتحدث بلغة أجنبية ، نطقه للأصوات غير المألوفة ، أو غير الموجودة فى لغته . ويزداد الأمر صعوبة إذا بدأت محاولته في سن متأخرة بعد تعود جهازه النطقى النطق بطريقة معينة . ولهذا فنحن نتصور أن الوضع في المرحلة الأولى من الاختلاط كان هكذا : يتحدث العربى بطريقته الخاصة غير المشوبة بعنصر أجنبى ، أما القبطى الذى تعلم اللغة العربية فكان يتحدث بلهجة مخلوطة بلكنة أجنبية ، أو بعبارة أخرى كان «يقبّط» نطقه العربى . ومع ذلك فنحن نتصور أن نطق القبطى للغة العربية لم يتخذ فى يوم ما مقياسا للغة الحديث ، ولم يقبل كنموذج للصواب اللغوى . والسؤال الآن : هل تركت اللغة القبطية أى آثار على الناحية الصوتية للغة الحديث بحيث صارت هذه الآثار حقيقة مسلما بها ، ودخلت لغة الخطاب العامة ، وأصبحت لاتثير انتباه المتكلمين ، ولا يشعر بغرابتها أو شذوذها السامعون ؟

يجيب بعضهم عن هذا السؤال بالإيجاب ، ويضربون أمثلة على هذا التأثير . ولكن بالفحص الدقيق يتبين خطأ هذا الرأى ، وعدم صحة الأمثلة التى ذكروها .

ومما قيل فى هذا الموضوع :

(أ) أن العربية الصعيدية تنطق صوت «الجيم» بقيمته الصوتية القبطية . فهى تنطقه «ژ» كما ينطق فى اللغة القبطية ، وبصورة مختلفة عن نطقه فى كل الأقطار الأخرى المتكلمة باللغة العربية [١] .

(ب) أن نطق القاف جيما غير معطشة فى لغة الصعيد حدث بتأثير النطق القبطى للرمز «k» الذى يمثل القيمة الصوتية للرمز «ق» والذى كثيرا ما لفظه الأقباط جيما غير معطشة [٢] .

(جـ) أن نطق القاهريين للجيم كـ «g» قد نشأ فى ظل نفوذ قبطى .

ولكن البحث الدقيق أثبت خطأ كل ما سبق :

(أ) فنطق الجيم الموجود بين عامة الصعيد يعكس – على ما حقق دى لاسى أوليرى – أثرا بدويا لا أثرا قبطيا .

(ب) ونطق القاف جيما غير معطشة يقع كذلك – كما أثبت دى لاسى أوليرى – فى حديث البدو السوريين وبدو الجزيرة العربية فى جدة ومكة ونجد ... وأجزاء من فلسطين والعراق ... ولهذا فهو اتجاه بدوى يعطى دليلا على استقرار قبائل بدوية فى مصر العليا فى العصور الوسطى . فهو – مرة أخرى – خاصة بدوية وليس خاصة قبطية .

(جـ) وصت «g» فى القبطية مجرد تنوع ألفونى فى حين أنه فونيمى فى كل من عربية القاهرة (بدلا من الجيم الفصحى) وعربية الصعيد (بدلا من القاف فى

---

(١) صبحى : Common words ص ٢٢ .

(٢) صبحى : قواعد اللغة المصرية القبطية ص ١٩ .

الفصحى) . وقد ثبت أن النطق القاهرى للجيم ليس غريبا على اللهجات العربية. فهو موجود – كما يقول رابين – فى بعض أجزاء من الحجاز ، وفى لبنان . وهو نطق أهل عدن كذلك كما ذكر المقدسى فى أحسن التقاسيم ، وقد ورد عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم حين أتى بروثة عند الاستجمار فألقاها وقال : «هى ركس» . كما ورد عليه قراءة بعض القراء : «حتى يلك الكمل فى سم الخياط» .

ويجب أن يحمل الحديث والقراءة على الكاف المجهورة (أى الجيم بالنطق القاهرى) التى كتبوها برمز الكاف حتى لايلتبس نطقها بنطق الجيم الفصحى المركبة [١] .

وقد أثبت أنوليتمان أن نطق الجيم الأصلى كان كما هو عليه الآن فى القاهرة . وقدم أدلة على ذلك من الكتب والنقوش اليونانية التى ذكرت فيها أسماء عربية ، ومن نقش وجد فى «أم الجمال» ببادية الشام مكتوب بحروف نبطية ، ومن المقارنات السامية المتعددة . أما نطقها مع التعطيش فكان نطق القرشيين فى زمان النبى[٢] ، وصار نطق القرآن الكريم .

وقيل إن نظام أصوات العلة الإضافية المستعملة فى عربية مصر اليوم إنما هو نتيجة لنفوذ اللغة القبطية ، فقد حدث نتيجة لغنى التعبيرات القبطية بأصوات العلة – ولا سيما الأخيرة – أن أصبح المصريون حين يتكلمون العربية يدخلون فى كلامهم أصوات علة مساعدة أو مختلسة فى حالة اجتماع عدد من حروف

---

(١) دراسة الصوت اللغوى ص ٢٨٩ ، The Coptic Influence ص ٦٥ – ٦٧ .

(٢) بقايا اللهجات العربية – بحث بمجلة كلية الآداب – جامعة فؤاد الأول مايو سنة ١٩٤٨ . ص ٦ ، ٢ .

السواكن وذلك فى جملة مثل شغل مين دا ؟ التى تنطق Shughl (i) Min da ? [١] وفى رأينا أن هذا التفسير لهذه الظاهرة خاطىء فإن ما حدث كان مجرد جلب حركة صغيرة أو نصف حركة للتخلص من التقاء السواكن نتيجة لإلغاء ظاهرة الإعراب فى لغة الحديث . أو بعبارة أخرى للتخلص من وقوع المقطع س ع س س [٢] وسطا حيث إن وقوعه مقيد بكونه المقطع الأخير [٣] . وبذلك تحولت الجملة من س ع س س / س ع ع س / س ع إلى س ع س / س ع / س ع ع س / س ع . وهكذا نرى عدم وجود أى أثر قبطى فى ذلك وإنما هو تغيير لموافقة طبيعة اللغة العربية .

وهناك أمثلة أخرى يحتمل اشتمالها على نماذج للتأثير الصوتى للغة القبطية على عربية مصر قد حدثت بعد دراسة مقارنة لأصوات اللغة القبطية والعربية الفصحى والمصرية الدارجة . وقد وجد أن من الخصائص الصوتية التى توجد فى القبطية والمصرية الدارجة دون العربية الفصحى ما يأتى :

(أ) استعمال الفونيم[٤] P . = پ .

(ب) تسهيل صوت العين .

(جـ) عدم وجود الصوت ث[٥] .

(د) إبدال العلة المركبة علة طويلة .

---

(١) Prince ص ٢٩٦ .

(٢) س = ساكن Consonant و ع = علة Vowel .

(٣) انظر Mitchell فى : Prominence ص ٣٧١، ٣٧٥، و د. أيوب فى التطور اللغوى ص ٨٩ .

(٤) كلمة فونيم Phoneme مصطلح يراد به الوحدة الصوتية المستقلة التى قد تضم صوتا واحدا أو عدة أصوات متشابهة يتوقف استعمال كل منها فى الغالب على موقعه فى الكلمة وعلى الأصوات المجاورة له .

(٥) بشاى : Notes وصبحى : قواعد اللغة المصرية ص ١٦ .

ولكن الظاهرة الأولى ليس مردها اللغة القبطية بدليل اختفاء التفريق بين الرمزين ب و پ في القبطية ونطقهما كما تنطق الباء العربية فى المصرية القديمة أى قبل تكوين اللغة القبطية [١] . وقد لاحظ ولسن بشاى أن الكلمات القبطية المشتملة على پ قد حولتها عامية مصر حين اقترضتها من القبطية إما باء كما فى پشاى التى صارت بشاى (علم) ، أو فاء كما فى منپلوط التى صارت منفلوط . كما لاحظ أن پ لاتقع فى عامية مصر إلا فى الكلمات المقترضة حديثا من لغة أوربية مثل «پيانو» ، و «پيجامه» . (The Coptic Influence ص ٦٤ و ٦٥) . ولهذا فنحن نرى معه أنها ظاهرة حديثة النشأة ، ولم تكن موجودة فى الفترة التى ندرسها وأنها دخلت عربية مصر مع النفوذ الأوربى الحديث .

وأما الظاهرة الثانية فنرى أنها – من ناحية – تطور حديث يلى فترة الصراع بين القبطية والعربية ، ومن ناحية أخرى نتيجة التسهيل بإبدال الصوت الساكن الحلقى إلى صوت لين مماثل . أما أنها تطور حديث فلغيابها فى جميع وثائق البردى التى بين أيدينا . وعلى ما حققه البروفسر جروهمان فإن الصيغة العددية التى كانت مستعملة فى الوثائق هى حد عشر وخمستعشر وستعشر [٢] ... وأما أنها نتيجة التسهيل إلى صوت لين مماثل فإن من الثابت صوتيا وجود علاقة بين صوت الحلق والفتحة . وفى ذلك يقول الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس : «إن أصوات الحلق تناسب فى الغالب وضعا خاصا للسان يتفق مع ما نعرفه من وضعه فى الفتحة [٣] » . وما الألف فى حداشر وخمستاشر إلا فتحة طويلة . ويفسر الأستاذ الدكتور عبدالرحمن أيوب هذه الظاهرة قائلا : «أما العين فالظاهر

---

(١) صبحى : قواعد اللغة المصرية ص ١٨ ، و Common words ص ٢٣ .

(٢) From the World ص ٩٦ .

(٣) من أسرار اللغة ص ٣٢

أن المصرية تميل إلى التخفيف من درجة احتكاكها وذلك بجعل فتحة مخرجها فى الحنجرة أكثر رخاوة واتساعا . وتكاد تكون العين القاهرية تقارب الحركة لهذا السبب[1] » .

وأما اختفاء الصوت (ث) من لغة الحديث فواضح -من وثائق البردى- أنه موغل فى القدم ، وأنه تحول تم فى القرون الأولى . ومع ذلك فلم يكن نتيجة تأثير قبطى وإنما نتيجة التخفف من الأصوات العسيرة فى النطق كما حدث بالنسبة للصوت (ظ) الذى حل محله (ض) فى مثل «احفض» (وثيقة مؤرخة ١٠١ هـ) و (ذ) التى صارت (د) ونحو ذلك ، أو هو لهجة عربية كما سنتحدث فيما بعد .

على أن وجود الصوت ث أو عدم وجوده فى اللغة المصرية القديمة أمر مختلف فيه . فقد أثبته البروفسر Plumley كصوت مستعمل فى اللهجة القبطية الصعيدية حين ذكر أن الرمز ϕ ينطق th فى حين أن الدكتور جورجى صبحى لم يثبته من بين أصوات القبطية حين ذكر أن هذا الرمز ينطق إما تاء أو طاء .

وأما إبدال العلة المركبة علة طويلة كما فى «يُوم» و «لُون» و «كُوم» فقد نفى ولسن بشاى التأثير القبطى فيه قائلا : «إن تحويل aw إلى ō موجود فى اللغات السامية وسائر اللهجات العربية أيضا ، ومثل هذا ينطبق على ey التى تصير ē مثل طِير وخِير.. وخلص من ذلك إلى القول بأن وجود ō (أو ē) فى المصرية من الأفضل تفسيره بأنه نتيجة تغير داخلى لانفوذ قبطى (The Coptic Influence ص ٦٨ -٧٠) .

---

(١) التطور اللغوى ص ٧١ . وقد انتهى ولسن بشاى إلى ما انتهينا إليه فقال : «إن المقارنة مع اللغات السامية الأخرى واللهجات العربية تظهر أن العين فيها تتجه إلى التسهيل والإضعاف الذى يؤدى إلى الاختفاء . وقد ظهر هذا فى الأكادية فى وقت مبكر ، وفى بعض اللهجات الحجازية . وعلى هذا فمن الأقرب تفسير اختفاء العين أو تسهيلها تفسيرا داخليا دون الاتجاه إلى مؤثر خارجى (The Coptic Influence ص ٦٨)

والنتيجة التى ننتهى إليها هى أن تأثير اللغة القبطية على عربية مصر فى مجال الأصوات معدوم تماما فى لهجة القاهرة ، وإن كنا لاننكر احتمال وجود بعض التأثيرات فى نطق أبناء الصعيد بخاصة ولكن بدرجة محدودة جدا (١) .

ومن المناسب أن نشير فى ختام هذا الحديث إلى حقيقة هامة تتعلق بالمخطوطة العربية التى كتبت بحروف قبطية . فقد كنا نتوقع أن يظهر فيها تأثير الأبجدية القبطية على الأصوات العربية بأن تختفى الأصوات العربية التى لايمكن تمثيلها برموز قبطية ، ولكن لم يحدث هذا ، إذ رأى الكاتب أن يمثل الصوت العربى برمز قبطى يمثل أقرب الأصوات إليه ، ثم يضع الرمز العربى أو جزءا منه فوق الرمز القبطى . فعل ذلك مع صوت القاف إذ كتبه k ووضع فوقه الرمز ق . وفعل ذلك مع أصوات الحلق الثلاثة الهاء والحاء والعين فكان يمثلها بالرمز القبطى ϩ ، ثم للتعبير عن الهاء يدعه كما هو ، وللتعبير عن الحاء يضع الرمز ح فوقه وللتعبير عن العين يضع الرمز عـ (رأس عين) فوقه ... وهكذا .

---

(١) مثل تفخيم الأصوات الطبقية قبل الكسرة وهو ملمح يميز عربية الصعيد عن غيرها (انظر Bishai فى The Coptic Influence ص ٧٠ و ٧١) .

(ب) التأثير النحوى والصرفى[١] .

لايوجد نفوذ قبطى على جانبى النحو والصرف فى لغة الكتابة بشقيها ، ونعنى بالنفوذ القبطى انتقال قاعدة نحوية أو نظام صرفى معين إلى لغة الكتابة العربية ، وقبول الكتاب لهذا التعبير الجديد واعتباره الأصل والقاعدة . وكل ما نجده – نتيجة لاختلاف نظام الجملة وقواعد النحو بين اللغتين – أخطاء كثيرة فى بعض المخطوطات العربية القبطية يرجع معظمها إلى الترجمة الحرفية من القبطية على أيدى أناس لايجيدون اللغة العربية . وأبرز خطأ ظهر فى هذه المخطوطات تذكير الكلمات وتأنيثها . فقد عولجت بعض الكلمات المذكرة على أنها مؤنثة إذا حدث أن كانت كذلك فى القبطية ، وكذا العكس . ومثال ذلك كلمة الأرض التى هى مؤنثة فى العربية ومذكرة فى القبطية ، وقد عوملت معاملة المذكر فى بعض المخطوطات العربية التى كتبها مؤلفون أقباط . ويوجد كذلك كلمتان فى القبطية للتعبير عن «الليلة» واحدة مذكرة والأخرى مؤنثة . ولكننا نجد الكلمة العربية «الليلة» تعامل معاملة المذكر فى بعض المخطوطات القبطية ربما حينما شاع استعمال الكلمة القبطية المذكرة . ومن أبرز الأخطاء كذلك استعمال المفرد بدل الجمع فى تمييز العدد فى نحو «تسعة دينار» (بدلا من دنانير) «وأربعة ألف» بدلا

---

(١) استعارة الظواهر النحوية قضية خلافية بين المحدثين من اللغويين ، فينكر Whiteney إمكان هذا ويقول «لم يتعرف دارسو اللغات قط على تلك اللغة التى تتضمن مزيجا من القواعد النحوية ، وتبدو هذه اللغة بالنسبة لهم مخلوقا عجيبا ، بل هى أحد المستحيلات» . وينادى دى لاسى أو ليرى بنفس الرأى إذ يقول : «لاتوجد لغة بقواعد نحوية مختلطة» أما يسبرسن فيرى أن فى هذا القول شيئا من المغالاة والإسراف . ويضرب عدة أمثلة على تأثر اللغات بعضها ببعض فى هذه الناحية . ومما يؤيد هذا الرأى ما نعرفه فى الصلة بين العربية والفارسية حين استعارت الفارسية طريقة الجمع العربية وجمعت عليها بعض الكلمات الفارسية . هذا إلى أن نظام الجملة فى العصر الحديث قد تأثر إلى حد ما ببعض الأساليب الأجنبية ، ولا سيما فى أسلوب الكتاب المعاصرين الذين تأثروا بالثقافة الأوربية (انظر على وجه الخصوص «من أسرار اللغة» ص ٩٥ وما بعدها) .

من (أربعة آلاف) ، (مراد كامل : حضارة مصر ص ٧١) . ولكن – مرة أخرى – لايعد هذا ونحوه نفوذا قبطيا إذ ظل الناس ينظرون إليه على أنه لحن أو خطأ ، ولم يكتب له حظ القبول والشيوع بين عامة الكتاب . نعم هناك أمثلة كثيرة فى لغة الكتابة يتضح فيها أثر الأجنبى فى استعمال اللغة ولكنها كلها يمكن أن ترد إلى عامل الميل الطبيعى إلى التيسير الذى سنتحدث عنه فيما بعد ، وليس فيها أى أثر لنفوذ قبطى بخاصة .

أما فى لغة الحديث فربما كان الأمر على خلاف ذلك ، وهناك – على الأقل – ادعاءات بوجود هذا النفوذ . وسنحاول الآن أن نستعرض الخصائص الغريبة التى تبدو فى عربية مصر لنرى هل تعكس نفوذا قبطيا أولا :

(أ) استعمال «ما» كسابقة prefix تفيد الأمر مثل : ما تكتب (اكتب) .

(ب) استعمال «آ» بالإضافة إلى ضمير الشخص كسابقة مع الفعل الماضى مثل : أهو سمع .

(جـ) استعمال اسم الإشارة «دا» فى وظيفة معينة فى الجمل غير الفعلية مثل : دا أنا الملك .

(د) تأخير أداة الاستفهام إذا كانت معمولا مثل : رحت فين ؟

(هـ) استعمال الصفة متبوعة بحرف الجر «عن» بدلا من صيغة التفضيل العربية العادية مثل : هو كبير عنى فى مقابل هو أكبر منى .

(و) إلغاء ضمير المثنى واستعمال ضمير الجمع للمثنى والجمع كليهما مثل : الولدين رجعوا .

(ز) حذف حرف العطف فى العدد مثل مية خمسة وعشرين بدلا من مائة وخمسة وعشرون .

(ح) تأخير اسم الإشارة عن المشار إليه مثل : الود ده فى مقابل : هذا الولد .

أما الظاهرة الأولى فقد ذكرها الدكتور بشاى قائلا : إن استعمال «ما» مع المضارع للدلالة على الأمر لايمكن أن يرد إلى اللغة الفصحى ، كما لايمكن أن يرد إلى أى استعمال ساميّ أو أى لهجة عربية . ومعنى هذا أنه من الصعب رد هذا الاستعمال الخاص لعربية مصر – رده لعامل التغيير الداخلى ، فتكون القبطية هى أقرب المؤثرات على عربية مصر فى هذا الاستعمال [١] . وما ذكره الدكتور بشاى لايصلح أن يكون دليلا أو شبه دليل على النفوذ القبطى . ولايكفى فى نظرنا أن نجد ظاهرة غريبة فى عربية مصر لنسارع فننسبها إلى النفوذ القبطى . وأى قبطية فى «ما» ؟ وأى قبطية فى «تكتب» ؟ أما التركيب نفسه فيبدو أنه هو التركيب العربى المكون من «ما» النافية والفعل المضارع ، ويكون النفى قد خرج هنا عن معناه الحقيقى إلى معنى آخر هو الاستنكار أو التوبيخ المدلول عليه بالتنغيم المعين للجملة ، فكأن الجملة تعنى : لماذا لاتكتب ؟ ومفهوم هذا طلب الكتابة ، وهو ما يؤديه التركيب «ما تكتب» . وربما كان أقرب إلى القبول أن نقول إن «ما» أداة استفتاح وهى «أمَا» ، ولكن على عادة السرعة والاختصار فى الكلام قالوا «ما تكتب» وربما زاد الاختصار عن ذلك فقيل «متكتب» .

بل أكثر من هذا ذكر Heikki Palva أن نفس الاستعمال موجود فى عربية فلسطين (ولكن انت بتتعب لمين . ما يتعب أبو العيال) وفى عربية دمشق ، بل وفى عربيات أخرى غير متاخمة كما فى عربية بغداد (لاكْ ما تقوللى انت عملت إيش). وعلى الجانب الآخر ذكر أنه استعمال غير شائع فى القبطية وأنه يوجد إلى جانبه صيغتان أخريان ، ومن غير المعقول أن نعتبر هذا التعبير الشائع جدا فى مصر

---

(١) The Coptic Influemce ص ٨٦ .

قد وقع تحت نفوذ استعمال قبطي قليل الشيوع ، والأقرب أن يكون وجوده نتيجة تطور داخلى (انظر Notes ص ١٣٠ – ١٣٤) .

وحتى على فرض جهلنا بأصله العربى فليس معنى ذلك الحكم بقبطيته . وما أكثر ما احتوت اللغة العربية على لهجات قديمة عرفنا أقلها وجهلنا معظمها . وما أكثر ما أغفل القدماء تسجيله من اللهجات العربية لسبب أو لآخر . وقد كان كثير من هذه القبائل المتروكة لهجاتها من بين القبائل التى هاجرت إلى مصر واستوطنتها كما سنفصل الحديث فيما بعد .

وأما الظاهرة الثانية فقد ذكرها الدكتور بشاى كذلك قائلا : لانظير لهذا الاستعمال فى أى لهجة عربية أخرى ، ولا يبدو أنه نتيجة تأثير أوربى ، أو نتيجة تطور داخلى حيث لايوجد شىء مماثل لذلك فى الساميات أيضا . وعلى هذا تصبح القبطية هى المصدر الوحيد لهذا الاستعمال الخاص بعربية مصر ، وتكون المصرية – فى هذه الحالة – قد اقترضت السابقة «أ» بوظيفتها النحوية ثم ربطتها بالجذر العربى (١) .

وقد تصدى Heikki Palva لتفنيد دعوى بشاى قائلا :

١– أقرب التفسيرات العلمية هو أن الأقباط الذين صاروا ثنائيى اللغة قد تعرفوا على التركيب العربى المماثل للنموذج القبطى (أ + ضمير + فعل) وبدأوا استعمال التركيب العربى بعد ذلك على ضوء النموذج القبطى .

(٢) إقحام الهمزة ظاهرة شائعة فى عامية مصر (أهو ده المطلوب – هنا أهو الكتاب ..) ، وهذه الهمزة لايمكن إلا أن تكون تنوعا من اسم الإشارة السامى المقحم ha ← a .

---

(١) السابق ص ٩٠ .

٣- أن هذه الهمزة فى عامية مصر لاتستعمل إلا مع ضمير الغائب فى حين أنها فى القبطية تسبق كل الضمائر .

٤- أن هذه الهمزة فى عامية مصر لاترتبط بالفعل الماضى فقط بخلاف القبطية.

٥- هناك نموذج جزائرى يقرب من النموذج المصرى حيث تستعمل «أو» أو «أم» إلى جانب «هاهو» و«هاهى» ... وتأتى فى بداية جمل مثل (هاهى بنتك ، آم والديكم ..) كما تأتى مع الماضى ويغلب حينئذ استعمال ضمير الغيبة . وهذه الحالة تظهر حالة وسطا للتطور الذى أدى إلى الصورة المصرية . والنموذج الجزائرى لايمكن رده إلى التأثير القبطى .

٦- من الواضح - بعد هذا - أنه من الضرورى اعتبار هذه الظاهرة نتيجة تطور داخلى للغة العربية سواء فى مصر أو الجزائر (١) .

وأما الظاهرة الثالثة فقد ذكرها الدكتور «بشاى» ومن قبله «ليتمان» . والتعبير فى رأينا تبدو فيه الروح العربية الصرفة . إنه يبدو وكأنه صورة أخرى للتعبير «إنه أنا الله» الموجود فى القرآن الكريم . فكأن «دا» هنا حلت محل «إن» و«ضمير الشأن» . وكأن القائل «دا أنا الملك» يعنى ما يعنيه قائل التعبير العربى : «إنه أنا الملك» . ثم لامعنى لقول بشاى إن هذا التعبير يستعمل فى الجمل غير الفعلية ، فهو موجود فى الفعلية كذلك . فكلنا نقول : دا أنا قمت ، دا أنا كتبت ... إلخ . وهذا التعبير - بعد هذا - موجود - كما حقق دى لاسى أو ليرى وغيره - فى عربية سورية وفى اللغة المالطية وغيرهما (٢) .

---

(١) Notes ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

(٢) وانظر The Coptic Influence ص ٨٤ .

أما الظاهرة الرابعة فقد كثر القيل والقال فيها واعتبرها الدكتور «بشاى» تغييرا جوهريا فى اللغة المصرية الدارجة نتيجة نفوذ قبطى . وقد سبقه إلى هذا الرأى Stern و Praetorius و Littmann . وفى رأينا أن الباحثين الاربعة لم يحالفهم التوفيق وأن القضية كالآتى :

١- أن هذه الظاهرة موجودة فى عربية سورية ، فهم يقولون الكتاب منين ؟ .

٢- هناك أمثلة وردت لهذا التأخير فى العربية الفصحى . وإذا كان النحاة قد أولوا بعضها بما سموه بالتعليق وهو إبطال عمل العامل لفظا لا تقديرا فهذا لاينفى وجود الاستعمال . ومن الأمثلة الواضحة التى لايمكن ردها ما روى من أن مؤذنا سُمع يقول : أشهد أن محمداً رسولَ الله ، فقال له أعرابى : ويحك ! يفعل ماذا ؟[1] .

٣- أن تأخير أداة الاستفهام ليس القاعدة فى القبطية ، فقد ورد فى المقدمة المسماة بالكفاية فى نحو اللغة القبطية للشيخ الوجيه القليوبى (وهى من كتب القواعد القبطية المعتمدة ومؤلفها من أوائل من كتبوا فى نحو القبطية ، وهو من علماء القرن الثالث عشر الميلادى) أن «أين» تقع قبل الكلام وبعده (ص ٣٥) وأن «متى» لاتاتى إلا مع فعل قبلها أو بعدها (ص ٣٦) . كما ذكر أحكام «من» إذا تلتها نكرة أو معرفة (ص ٣٤) وذكر أن «كيف» يحسن أن يقع بعدها فعل (ص ٣٥) . وذكر الدكتور عبدالمحسن بكير فى كتابه «قواعد اللغة المصرية فى عصرها الذهبى» أن «من» و «ما» لهما الصدارة (ص٣٧ و ٣٨) .

---

(١) البحث اللغوى عند العرب ص ٨٦ .

٤- أن القاعدة فى العامية المصرية ليست تأخير أداة الاستفهام ، فنحن نقول : فين أخوك ؟ وأخوك فين ؟ كما نقول : منين جيت ؟ وجيت منين ؟ .

٥- أن بعض الأمثلة التى تؤخر فيها الأداة مرجعه إعادة تنظيم الجملة وتغيير هندستها نتيجة للتخلص من الإعراب . وأضرب لذلك المثال الآتى :

لنأخذ الجملة الفصحى : قابل محمد عليا . يمكننا أن نسأل عن المفعول فنقول : من قابل محمد ؟ وعن الفاعل فنقول من قابل عليا ؟ والفرق واضح بين الجملتين نظرا لوجود الإعراب . فإذا حولنا هاتين الجملتين إلى العامية المصرية فقلنا : مين قابل محمد ومين قابل على لم يكن هناك دليل على وظيفة كل كلمة فى الجملة . ولهذا استعاضت العامية عن الإعراب بالموقعية فخصت مين قابل على ؟ حين تكون «مين» فى موقع الفاعل ومحمد قابل مين حين تكون «مين» فى موقع المفعول . وهكذا يتضح غياب النفوذ القبطى فى هذه الظاهرة .

أما الظاهرة الخامسة فقد أشار إليها «ليتمان» ، واعتبرها نتيجة نفوذ قبطى، وأشار إليها «بشاى» ولكنه تشكك فى كونها نتيجة نفوذ قبطى . ومن المعروف أن اللغة المصرية القديمة ليس فيها صيغة خاصة بالتفضيل النسبى أو التفضيل المطلق . ويعبر عن التفضيل النسبى بحرف الجر الذى يسبق الاسم المفضل عليه[1] .

ولكن مرة أخرى ليس هناك أى دليل قد يشتم منه إرجاع هذه الظاهرة فى العامية المصرية إلى أصل قبطى . والأمر فى رأينا يحتاج إلى التفصيل الآتى :

---

(١) دكتور بكير : قواعد اللغة المصرية ص ٤٠ و ٤١ .

١- تعبر العامية المصرية عن التفضيل بوسيلتين ، هما : أفعل + من ، أو الصفة + عن . ويبدو أن الاتجاه أول الأمر كان نحو إيثار الصيغة الأولى ، كما يبدو من مخطوطات القرن الرابع عشر المكتوبة بحروف قبطية حيث جاء فيها «صار أردا من الكل» ثم تحول الاتجاه رويدا رويدا إلى الصيغة الثانية . ولايمكننا أن نقطع برأى حول أيهما أكثر شيوعا فى الاستعمال الحديث ، فإنه يفهم من كلام دى لاسى أوليرى أن الصيغة الثانية أكثر شيوعا ، ويفهم من كلام Galtier أن الصيغة الأولى أكثر شيوعا .

٢- ذكر Galtier أن هذا الاستعمال موجود فى العربية الفصحى كذلك ، وأن من المحتمل أن يكون معنى التفضيل فيه قد جاء من معنى «عن»[١] .

٣- استعمال الصفة + حرف الجر له نظير فى اللغة العبرية ، تلك اللغة التى تكشف أحيانا عن خصائص تتفق مع اللغة العربية المصرية الدارجة . ومن أجل هذا افترض دى لاسى أوليرى أن صيغة «أفعل من» قد تكون أحدث فى الاستعمال من الصفة + عن . ومعنى هذا أن التعبير الثانى كان مستعملا فى القديم ، وظل محتفظا به فى العبرية ، كما احتفظت به بعض اللهجات العربية ، واستمر فى شكل بقايا فى اللهجات العربية الحديثة .

٤- ذكر الدكتور عبدالمحسن بكير أن هذا الاستعمال مطرد كذلك فى السريانية والأكادية وكلاهما سامى .

٥- ذكر دى لاسى أوليرى أن استعمالا مماثلا موجود فى لهجات أخرى حيث لايوجد نفوذ قبطى ففى مراكش يستعملون الصفة + على ، وفى عُمان يستعملون أفعل + عن .

---

(١) The Coptic Influence ص ٨٧ .

٦- ذكر Galtier أن هذا الاستعمال موجود فى التركية وغيرها .

وأما الظاهرة السادسة فلم يشر إليها أحد ، ولكنها قد ترد على البال نتيجة لما نعرفه عن اللغة القبطية من استعمالها ضميرا واحدا للمثنى والجمع[1] . ولكن هذه الظاهرة هى الأخرى عربية أصيلة ، واستخدام ضمير الجمع للمثنى معروف عند العرب قديما ، وورد فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى : «هذان خصمان اختصموا» .

وأما الظاهرة السابعة فقد لفت نظرى إليها ما وجدته فى أوراق البردى من حذف واو العطف فى جملة نحو «مئة ستة وأربعين درهم» مع ما ذكره الدكتور عبدالمحسن بكير من أنه لاتوجد أداة عطف فى اللغة المصرية القديمة ، بل تأتى الكلمات المعطوفة بعضها يتلو البعض الآخر (ص ١٧) . ولكن يغلب على الظن أن هذا الحذف كان بقصد التخفف من تكرار الواوات وأن هدفه هو التيسير وتوفير الجهد .

وأما الظاهرة الثامنة ، فقد لفت النظر إليها أنها خاصة من خواص المصرية العربية من بين سائر اللهجات كما صرح دى لاسى أوليرى . ولايمكن أخذ أى نتيجة من الصيغة «دا» لأنها موجودة فى «عُمان» وشمالى إفريقية (ماعدا تونس) وغيرها . وقد صرح سيبويه نفسه بأن الهاء ليست جزءا من اسم الإشارة وأنها حرف تنبيه . ولكن موقع اسم الإشارة هو المهم فى هذا المقام ، فمن المعروف أن المصرية القديمة تضع اسم الإشارة بعد الاسم[2] . (أما فى

---

(١) المقدمة للقليوبى ص ٢٥ و ٢٦ ، ومقدمة ابن الدهيرى ص ٩٣ .

(٢) دى لاسى Notes ص ٢٥٣ .

القبطية فاسم الإشارة يسبق الاسم) ، فهل أثر هذا على وضعه فى عامية مصر ؟ مع وجود هذا الاحتمال فإننا نرى أن هذا تطور داخلى بحت لا أثر فيه للعامل الخارجى أو الأجنبى . وقد ذكر الدكتور عبدالمجيد عابدين أن اسم الإشارة يأتى للتبعية الوصفية بعد المشار إليه فى لهجة السودان كذلك ، فيقال : الراجل دا ، وقد يتقدم على المشار إليه . ومن الأمثلة التى احتفظت فيها عامية مصر بموضع اسم الإشارة قبل المشار إليه قولهم : «دلوقت» التى تتركب من اسم الإشارة + كلمة الوقت . وفى رأيى أن وضع اسم الإشارة بعد المشار إليه قصد به التيسير وتجنب التشعبيات الموجودة فى اللغة الفصحى . انظر مثلا الجملة : أخوك هذا ... فى الفصحى حيث لايصح أن يتقدم اسم الإشارة فيها فيقال هذا أخوك ... ، والجملة هذا الأخ ... حيث يتقدم اسم الإشارة . أما فى العامية فيقال فيهما كليهما : أخوك ده ... والأخ ده ... بتوحيد مكان اسم الإشارة بدون نظر إلى نوع المشار إليه .

ونخلص من كل هذا إلى أنه ليس هناك دليل أو شبه دليل على وجود أثر قبطى فى مسائل النحو والصرف . وكل ما هنالك قد يكون مجرد شبهات أو احتمالات ليس جانب الإيجاب فيها أقوى من جانب السلب .

(جـ) التأثير فى مجال المفردات

لايستطيع أحد أن ينكر أثر القبطية على عربية مصر فى مجال المفردات ، ولكن شقة الخلاف واسعة بين الدارسين حول تقير مداه . وفى رأينا أنه ينبغى أن يفحص على حدة كل مستوى من مستويات اللغة الثلاثة التى سبق أن أشرنا إليها، لأن آثار هذا العامل تختلف من مستوى إلى مستوى .

فإذا نظرنا إلى المستوى الأول ، وهو المستوى الأدبى وجدنا أثر هذا العامل ضعيفا جدا لايتجاوز بضع كلمات دخلت لغة الكتابة ، وأصبحت تتردد فى أساليب المثقفين والمتخصصين . وقد حالف الحظ بعض هذه الكلمات فاقتحمت اللغة الفصحى المشتركة ولم تعد ينظر إليها على أنها خاصة مصرية أو لفظة محلية . ومن أمثلة ذلك :

١- كلمة «تليس» التى تعنى زكيبة أو كيسا كبيرا ، وقد وردت فى كتاب «المكافأة» لابن الداية . ويبدو أن هذه الكلمة قد أصابها التعريب فاعتبرت عربية ، بدليل أننا لانجد إشارة إلى أصلها القبطى فى كتب اللغة . وقد فسرها ابن منظور تفسيرا مختلفا إذ قال فى لسان العرب : «التليسة وعاء يسوى من الخوص شبه قفعة وهى شبه العيبة التى تكون عند العصارين» وقال الزبيدى فى تاج العروس إنها تستعمل كذلك بمعنى كيس الحساب يوضع فيه الورق ونحوه . وقد أشار إلى الأصل القبطى لهذه الكلمة العلامة القبطى أقلوديوس لبيب فى كتابه «مجموعة الألفاظ القبطية المتداولة باللهجة العربية العامية» ، والبحاثة القبطى جرجس فليوثاوس عوض وشرحها بأنها الزكيبة التى توضع فيها الحبوب وتحتوى على اثنتى عشر كيلة وصارت الآن اسما عاما للزكيبة . كما ذكرها الدكتور صبحى فى كتابه
Common words in the spoken Arabic of Egypt of Greek or Coptic Origin .

٢- كلمة «طوبة» التى استعملها عمر بن الخطاب فى قوله «ولاتدخلن القبر خشبة ولا طوبة» ، واضطربت المعاجم العربية فى بيان أصلها الأجنبى ، فقيل هى شامية وقيل رومية وقيل إنها جاء بلغة أهل مصر . وقد ذكر ابن منظور كذلك أن الشافعى قد استعملها ، وكلنا نعرف أن الشافعى أمضى فترة طويلة من عمره فى مصر وألف بها بعض كتبه ، أو أعاد كتابتها . وقد ذكر أصلها القبطى الدكتور جورجى صبحى ، واعتبرها الدكتور بشاى من الكلمات المقطوع بأصلها القبطى [١] .

٣- هذا بالإضافة إلى أسماء الأعلام على اختلاف أنواعها .

* * *

أما المستوى الثانى وهو مستوى الكتابة لغير المتخصصين أو المستوى نصف الأدبى فتتردد فيه بكثرة نسبية الألفاظ الأجنبية ذات الأصل القبطى ، وأحيانا اليونانى أو اللاتينى . وسبب ذلك واضح ، وهو أن معظم صغار الموظفين فى تلك الفترة - وبخاصة فى جزئها المبكر - كانوا يحملون أسماء قبطية مثل مينا بن شنودة وسويرس بن زكريا ، مما يعنى أنهم لم يكونوا مسلمين ، وأنهم من تلك الفئة التى تعلمت اللغة العربية لتحتفظ بمناصبها أو لتنفتح أمامها أبواب الرزق . ومعنى هذا أن لغتهم العربية ليست خالصة ، وأن معجمهم اللغوى ولا شك متأثر بلغتهم الأصلية .

وإن نفوذ اللغة القبطية فى هذا المستوى قد بدا فى شكل الاحتفاظ بأسماء الشهور القبطية حتى ولو كان العام مكتوبا بالتاريخ الهجرى مثل «هاتور من عدد القبطية سنة ٢٧٣ هجرية» ، و «توت من سنة ٢٣٣ هجرية» . ومن الطريف أننا

---

(١) The Coptic Influence ص ١١٤ .

نجد بعض الناس - فى ذلك الوقت - يحملون اسمين أحدهما عربى والآخر قبطى مثل «أنها اعتقت صفراء بالعربية ، واسمها بالقبطية دجاشة ابنة أرينة» . ومن الكلمات القبطية التى وردت فى وثائق البردى :

١- كلمة «بقط» بمعنى عقد إيجار .

٢- وكلمة «حالوم» نوع معين من الجبن .

٣- هذا إلى جانب أسماء الأعلام بمختلف أنواعها .

* * *

أما المستوى الثالث وهو مستوى الخطاب أو لغة الحديث العادى ، فعلى الرغم مما يتوقع من قوة النفوذ القبطى عليه فإن النتائج النهائية تقضى بغير ذلك . نعم إن نفوذ القبطية فى هذا المستوى أكثر منه بكثير من المستويين السابقين ، ولكنه - مع ذلك - محدود ، وكثير من آثاره محصورة فى مناطق ضيقة أو أماكن نائية ، وبخاصة فى الصعيد . ولذا فهى غير معروفة لكثير من المصريين . وإذا نحن قمنا بتصنيف لهذه الكلمات الأجنبية التى يرجع كثير منها إلى أصل قبطى وجدنا معظمها يندرج تحت الرؤوس الآتية :

١- كلمات خاصة بالكنيسة وبالطقوس الدينية وحياة الرهبنة مثل أنبا وأسقف وبطريق وبطريرك وأبرشية (ولاية الأسقف ورعيته) . ولكن معظم كلمات هذا النوع مقترض من اليونانية ، ولا يمكننا أن نقطع أكان انتقال هذه الكلمات إلى اللغة العربية ثم فى مصر أم فى سورية .

٢- كلمات تدل على أنواع من الطعام غير معروفة عند العرب مثل «بصارة» ، للدلالة على الطبق الشعبى المعروف . وهى فى القبطية مركبة من كلمتين ، ومعناها الفول المصرى المطبوخ ، وفول «مدمس» إذا نحن قبلنا أن أصلها قبطى ، وعيش «بتاو» ، وجبنة «حالوم» ...

٣– أسماء لأنواع من السمك أو الحيوانات المصرية مثل «ملوحة» ، و «بورى» ، و«شلبة» ، و «أنومة» ، و «تمساح» ، و «بس» المستعملة لزجر القطة ومعناها في المصرية القديمة القط .

٤– أسماء نباتات أو آنية أو مكاييل معينة كانت مستعملة في مصر مثل «برسيم»، و «سريس» ، و «شكوريا» ، و «سنط» ، و «بلح أمهات» ، و «بلاص» ، و«ماجور» ، و «إردب» ، و «ويبة» ، و «مترد» للوعاء الذى يوضع فيه اللبن وقت حلبه ، ومعناه بالقبطية محل اللبن [1] .

٥– أسماء أمراض أو وصفات بلدية مثل كلمة «شوطة» [2] التي تستعمل للدلالة على الوباء ، و «سنطة» التي تستعمل للدلالة على الورم الصغير الذى إذا قطع أدمى ثم نما ثانية ، وكلمة «واوا» التي تستعمل مع الأطفال للدلالة على ألم أو جرح أو حرق .

٦– كلمات تستعمل في القرى النائية وغير معروفة على المستوى العام مثل هُنْيَة بمعنى شيء .

٧– أسماء الأعلام مثل الشهور القبطية الشائع استعمالها حتى الآن في القرى المصرية ، وأسماء البلاد مثل صهرجت ، وسنهور ، وصفط ، وأرمنت ، وسمنود ... إلخ .

وأسماء الأعلام كثيرة جدا ، وإن كان من الصعب أن نعدها من الكلمات المقترضة أو ننسبها إلى لهجة عربية معينة . نعم هناك أسماء عامة مدرجة ضمن بعض أسماء المكان ، وما زالت مستعملة في عربية مصر مثل كلمة «باب» التي

---

(١) لايمكننا أن نجزم بالأصل القبطي لهذه الكلمة ، إذ هناك احتمال كبير أن تكون الكلمة عربية على ما سنفسره فيما بعد .

(٢) قد يقال بعربية هذه الكلمة وأنها من «الإشاطة» بمعنى الإهلاك والاحتراق ، وأن أصلها «شيطة» ثم حرفت إلى «شوطة» .

تعنى مقربة (ولا علاقة لها بالكلمة العربية باب) . وما زال المصريون يطلقون اسم «باب الملوك» على إحدى مقابر الملوك عند «طيبة» . ولكن حتى هذه من الصعب عدها كلمة مقترضة لأنها لم تعمم فى الاستعمال ، ولم تصبح فى عرف الناس مرادفة لكلمة «مقبرة» . ولا شك أن جمهور المتكلمين لايفطنون إلى معناها القديم فى القبطية .

٨- كلمات مبتذلة .

وهناك عدد آخر من الكلمات الشائعة فى عامية مصر ولها أصل قبطى مثل «سيجه» للعبة الشعبية المعرفة ، «وأول سنّو» للعبة شعبية أيضا ، وهى تعنى الحركة الأولى من الجولة الثانية وكلمة «سنو» مأخوذة من كلمة قبطية بمعنى اثنين [١] . و «ياباى» التى يستعملها الأطفال بخاصة حينما يرون ما يفزعهم ، ومعناها الحرفى فى القبطية «بومة» أو «غراب الليل» ، و «لبشة [٢] » قصب ، و «بخ» حينما يريدون تخويف شخص ومعناها فى القبطية «الشيطان» ، و «تف» بمعنى بصق [٣] ، وفجل «ورور» ، وطلع «بوش» [٤] ، و «بح» [٥] . بمعنى انتهى ، و«ممة [٦] » و «امبو» فى لغة الأطفال ، و «جاى» فى الاستغاثة أو الشكوى ،

---

(١) The Coptic Influence ص ٩٢ .

(٢) من الممكن أن تكون الكلمة عربية وأن تكون كما يرى أحمد عيسى مأخوذة من مادة «لبك» من قولهم رأيت لباكة من الناس أو لبيكة ، بمعنى جماعة ثم أبدلت الكاف شينا للخفة .

(٣) ربما كان الأقرب إلى الصواب كما ذكر أحمد عيسى القول بأن الكلمة ترجع إلى أصل فارسى أو تركى ، لأن «تف» و «تفو» كلمة تركية وفارسية بمعنى لعاب أو ريق . وربما كان أصلها سريانيا .

(٤) توجد فى الفارسية كلمة «بوچ» ومعناها فارغ أو خال أو أجوف . ولعل الكلمة العربية مأخوذة كما قال أحمد عيسى من هذا الأصل الفارسى ، وردها يشاى إلى أصل تركى .

(٥) فى السريانية توجد كلمة «بح» بمعنى نخر أو جف أو ذبل فمن المحتمل أن تكون «بح» العربية ذات أصل سريانى . وهناك احتمال آخر أن تكون الكلمة عربية كما سنفصل فى الفصل الرابع .

(٦) هناك احتمال قوى أن أصل هذه الكلمة تركى . ففى التركية يقال للأطفال «ممة» ومعناها الثدى . وربما كانت الكلمة حكاية صوت حركة الفم عند الأكل .

«وبقلولة» أو بقليلة» بمعنى فقاعة ، و «بقوطى» لوعاء صغير معين ، و «بشويش» وهى كلمة دعوة للترحيب أثناء حفل الزفاف الريفى ، و «حنطور» للعربة التى يجرها حصان ، و «شبورة» بمعنى ضباب ، و «شلّوت» بمعنى رفسة وغيرها [١] .

وموضوع تبادل المفردات بين اللغات أكثر مستويات اللغة شيوعا ، لأنه يتصل بتيار الثقافة والعادات أكثر من اتصاله بأصل اللغة وجوهرها . وكم من لغة عاشت وتعيش بمفردات أجنبية ومع ذلك تظل محتفظة بجنسها المميز ، مثل «الأردية» التى اشتقت مفردات كثيرة من العربية والفارسية ، ولكنها قطعا لهجة من اللغة الهندية ، ومثل اللغة المالطية التى تعرضت لتأثير إيطالى قوى فى مفرداتها ، ولكنها ما تزال ينظر إليها على أنها لهجة عربية .

ونحب قبل أن نختم هذا الفصل ، أن نتعرض بشىء من التفصيل للدعوى العريضة التى يكثر الدارسون الأقباط من ترديدها ، وهى إقراض القبطية عربية مصر بأمداد ضخمة من المفردات . ونقتبس أولا ما قاله الدكتور جورجى صبحى فى هذا الخصوص من مثل : «بفحص المفردات المستعملة فى عامية مصر يذهل الشخص لاكتشافه عددا كبيرا من الكلمات التى يمكن بسهولة أن ترد إلى أصل قديم أو قبطى» . وبعد أن ذكر قائمة طويلة من هذه الكلمات عقب بقوله «وهناك مئات أخرى من الكلمات الشائعة فى لهجة مصر التى لاتفهم فى سائر البلاد العربية ولم ترد فى المعاجم الكلاسيكية» . فهل هذا صحيح حقا ؟ وهل عامية مصر متأثرة بالمفردات القبطية إلى هذا الحد الكبير ؟ وهل الدكتور صبحى -وغيره- على حق فى القوائم الطويلة التى ذكروها بهذا الخصوص ؟ دعنا أولا

---

(١) وانظر The Coptic Influence ص ٩٤ وما بعدها .

نلقى نظرة فاحصة عليها ، ونبين رأينا فى بعض مفرداتها لفظا لفظا قبل أن نصدر حكمنا العام فى الموضوع . تتضمن قوائم الكلمات :

١– لبؤة : والكلمة ومادتها موجودتان فى المعاجم العربية ، وليس فيها إشارة إلى أصلها الأجنبى .

٢– مصطبة : والكلمة عربية صرف . قال الأزهرى : سمعت أعرابيا من بنى فزارة يقول لخادم له : ألا وارفع لى عن صعيد الأرض مصطبة أبيت عليها بالليل ، فرفع له من سهلة شبه دكان مربع ، قدر ذراع من الأرض ، يتقى بها من الهوام بالليل . قال وسمعت آخر من بنى حنظلة سماها المصطفّة بالفاء .

٣– عزْبة : والكلمة كذلك عربية لحما ودما . وهى وإن لم ترد بنصها فى كتب اللغة فقد وردت مادتها وهى تدور حول الزرع والكلأ والرعى . ومما جاء فى لسان العرب : أرض عزوبة : بعيدة المرعى – العازب من الكلأ : البعيد المطلب – المُعْزِب : طالب الكلأ – كلأ عازب : لم يُرع قط – أعزب القوم : إذا أصابوا كلأ عازبا – أعزب إبلَه وعزّب إبله : بيتها فى المرعى .

وهكذا تبدو من الاستعمالات المختلفة لهذه المادة عربية الكلمة «عزبة» ، وحتى استعمالها فى معنى قريب جدا مما ورد فى المعاجم .

٤– فتفت : وفى اللسان : فت الشىء دقه وقيل كسره بأصابعه . والفت أن تأخذ الشىء بإصبعك فتصيره فتاتا أى دقاقا . وكل ما فى الأمر استعمال صيغة مضعف الرباعى بدلا من مضعف الثلاثى ، وتلك ظاهرة شائعة فى عامية مصر للدلالة على المبالغة واستعمال الحيلة كقولهم دقدق ، وبصبص ، وشمشم ... إلخ .

٥- صيت : والكلمة عربية وردت فى شعر لبيد [١] وفى الحديث النبوى الشريف[٢]. قال بشاى : ومما يدل على عربيتها أن مقابلتها القبطية تبدأ بـ c ، وهى لاتوصّل إلى الصاد العربية [٣] .

٦- مدة : وفى اللسان : أمد الجرح صارت فيه مدة . والمدّة ما يجتمع فى الجرح من القيح .

٧- (رجل) مهلْوِس : والكلمة تحريف للفظ العربى مَهْلُوس من قولهم رجل مهلوس العقل أى مسلوبه .

٨- هَوّش : وفى اللسان : الهَوْشة الفتنة والهَيْج والاضطراب والهرج والاختلاط وكل شىء خلطته فقد هوشته .

٩- شوط : الكلمة محرفة عن النطق العربى شَوْط . وقد رواه الأصمعى وورد فى الحديث النبوى وفى حديث الطواف : رمل ثلاثة أشواط .

١٠- رفّ (الحاجب) : وفى اللسان رفّ النبات اهتز ، ورفّت عينه ترفّ اختلجت ، وكذلك سائر الأعضاء .

١١- مخمخم (فى وصف الشخص المزكوم) : وفى اللسان : الخمخمة ضرب فى الأكل قبيح ، والخمخمة مثل الخنخنة . ثم ذكر فى مادة خنن : الخنين صوت يخرج من الأنف ، وقال الجوهرى هو كالبكاء فى الأنف أو الضحك فى الأنف . وقال الفصيح من أعراب بنى كلاب : الخنين سُدد فى الخياشيم . والعلاقة واضحة بين المعنيين مما يجعلنا نقطع بعربية اللفظ .

---

(١) وهو قوله : وكم مشتر من ماله حسن صيتة   لآبائه فى كل مبدى ومحضر .

(٢) وهو قوله صلى الله عليه وسلم : ما من عبد إلا له صيت فى السماء .

(٣) The Coptic Influence ص ١٢٤ .

١٢- عَيِّل : وفى اللسان : عيال الرجل وعيِّله : الذين يتكفل بهم ، وقد يكون العيِّل واحدا عن كراع . ويبدو أن التطور الذى لحق هذه الكلمة على يد المصريين كان هو نقلها من صيغة الجمع إلى صيغة المفرد بدليل أن صاحب اللسان نقل هذا الاستعمال عن كراع وحده ، وكراع من علماء اللغة المصريين كما سبق أن أشرنا .

١٣- مسخَّم : وفى كتب اللغة : السخمة : السواد ، والأسخم الأسود ، والسخام: سواد القدر ، والسخام : الفحم ، والسخام : السواد . ومنه قيل سخَّم الله وجهه أى سوَّده . وروى عن عمر فى شاهد الزور : يسخَّم وجهه أى يسود .

١٤- «أوأ» و «أم أوى»» : وهما - فى الحقيقة - تحريف للكلمتين العربيتين أوق وأم أويق . يقال : آق فلان علينا إذا أتانا بالأَوْق وهو الشؤم . وسميت البومة «أم أويق» لتشاؤمهم منها .

١٥- بَرًّا (كقولهم اخرج برا) : والكلمة عربية صحيحة . فالبر نقيض الكنّ ، والعرب تستعمله فى النكرة تقول : جلست برا ، أو خرجت برا ، إذا خرج إلى البر والصحراء . ولا يطعن فى عربية الكلمة ما يقوله بعض اللغويين من أنها - من ذلك التعبير الخاص من كلام المولدين ، ولم تسمع من فصحاء العرب بالبادية .

١٦- نف ونفافة : وهى عربية مأخوذة من مادة «النغف» مع إبدال الغين فاء . والنغَف ما يخرجه الإنسان من مخاط من أنفه .

١٧- عَفّ بمعنى طار كقولنا «عفّ الذباب» . وهى مشتقة من الجذر العربى عاف بمعنى حام أو طار .

١٨- هَرّ من خوفه (إذا عانى من الإسهال) ، وهى مشتقة من الجذر العربى هَـرّ بمعنى تدفق وسال .

١٩- كوب . والكلمة عربية صرف ، وقد استعمل القرآن الكريم جمعها وهى أكواب أربع مرات ، وفسرها اللغويون بأنها القدح لاعروة لها أو الكوز الذى لاعروة له . ولم يقل أحد من اللغويين باقتراضها من القبطية ، لكن ذكر السيوطى فى «المهذب» أنها نبطية . ووجودها فى النبطية لاينفى عربيتها .

٢٠- حب مدشوش ، وكذلك دشيش ، وكلاهما عربى فصيح يعود إلى معنى الدشّ وهو الرضُّ والدقّ والكسر . وفى تاج العروس أن الدشيشة نوع من الحساء يتخذ من البُرّ المرضوض ، وفى حديث عائشة : «فجاءت بدشيشة» . وفى التاج كذلك : الدشّاش : من يَرُضُّ الحبوب ، ويقال : حب مدشوش (وانظر ما جاء فى الفصل الرابع عن هذه الكلمة) . وقد حكى ثعلب فى المجالس : جششت الحنطة ودششتها .

ولا نريد أن نحبر صفحات أكثر من هذا لإثبات عربية عشرات أخرى من الكلمات التى ادعى أصلها القبطى ، ولذا سنكتفى بالإشارة إلى عدد آخر منها وهو :

نَبّوت - معدية - فخّ - حكّ - يامطرة رُخى - دبش - مهياص - مكلْكع - صُباع - حلّقّ - حامض - كوع - سيف - قطف - كَرْم (عنب) - أريكة - تلّ - مَرهْدل - عَنتيل - قُلّة (ماء) - يَامَا - جناح - لُقمة - فاس - جحش - بصق - نَقَر - رُقَاق - سلّة ... إلخ .

وهكذا يتضح أن كثيرا من الكلمات التى ذكروها عربى صرف ، وبعضه معرب عن لغات أخرى ، وتم تعريبه بعيدا عن مصر .

وقد قام الدكتور ولسن بشاى بتحليل الكلمات التى ادعى G. Sobhy أو W. Worrell أو غيرهما قبطيتها وانتهى إلى الحقائق التالية :

١- من بين ٢٠٥ كلمة ادُّعى قبطيتها لم يخلص سوى ١٠٩ كلمة .

٢- هناك ٥٨ كلمة من الأفضل ردها إلى أصول عربية .

٣- هناك ٨ كلمات ذات أصول غير قبطية وغير عربية .

٤- هناك ١٤ كلمة لايعرف أصلها على سبيل القطع .

٥- هناك ١٦ كلمة لم يرد لها ذكر فى معجم Crum للغة القبطية .

٦- أن كثيرا مما ذُكر أصله القبطى أمكن رده إلى أصول تركية أو فارسية أو فرنسية أو إنجليزية أو إيطالية أو غيرها من اللغات التى احتكت بعربية مصر بعد العصر القبطى .

٧- أن بعضا من الكلمات القبطية المقترضة لاتعرف إلا فى القرى النائية ولم تدخل عربية مصر على المستوى العام .

٨- أن بعض الكلمات التى قيل بقبطيتها اقترضتها القبطية من لغات سامية متاخمة . بل أكثر من هذا أصدر بشاى أحكاما صريحة تنص على أن «الكلمات القبطية الشائعة فى عربية مصر ما تزال قليلة العدد» ، وعلى أن «التركية التى لم تكن دارجة فى مصر قد تركت مفردات معجمية فى عربية مصر أكثر من القبطية» .

وفسر الدكتور بشاي «النفوذ المحدود» للقبطية على عربية مصر على أساس من عدم سيادة الازدواجية اللغوية خلال فترة الانتقال من القبطية إلى العربية[١] .

والخلاصة أن مخلفات اللغة القبطية من المفردات في عامية مصر محدودة جدا بعكس ما قد يظن . فليس هناك مئات ومئات من الكلمات ، وليس هناك ذهول من كثرة عددها . وإنما هي عشرات من الكلمات لاتتجاوز بحال من الأحوال المائة .

والنتيجة النهائية التي نستخلصها من كل هذا أن التأثير القبطي على عربية مصر تأثير محدود جدا لايكاد يتجاوز مجال المفردات . وحتى في هذا المجال فالآثار ضئيلة جدا على عكس ما يردده البعض . وليست هذه النتيجة بالأمر الشاذ أو المستغرب لدى دارسي اللغات ومراحل صراعها ، وإنما هو شيء متوقع يمكن التكهن به مسبقا . وفي ذلك يقول بلومفيلد عالم اللغة الأمريكي المشهور : حين تنتصر لغة الغزاة وتندثر اللغة المغزوة لانكاد نلحظ آثارا في اللغة الغازية نتيجة لذلك الصراع إلا بعض الكلمات الخاصة بالبيئة الجديدة من أعلام أو أسماء الأمكنة ، ومن ألفاظ تعبر عن أشياء تتميز بها هذه البيئة ... وهذا ما حدث للغة الرومانية حين قضت على معظم لغات أوربا في عصر الامبراطورية الرومانية[٢] .

---

(١) انظر The Coptic Influenec ص ٩٣ ، ١٣٦ – ١٣٨ .

(٢) انظر الدكتور إبراهيم أنيس : من أسرار اللغة ص ٩٩ (ط ثانية) و Bloomfield في كتابه Language ص ٤٦٤ .

الفصل الرابع

المؤثر الثانى : اللهجات العربية

جاء العرب إلى مصر فاتحين ثم مهاجرين ، وكانوا مزيجا من عناصر شتى ، وقبائل متعددة . وحملت كل قبيلة معها لهجتها الخاصة التي تختلف قليلا عن أختها . واختلط كثير من هذه اللهجات ، وانعزل بعضها مكونا جزرا لغوية ، وبخاصة فى الأماكن النائية من الصحراء أو الصعيد الأعلى . ونتج عن هذا – إلى جانب عوامل أخرى كثيرة – وجود اختلافات بين لهجات الأقاليم ، واختصاص كل محافظة ، وربما كل قرية بسمات معينة ، وبخاصة فى لغة الحديث .

وإنه لمن المؤسف حقا أن نقول إن اللهجات العربية القديمة لم يسجل كثير من سماتها وخصائصها ، بل سجل القليل ، وهو ما دخل فى نطاق اللغة الفصحى ، وترك الكثير وهو ما خرج عنها . وقد قسم علماء اللغة والرواة القبائل العربية إلى قسمين اهتموا بأحدهما وأهملوا الآخر ، وبنوا فكرتهم على أساس البداوة والحضارة . فكلما كانت القبيلة بدوية أو أقرب لحياة البدو كانت لغتها أفصح ، والثقة فيها أكثر ، وكلما كانت متحضرة أو أقرب إلى حياة الحضارة كانت لغتها محل شك ومثار شبهة . وكلما كانت القبيلة منعزلة عما حولها ، ومنقطعة الصلة بالعالم الخارجى كانت لغتها أفصح وأنقى ، وكلما كانت وثيقة الصلة بالأمم المجاورة ولها علاقات من أى نوع كان مع الدول الأجنبية كانت لغتها

محل طعن وموضع ريب . وفكرتهم فى هذا أن الانعزال فى كبد الصحراء وعدم الاتصال بالأجناس الأجنبية يفسد اللغة وينحرف بالألسنة . وأول من روى لنا قائمة محددة بالقبائل التى يستشهد بها والتى لايستشهد بها الفارابى اللغوى فى كتابه «الألفاظ والحروف» . وتعد هذه القائمة وثيقة تاريخية هامة ، وعنه أخذها أبو حيان فى «شرح التسهيل» والسيوطى فى كتابيه «المزهر» و« الاقتراح» . وإليكم نص هذه الوثيقة : «قال أبو نصر الفارابى فى أول كتابه المسمى بالألفاظ والحروف : كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعا وأبينها إبانة عما فى النفس . والذين نقلت عنهم اللغة العربية ، وبهم اقتدى ، وعنهم أخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم : قيس وتميم وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أخذ أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل فى الغريب وفى الإعراب وفى التصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين . ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة فلم يؤخذ عن حضرى قط ، ولا عن سكان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرءون العبرانية ، ولا من تغلب والنمر فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم للنبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم ....» .

فإذا استعرضنا على ضوء هذه الوثيقة أسماء القبائل التى اشتركت فى جيش الفتح أو استوطنت فى مصر نجد أن كثيرا منها كان من بين القبائل غير الموثقة التى لم تسجل لغتها .

١- فمن المعروف أن أغلب المهاجرين العرب طوال القرن الأول كانوا من قبائل يمنية الأصل . وتطالعنا الوثيقة بعدّها أهل اليمن من بين غير الموثوق فيهم الذين لم تسجل لهجاتهم .

٢- أشهر من سكن مصر من «قضاعة» : «جهينة» و «بلى» و «قضاعة» مطعونة فى فصاحتها .

٣- من بطون كهلان التى سكنت مصر «لخم» و «جذام» و «غسان» والثلاثة مطعون فى فصاحتها .

٤- نزلت طائفة من قريش فسطاط مصر فى أوائل الفتح ، وسكن لفيف من الأنصار فى صعيد مصر ، وقد تجنب علماء اللغة حواضر الحجاز .

٥- هاجرت قبيلة «الكنز» إلى مصر فى القرن الثالث الهجرى ونزلت بلبيس بالشرقية ، وفى أعالى الصعيد . وبنو الكنز ينتسبون إلى ربيعة بن نزار ويرتفع نسبهم إلى بنى حنيفة المقيمين فى منطقة اليمامة . وتطالعنا الوثيقة السابقة بالتشكيك فى بنى حنيفة وسكان اليمامة .

٦- نجد قبائل من طيىء تصل مصر وتقيم بها فى القرنين الأولين بعد الفتح . وقد هاجر بطن من بطونها اسمه سنبس فى سنة ٢٤٢هـ = ١٠٥٠ م من فلسطين إلى مصر حيث نزل مديرية البحيرة . وتطالعنا الوثيقة بأن بعضا من طيىء لايوثق بلغتهم .

وهذا يعنى أن لهجات هذه القبائل التى استبعدت من مجال التسجيل ، وحكم عليها بالفساد والخروج عن نطاق اللغة الفصحى ، والتى كانت فى الواقع مصدرا من مصادر اللهجات العربية التى تكونت فى مصر بعد الفتح لانعرف عنها إلا القليل ، أو لانعرف عنها شيئا ألبتة . وهذا يلقى ظلالا كثيفة من الصعوبة على هذا الفصل حيث نفتقد الشواهد التى تعيننا على رد الظواهر اللهجية إلى مصادرها الأولى . ورب ظاهرة نحكم عليها بالخطأ وهى ترجع إلى لهجة من تلك اللهجات الوافدة . ورب تعبير أو لفظ نظن أجنبيته وهو يمت بعرق ونسب إلى أصل عربى . ورب ظاهرة صوتية نتوهم رجوعها إلى اللسان القبطى وهى ترجع فى الواقع إلى لهجة عربية أو خاصة بدوية .

وعلى أى حال فقد وضعنا أيدينا على بعض الخصائص اللهجية التى تركت آثارها فى لغة مصر فى هذه الفترة ، وسنحاول أن نعرضها الآن ، معترفين بأنها لاتمثل إلا القليل أو الجانب الصغير ، وأنه مازال بيننا وبين التقصى شوط كبير .

— ١ —

أما آثار اللهجات العربية فى المستوى الأدبى للغة – وقد استخرجناها كلها من أرقى المستويات الكتابية فى تلك الفترة – فمن أمثلتها :

أولا : فى مجال النحو والصرف :

١– إلزام جمع المذكر السالم الياء فى جميع حالاته الإعرابية . وقد لوحظت هذه الظاهرة حتى فى الوثائق المبكرة المنسوبة إلى قرة بن شريك . وهى لهجة عربية أشارت إليها كتب النحو .

٢- حذف نون المثنى بدون إضافة نحو «مائتى» بدلا من مائتين و «بيتى» بدلا من بيتين ، وقد لوحظ هذا فى وثائق البردى . وهذه أيضا لهجة معروفة فى كتب النحو وعليها المثل المشهور : بيضك ثنتا وبيضى مائتا أى بيضك ثنتان وبيضى مائتان . وجاء عليه قول الشاعر العربى :

هما خُطتا إما إسارٌ ومنة وإما دم والقتل بالحر أجدر

وابن جنى يرى رفع «إسار» ويستجوده .

٣- حذف أن المصدرية قبل المضارع . ومن ذلك قول الشافعى : عليه يتعلم الصلاة - قبل تُكمل الصلاة - قبل يحلّ عليك (١) . وقول ابن زولاق : لاشتهيت تصفع نفسك (٢) . وحذف «أن» لهجة عربية ، وبعضهم يبقى عملها بعد الحذف وبعضهم يبطله (٣) .

٤- حذف النون فى الأفعال الخمسة بدون ناصب ولا جازم . وقد تردد هذا فى كلام الإمام الشافعى كقوله : فلا يُحلوا المطلقة حتى تغتسل - ويتفرقوا فى بعض ما أخذوا به منهم (٤) ، كما ورد فى كلام ابن زولاق مثل (٥) : وجاءت سنانير يصيحوا . ومن كلام ابن الداية : تغيظينى بقولك اقرضينى . وهذه أيضا لهجة عربية صحيحة وجاء عليها الحديث النبوى الشريف : كما تكونوا يولى عليكم .

---

(١) الرسالة (تحقيق أحمد شاكر) ص ٤٩ و ٢٦٥ و ٥٨٢ .

(٢) أخبار سيبويه المصرى ص ٣٩ .

(٣) فى القرآن الكريم : ومن آياته يريكم البرق . وفى المثل : خذ اللص قبل يأخذك - بالنصب - وقد روى بالوجهين قول الشاعر :

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلد

(٤) الرسالة ص ٥٦٢ و ٥٩٧ .

(٥) أخبار سيبويه المصرى ص ٢٨ .

٥- نصب معمولى «إنّ» كقول الشافعى : من أن ذلك موجودا على كلهم [1] . وشاهده من الشعر القديم .... إن حراسنا أسدا .

٦- إثبات الياء فى المنقوص النكرة كقول الشافعى : عن مصلى - على نواحى - وكذلك كل والى - ثلاثة معانى - كلكم مؤدى ما عليه - من وجه ثانى [2] .

٧- إنابة الجار والمجرور مناب الفاعل مع ذكر المفعول به منصوبا كقول الشافعى: أن يُظن به ظنا مخالفا - يُشترى بالدنانير والدراهم نقدا عسلا وسمنا [3] . وقد أجاز الكوفيون والأخفش وابن مالك ذلك لوروده عن العرب وجاء عليه قراءة أبى جعفر : «ليُجزَىَ قوما بما كانوا يكسبون» وقول جرير يهجو الفرزدق : ولو ولدت قُفَيْرَة جِرْوَ كَلْبٍ * لَسُبَّ بذلك الجرو الكلابا .

٨- إلحاق علامة التثنية أو الجمع بالفعل إذا أسند إليه مثنى أو جمع كقول ابن الداية : اشتهوا علىّ صبيانى حلوى فى العيد . وتلك لهجة مشهورة معروفة فى كتب النحو باسم «لغة أكلونى البراغيث» ولها شواهد كثيرة فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف والشعر العربى الفصيح .

٩- إشباع تاء الخطاب فى مخاطبة المؤنثة كقول ابن الداية : جزاء ماقدمتيه . قال الخفاجى هى لغة ربيعة ، وقد وردت فى الحديث النبوى فيما رواه البخارى كذلك [4] .

١٠- إدخال «ال» فى العدد المضاف كقول أبى جعفر النحاس : الثلاثة الأصناف- الثلاثة الأحرف ، بدلا من ثلاثة الأصناف وثلاثة الأحرف ، وقول ابن ولاد : والثلاثة الأنجم . وهذه لهجة معروفة ورد عليها بعض الحديث النبوى .

---

(١) الرسالة ص ٤٥٨ .

(٢) الرسالة ص ٢٩٤ و ٤١٥ و ٤١٧ و ٤٣٢ و ٤٨٣ و ٥٣٠ .

(٣) الرسالة ص ٥١٤ و ٥٢٥ .

(٤) لف القماط على تصحيح بعض ما استعمله العامة من المعرب والدخيل والمولد والأغلاط (ط الهند) ص ٤٩ .

ثانيا : فى مجال المفردات :

نجد مفردات كثيرة تتردد فى أشعار المصريين وكتاباتهم ليس لها وجود فى المعاجم التى بين أيدينا . وهذه - فى رأينا - لابد أن تمثل استعمالات خاصة لبعض القبائل التى أهمل تسجيل لغتها ، أو تمثل مادة لغوية ندت عن حصر اللغويين . ومن أمثلة ذلك :

١- استعمال «ست» مكان «سيدة» وقد وردت فى «المكافأة» لابن الداية . وهى استعمال قديم أشار إليه أبو العلاء المعرى فى رسالة الغفران وذكر له البيت :

ست إن أعياك أمرى　　فاحمليني زقفونة

وقال الفيروزا بادى : ستى أى ياست جهاتى . وقال الزبيدى معقبا على هذا : كأنه كناية عن تملكها له . وقال بعضهم أن أصلها سيدتى فحذف بعض حروف الكلمة تخفيفا . وللبهاء زهير أبيات استعمل فيها هذه الكلمة أكثر من مرة متحديا اللغويين التقليديين وهى :

بروحى من أسميها بستى　　فينظرنى النحاة بعين مقت

يرون بأننى قد قلت لحنا　　وكيف وإننى لزهير وقتى

ولكن غادة ملكت جهاتى　　فلا لحن إذا ما قلت ستى

٢- استعمال كلمة «عيالات» جمعا لعيال ، وقد وردت فى «فتوح مصر» لابن عبدالحكم ، وهى ليست فى معاجم اللغة التى رجعت إليها .

٣- جمعهم «جيل» على جِيَل كقول المعلى الطائى :

كيف ياقبط تكونوا عربا　　ومريس أصلكم شر الجيل

ولا يوجد هذا الجمع فى «لسان العرب» ولا «القاموس المحيط» .

٤- استعمل سعيد بن عفير «تفكل» بمعنى أخذته الرعدة فى قوله :

فما زاده الإبعاد إلا توقرا   وصبرا ولم يخضع ولم يتفكل

والذى فى اللسان : الأفكل الرعدة ولايبنى منه فعل . وهناك افتكل بمعنى احتفل ، أما تفكل فلا توجد .

٥- استخدام كلمة «التقليد» بمعنى المحاكاة ، كما فى قول النحاس : وهذا زجر عن التقليد . وهذا المعنى لا وجود له فى أى من المعاجم القديمة .

٦- استعمال كلمة «الخُلّاع» بمعنى الخارجين على السلطان ، فقد قال أبو عثمان السكرى فى مدح يحيى بن معاذ الذى تولى مصر عام ١٩٢ هـ :

وأباد الخلاع من كل أرض   بعد ما حاد عنهم كل فارس

ولم أجد هذا الاشتقاق فيما تحت يدى من معاجم .

٧- استعماله كلمة «التزليل» بمعنى ما يحمل من مائدة صديق أو قريب . وهى عامية .

٨- استخدامه كلمة التحلّق» مع الطعام لإفادة معنى الندرة وقلة الموجود [(١)] .

- ٢ -

وأما آثار اللهجات العربية فى المستوى نصف الأدبى أو اللغة الكتابية لغير المتخصصين فأكثر وأغزر . ونضيف إلى الأمثلة السابقة - التى لابد أن تكون قد شاعت فى هذا المستوى كذلك - ما يأتى :

---

(١) انظر الأدب العربى فى مصر لمحمود مصطفى ص ١٣٩ ، ١٤٠ ، وحياة النثر فى مصر لزيان ص ١١٦ ، ١١٨ .

أولا : فى مجال الأصوات [١] :

١- حلول التاء محل الثاء مثل تلات بدلا من ثلاث واتنعشر بدلا من اثنا عشر وتعلب بدلا من ثعلب . ويروى أن عرب خيبر كانوا ينطقون التاء عوضا عن الثاء [٢] .

٢- كتابة القاف كافا ونطقا قريبا من صوت الكاف . ومن المعروف أن القاف القريبة من الكاف قد انتقلت مع الهلالية وأحلافهم من القيسيين منذ القرن الرابع الهجرى إلى أقطار شتى فى إفريقية والأندلس . وقد عرف بها عربان أهل البادية فى مصر أيام المماليك ، حتى كان هؤلاء يطاردون العربان فى المعارك ويميزونهم بهذه الكاف . فكان إذا ادعى أحد منهم أنه حضرى قيل له قل «دقيق» فإن قالها بالكاف قتل ، وإن قالها بالقاف أطلق . وقد تحدث ابن خلدون عن هذه القاف وسماها القاف المعقودة [٣] . وعدها من خصائص البدو فى الأقطار العربية [٤] .

---

(١) لم نتمكن فى المستوى السابق من أن نضع أيدينا على أى آثار صوتية ، لأن اللغة المكتوبة لاتكشف عن كيفية النطق لعدم تمثيلها أصوات العلة من ناحية ، ولمحافظتها على الهجاء التقليدى من ناحية أخرى حتى لو كانت الكلمة تنطق بصورة أخرى . أما فى هذا المستوى فقد أمكننا أن نضع أيدينا على كثير من الخصائص الصوتية وذلك بمساعدة وثائق البردى العربية المنشورة . كما كان للنص العربى المكتوب بحروف قبطية والذى نشره الدكتور صبحى أهمية خاصة فى هذا المقام نظرا لتمثيل الرسم القبطى للكلمات المنطوقة بما فى ذلك حروف العلة فيها . واعتمدنا كذلك فى كتابة هذا الجزء على مؤلفات الأقباط باللغة العربية وهى كثيرة ومتعددة .

(٢) انظر عبدالمجيد عابدين : «من أصول اللهجات العربية فى السودان» (ط أولى سنة ١٩٦٦) ص ٤٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٥ و ٤٦ .

(٤) من الأهمية بمكان أن نشير هنا إلى أن مخطوطات دير القديس مكاريوس التى تمثل الكلمات العربية برموز قبطية تكشف عن أن صوت القاف حتى ذلك الوقت لم يكن قد كتب أو نطق فى شكل همزة بين المثقفين وأنصافهم ولم يرد فيها مثال واحد لهذه الظاهرة .

٣- كتابة الذال دالا ونطقها كذلك . ومما ورد منه : «فإدا» بدلا من فإذا ، و«أخد» بدلا من أخذ ، و«أحدق» بدلا من أحذق . ومن المعروف أن اللغة الآرامية التى كانت ذات تأثير بالغ فى كثير من لهجات العرب قبل الإسلام وبعده كانت تبدل الذال دالا بصفة مطردة . ومن المعروف كذلك أن بنى ربيعة كانوا يبدلون الذال دالا فى بعض الألفاظ (١) .

٤- التبادل بين الصاد والسين مثل فلصطين وفلسطين ، والصلطان والسلطان ، وسوف وصوف ، ومسبوغة ومصبوغة . وهذا التبادل مشهور فى اللهجات العربية القديمة ، ومن أمثلته : سفح وصفح ، وسقر وصقر ، وسراط وصراط، ولسق ، ولصق ، وبساق وبصاق ، وسفق وصفق .

٥- إهمال الهمزة بالكلية مثل «جانى» بدلا من جاءنى ، و «شى» بدلا من شىء و«أردا» بدلا من أردأ و «جاهم» بدلا من جاءهم . وقضية تسهيل الهمزة – فى القديم – بالحذف أو التخفيف أشهر من أن نشير إليها .

٦- إعمال قانون المماثلة بين الأصوات إلى أبعد حد . وأمثلة ذلك من مخطوطات دير القديس مكاريوس كثيرة منها :

(أ) «عِنده» التى كتبت «عَنده» وقد سبق أن شرحنا المماثلة بين حروف الحلق والفتحة . وقد جاءت هذه الصيغة وفقا لإحدى اللغات فى نطق «عند» .

(ب) وَسِخ التى كتبت وِسِخ . والمماثلة بين الحركات ظاهرة شائعة فى اللهجـات العربية ، مثل «عليهِم الجلاء» ، «فلإمه الثلث» فى بعض القراءات .

---

(١) عبدالمجيد عابدين : من أصول اللهجات العربية فى السودان ص ٤٩ .

ثانيا : في مجال النحو والصرف :

١- أهم ظاهرة تلفت نظر الباحث هي إهمال الإعراب أو التخلص منه بالكلية . وأحيانا نجد بعضهم يحاول المحافظة عليه فيقع في أخطاء فاحشة ومن أمثلة إهمال الإعراب نقتبس ما يأتي : فدفعت لهم فاس وتليس خبز وملح - اجتوا لكم قصب - قال لي كلام . وهذه النماذج الثلاثة مأخوذة من مخطوطات دير القديس مكاريوس . وقد ندت هذه الأمثلة من الكاتب لأنه كان حريصا على التزام الإعراب ، وكان يكتب التنوين بحروف تمثل الحركة والنون مثل كلمة «مسكتة» التي كتبها كما لو كانت «مسكتتنْ» .

ومن الأمثلة التي وردت في البرديات ومؤلفات الأقباط : حرف بحرف (بدلا من حرفا بحرف) - الذي كان رئيس على دير - فلم يلبث قليل حتى وقع الطاعون - أقاموا ستة أشهر إلا يوم - مما يسوى درهم - كتبت إليك كتاب - عشرين رطل .

ولا شك أن إهمال الإعراب جاء نتيجة تأثير بعض اللهجات العربية الوافدة . فعلى الرغم مما هو معروف بين علماء اللغات من أن الإعراب كان من أهم الظواهر العربية الشديدة اللصوق باللغة ، فإن كثيرا من الأمثلة اللهجية التي وردت إلينا تكشف عن اتجاه خطير نحو التخلص منه . كما أنه من غير الممكن الزعم بأن الإعراب كان ملتزما بين كل القبائل وعلى كل المستويات . وفي هذا يقول الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس : «إن ظاهرة الإعراب لم تكن ظاهرة سليقة في متناول العرب جميعا ، بل كانت صفة من صفات اللغة النموذجية الأدبية ولم تكن من معالم الكلام العربي في أحاديث الناس ولهجات خطابهم» . ويستدل الدكتور

عبدالحليم النجار [١] . على شيوع ظاهرة إهمال الإعراب بأمثلة الإدغام التى وردت بكثرة فى القرآن الكريم من مثل : الكتاب بالحق – النكاح حتى – الناس سكارى – يشفع عنده – يبتغ غير الإسلام – اختلف فيه – البينات ثم – الصالحات جنات – السيئات ذلك – الجنة زمرا – وورث سليمان – حيث شئتما .

وقد أدى ذلك إلى محاولة إلزام الكلمات المعربة بالحروف وجها واحدا . ومن أمثلة ذلك : فى ذو الحجة – أبو قير (بدلا من أبا قير) – ذا النون (بدلا من ذى النون) – أبا أيوب (بدلا من أبى أيوب) – بيداه (بدلا من بيديه) – إن هاتان الخصلتان (بدلا من هاتين الخصلتين) ... إلخ .

٢– معاملة الفعل المعتل الآخر معاملة الصحيح فى الإعراب . ومن أمثلة ذلك : لم تدرى (بدلا من لم تدر) – رضيوا (بدلا من رضوا) – سَمُيُوا (بدلا من سموا) .. وثابت لغويا وتاريخيا أن هذه هى القاعدة فى بعض اللهجات العربية[٢] ، وجاء عليها قول الشاعر :

ألـم يأتيك والأنبـاء تنمـــى ... بمـا لاقــت لبـون بنـى زيـاد

وقول الآخر :

هجوت زبان ثم جئت معتذرا ... من هجـو زبان لم تهجو ولم تدع

ومنه أيضا قول الشاعر :

تراه وقد فات الرمـاة كأنـه ... أمام الكلاب مصغىٌ الخد أصلم

---

(١) «فى اللهجات العربية وأصول اختلافها» مقال بمجلة كلية الآداب (جامعة القاهرة مجلد ١٥ جزء ١ مايو سنة ١٩٥٣) ص ٥٤ و ٥٥ .

(٢) انظر د. بشر : نظرات فى الصرف العربى ص ٢٢ و ٢٤ .

ولهذه الظاهرة آثار باقية فى لغات سامية أخرى كاللغة الجعزية التى تقول صَحو بدلا من صحا ، ورَمَيَ بدلا من رمى ، وتَلوَ بدلا من تلا وغير ذلك [١] .

٣- معاملة المؤنث المجازى معاملة المذكر فى كل شىء ، بإعادة الضمير عليه مذكرا ، ووصفه بمذكر ، والإشارة إليه باسم الإشارة المذكر مثل : هذا الدار – عينه الأيمن ... وقد كانت هذه عادة بعض العرب ، وكان المبرد من أوائل من تبنوها ونادوا بها إذ قال فيما نقله عنه أبو جعفر النحاس فى «إعراب القرآن» : «مالم يكن فيه علامة التأنيث ، وكان غير حقيقى التأنيث فلك تذكيره نحو : هذا نار» . وقد وردت شواهد عربية قديمة مصدقة لرأى المبرد مثل قوله تعالى : السماء منفطر به ، وقول الشاعر :

والعين بالإثمد الحارى مكحول

وقول الآخر :

فلا مزنة ودقت ودقها ولا أرض أبقل إبقالها

٤- الوقوف على الضمير بنقل حركة آخره إلى الحرف الذى قبله مثل قولهم : ينفع نفسُه – فقال لُه – عنْدُه . وقد بدا ذلك واضحا فى مخطوطات دير القديس مكاريوس .

٥- إسقاط الفاء من جواب «أما» مثل : أما بنوكم قد سقطوا ... وقد ورد ذلك فى الشعر على قلة كقوله :

فأما القتال لا قتال لديكم ولكن سيرا فى عراض المواكب

كما ورد فى الحديث النبوى الشريف .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥ .

٦- صرف الممنوع من الصرف مثل : «ذبحوا ذبائحا» و«أخذ مراكبا» . والخلاف بين النحاة فى جواز صرف الممنوع من الصرف بدون علة تناولته كتب النحو بالتفصيل . وفى القرآن الكريم «سلاسلا وأغلالا» : وفيه «اهبطوا مصرا» .

ثالثا : فى مجال المفردات والتعبيرات :

فى هذا المستوى اللغوى شاعت عبارات وألفاظ كثيرة لها أصول عربية واضحة ، ولكن ربما تحرج المتحفظون من استعمالها ، أو ربما لم يكتب لها الشيوع فى البلاد العربية فظلت لها صفة المحلية أو الإقليمية ، مما شجع بعض اللغويين أن يحكموا عليها من أجل ذلك بالابتذال أو غير الفصاحة . ومن أمثلة ذلك:

١- استعمالهم لفظتى «قبلى» و«بحرى» فى مقابل جنوبى وشمالى . وقد تردد ذلك كثيرا فى وثائق البردى وبخاصة فى وثائق البيع ووصف حدود الأراضى أو المنازل . وقد تنبه المقريزى إلى هذه الخاصة المصرية فقال فى خططه : إلا أن أهل مصر يستعملون فى تحديدهم بدلا من الجهة الجنوبية لفظة القبلية ، ويقولون الحد القبلى ولا يقولون الجنوبى . وكذلك يقولون الحد البحرى ويريدون الشمالى .

٢- استعمال كلمة «المزين» بمعناها الحديث الذى تستعمله فيها الآن وهو الحلاق.

٣- استعمال كلمة «أبهات» جمعا لأب ، وقد وردت فى مخطوطات دير القديس مكاريوس . ولم أعثر عليها فى معاجمنا اللغوية . ولعل منشأها القياس الخاطىء لهذه الكلمة على «أمهات» . ومن الجموع الغريبة كذلك جمع «سوط» على «أسياط» و«نجيب» على «نجبان» ، و«جنة» على «أجنة» .

٤- استعمال كلمة «بيت الراحة» بمعنى مكان قضاء الحاجة ، كما وردت فى المخطوطات الموجودة بمكتبة دير القديس مكاريوس .

٥- استعمال كلمة «ثقيل» بمعنى جندى مدجج بالسلاح . وقد ورد ذلك فى وثائق البردى .

٦- استعمالهم كلمة «أسباطة» (تحرفت الآن إلى سباطة) بمعنى العذق أو القنو . وعلى الرغم مما قيل عن أصلها اليونانى فإن صلتها الظاهرة بمادة «سبط» العربية تجعلنا نقول بعربيتها . ومن معانى هذه المادة : السَّبَط : الشجرة لها أغصان كثيرة وأصلها واحد ، والسِّبْط ولد الولد والقبيلة .

٧- وهناك بعض تعبيرات مصرية وردت إشارات خاطفة إليها فى مؤلفات كراع النمل اللغوى المصرى الذى مات فى القرن الرابع الهجرى ومنها : رف الحاجب : اختلج - فش القفل : فتحه بغير مفتاح - فحم الصبى : بكى حتى ينقطع صوته [١] .

- ٣ -

وأما آثار اللهجات العربية فى مستوى الخطاب العادى أو اللغة الدارجة فاكثر من أن تحصى ، وتعتبر اللهجات العربية - بلا شك - المصدر الرئيسى لها . وإنه لمن السهل جدا رد كثير من خصائصها إلى أصول عربية ، سواء احتفظ بهذه الأصول كما هى ، أو لحقها تعديل وتغيير . ومن أهم تلك الآثار :

---

(١) انظر المنجد فى اللغة ص ١٣٦ و ١٣٧ و ١٨٦ مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٩٠ لغة .

أولا : فى مجال الأصوات :

نضيف إلى الأمثلة السابقة فيما مضى ما يأتى :

١- كسر حرف المضارعة - ماعدا همزة المتكلم لخوف اختلاط صيغة المضارع بصيغة الأمر - مثل يِكتب - تِكتب - نِكتب . وظاهرة الكسر هذه معروفة فى تاريخ اللهجات العربية ، واطردت فى بعض اللهجات القديمة .

٢- إبدال القاف همزة فى القاهرة وبعض حواضر الوجه البحرى . ولذلك أصول قديمة على ما قرره أنوليتمان فى بحثه «بقايا اللهجات العربية فى الأدب العربى» . وهو موجود فى أسماء الأعلام الفينيقية . وقد نقل السيوطى تصوأ بمعنى تصوق (أى توسخ) وذكر الأب أنستاس : أفز بمعنى قفز واستنشأ بمعنى استنشق ... إلخ . وعلى الرغم من أن مخطوطات دير القديس مكاريوس لاتعبر عن صوت القاف برمز الهمزة فليس فى ذلك دليل على عدم حدوث هذا التطور فى العصور السيحقة ، فإن لغة هذه المخطوطات - برغم ما فيها من مسحة عامية - خليط من العامية والفصحى . وقد التزم كاتبها - فى كثير من الأحوال - الاتجاه الفصيح مفضلا إياه على الجانب العامى .

٣- حذف نون «من» و «عن» إذا وليهما ساكن مثل مِالبيت عالبيت . وتلك خاصة من خواص خثعم وزبيد من قبائل كهلان اليمنية .

٤- النطق الصعيدى لصوتى القاف والجيم يعكس اتجاها بدويا كما سبق أن ذكرنا .

٥- النطق القاهرى لصوت الجيم له أصل عربى فى اللهجات العربية القديمة كما سبق أن ذكرنا .

ثانيا : فى مجال النحو والصرف :

١- إلغاء الإعراب كما سبق أن فصلنا .

٢- قرن الباء بحرف المضارعة كقولهم باكتب وبيكتب ... واستخدام هذه الباء مع المضارع قديم جدا فى اللغات السامية ، فقد وردت فى نقوش كنعانية من شمالى سورية ترجع إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد .

٣- لصق نون وقاية باسم الفاعل المضاف إلى ياء المتكلم مثل ضاربنى وفاهمنى . وقد ورد هذا فى الحديث النبوى «فهل أنتم صادقونى» ، كما ورد فى الشعر القديم .

٤- الاستغناء عن صيغة س ع / س ع / س ع فى الماضى المعتل الآخر بالياء مثل بقى ، والاستعاضة عنها بصيغة س ع / س ع ع مثل بَقَا . وقد تردد ذلك كثيرا فى أوراق البردى العربية وله أصل فى اللغة .

٥- قطع اللفظ قبل تمامه ، وهو من لهجة طىء ويسمى «القطعة» ويرد هذا فى كثير من اللهجات المصرية فيقول بعضهم : النهار طل (أى طلع) والنور ظه (أى ظهر) [١] .

ثالثا : فى مجال المفردات :

الأمثلة كثيرة للكلمات المحرفة عن أصل عربى أو التى ترجع إلى لهجة عربية معينة . ومن ذلك :

١- كلمة «جلّبية» المحرفة عن جلباب .

---

(١) انظر الأدب العربى فى مصر لمحمود مصطفى ص ٢٦ نقلا عن مميزات لغة العرب لحفنى ناصف .

٢- «مترد» التى يكثر استعمالها فى الريف . وهى تحريف لكلمة «مثرد» اسم المكان من الفعل ثرد . يقال : ثردت الخبز ثردا كسرته فهو ثريد ومثرود .

٣- «نبُّوت» التى تعنى الفرع النابت من الشجر ، وتطلق - كما نص صاحب التاج - على العصا المستوية فى لغة المصريين .

٤- «إيش» التى ترددت كثيرا فى الوثائق البردية ومخطوطات الأقباط بمعنى أى شىء . وهو مخفف منها كما نص عليه ابن السيد فى «شرح أدب الكاتب» ، وصرحوا بأنه سمع عن العرب .

٥- كلمة «ست» التى سبق الحديث عنها .

٦- قول «مدشوش» ، واللفظ أصل عربى كما سبق أن ذكرنا .

٧- استعمال لفظ «امبارح» الذى يبدو أنه النطق الحميرى للفظ «البارحة» بإبدال اللام ميما . وعليه جاء الحديث النبوى : ليس من امبر امصيام فى امسفر (ليس من البر الصيام فى السفر) . ويرى أنوليتمان أن هذا ليس إبدلا وأن «أم» أداة تعريف مستقلة .

٨- استعمال كلمة «بح» للأطفال خاصة بمعنى انتهى أو لم يبق . وأصله بحباح . ففى لسان العرب : قال اللحيانى : زعم الكسائى أنه سمع رجلا من بنى عامر يقول : إذا قيل لنا أبقى عندكم شىء ؟ قلنا : بحباح ، أى : لم يبق .

٩- استعمال كلمة «ريت» بدلا من ليت . والتبادل بين الراء واللام مشهور فى كتب اللغة . ورُوى أن بنى قيس كانوا يقولون رَعلّ فى لعل .

١٠- قول المصريين «لأ» فى «لا» ، ومن تميم من يقلب ألف المقصور همزة فى الوقف .

الفصل الخامس

مؤثرات أخرى

إلى جانب العاملين السابقين وجدت عوامل أخرى كان لها تأثير ثانوى على عربية مصر ، وتتمثل فى :

١- عامل النزوع نحو السهولة وتوفير الجهد [١] .

٢- عامل اللامبالاة .

٣- عامل الاقتراض من لغات أخرى غير القبطية واليونانية ، مثل اللاتينية والفارسية والتركية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية .

* * *

أما فى المستوى الأول فلا تظهر بوضوح آثار هذه العوامل ، كما لم تتضح آثار العاملين الأولين . ولا يوجد اختلاف جوهرى بين كتابات هذا المستوى فى مصر ومقابله فى البلاد العربية الأخرى . والسبب يتمثل فى الحقيقة التى كان مسلما بها فى تلك الفترة وهى أن اللغة العربية النموذجية تتمثل فى القرآن والأحاديث النبوية ، وفى الشعر والنثر التقليديين . وقد أدى هذا بالكتاب والشعراء والأدباء إلى أن يحاولوا محاكاة هذه النماذج الأدبية ، وأن يكون غاية مايرجوه

(١) منذ عصر مبكر اختلف المفكرون هل كانت اللغات تجنح إلى السهولة أم إلى التعقيد . وعلى رأس الفريق الأول اللغوى الأمريكى Whitency الذى يقرر أن كل ما نكشفه من تطور فى اللغة ليس إلا أمثلة لنزعة اللغات إلى توفير المجهود الذى يبذل فى النطق . (انظر الدكتور أيوب : التطور اللغوى ص ٣٩ و ٤٠) .

الواحد منهم أن يتبع تقاليدها حرفيا . وعلى الرغم من هذه الحقيقة ، ومن المحاولات الصادقة للأدباء ألا يحيدوا عن الأسلوب الراقى والمستوى الأدبى النموذجي ، فإن الفحص الدقيق لتلك الأساليب يكشف عن أخطاء ومخالفات للتقاليد الكتابية ، ولكنها - والحق يقال - تبدو ضيئلة جدا . ومن ذلك قول ابن الداية : لم يبق لى إلا جاريةً .. ومنزلا ، والصواب «ومنزل» . ومن طريف ما يروى فى ذلك أن الفضل بن عباس دخل على كافور الإخشيدى وعنده أبو إسحاق النجيرمى فقال له : أدام الله أيام سيدنا الأستاذ ، بجر الأيام ، فابتسم كافور إلى أبى إسحاق النجيرمى فقال أبو إسحاق على الفور :

لاغرو أنْ لحـن الداعى لسـيدنا وغص من هيبـة بالـريق والبهـر
فإن يكن خفض الأيام عن دهَش من شدة الخوف لا من قلة البصر
فـقد تفاءلت فى هـذا لسـيدنا والفـأل نأثـره عن سـيد البشـر
بأن أيامـه خفـض بلا نصـب وأن دولتـه صفـو بلاد كـدر

فأمر له كافور بثلثمائة دينار ولابن عباس بمثلها .

ومن الكلمات المقترضة :

١- كلمة جسطال أو قسطال التى تعنى حاكم مصر ، ثم استعملت فى معنى حاكم مقاطعة أو مديرية . وقد ترددت كثيرا فى وثائق البردى بما فيها رسائل قرة بن شريك المبكرة . وقد ذكر جروهمان أنها مقترضة من أصل يونانى أو لاتينى .

٢- كلمة مازوت وجمعها موازيت التى وردت فى المؤلفات العربية واستعملها المقريزى فى الخطط إذ قال : «نُزعت موازيت القبط عن الكور واستعمل

المسلمون عليها» . ومعناها بالتعبير الحديث عمدة القرية أو حاكم المدينة . وقد ذكر جروهمان أن أصلها يونانى أو لاتينى .

٣- كلمة «الكورة» وتعنى القرية أو المحلة أو المدينة ، وهى كلمة مقترضة كذلك وترددت فى رسائل قرة بن شريك .

ويبدو أن هذه الألفاظ - وربما غيرها - كانت خاصة بالرسائل الرسمية أو بلغة الإدارة .

٤- كلمة «ديوانيان» التى استعملها ابن الداية فى المكافأة بمعنى حافظ الديوان وذلك فى قوله : «فتدسس الديوانيان حتى دخل فى جملتهم» . وواضح أن هذه الصيغة ليست عربية .

* * *

وأما المستويان الثانى والثالث - وسندمجهما فى هذا الفصل - فيظهر فيهما بوضوح آثار هذه العوامل سواء فى مجال الأصوات أو النحو والصرف أو المفردات .

أولا : فى مجال الأصوات :

من أمثلة ذلك :

١- إبدال الذال زايا الذى يبدو أنه لايمثل عنصرا لهجيا أصيلا ، وإنما هو استخفاف فى كيفية النطق وبذل جهد أقل .

٢- إبدال الظاء ضادا مثل «احفض» بدلا من احفظ التى وردت فى وثائق البردى.

٣- وقد ورد فى بعض وثائق البردى إبدال الضاد طاء مثل «محطره» بدلا من محضره و «فطله» بدلا من فضله .

٤- قلب الزاى دالا كما فى كلمة جزاء التى كتبت فى الوثائق البردية «جدّى» .

٥- التخلص من حرف العلة المزدوج عن طريق تحويله إلى حرف علة طويل . ومن أمثلة ذلك «بَيْت» التى تحولت إلى «بيت» .

٦- الإدغام بعد قلب أحد الصوتين المتقاربين إلى صوت مماثل مثل «بعتّ» فى مكان بعثت التى وردت فى وثيقة بردية كتبت فى سنة ٢٧٨ هـ .

٧- فك ياء النسب المشددة والاستعاضة عنها بياء مد مثل «الشقِى» بدلا من الشقيّ ، وقد كتبت الكلمة فى مخطوطات دير القديس مكاريوس هكذا .

ثانيا : فى مجال النحو والصرف :

التغيرات فى هذا المجال كثيرة جدا ومتنوعة . ومن أهمها :

١- أخطاء فى الإعراب مثل : فهذا قياسا ومثلا - لايتركون أحد - لئلا ينظران - كان لسليمان عبدا .

٢- خلق صيغ صرفية جديدة لا وجود لها فى العربية الكلاسيكية مثل صيغة اتفعّل مكان تفعل . ومن أمثلة ذلك «اتجسد» (تجسد) و «اتوكل» و «اترجا» ، أو نقل فعل من صيغة إلى صيغة أخرى مثل استعمال الفعل اتّلىَ بدلا من الفعل تولى ، وأورى بدلا من الفعل أرى .

٣- أخطاء فى باب العدد مثل تسعة ساعات (تسع) ، أربعة عشر ليلة (أربع عشرة) ، اثنا عشر سنة (اثنتا عشرة) ، بعد مائة اثنين وستين (واثنتين) .

٤- وضع الذى مكان التى مثل : الأموال الذى شرحتها - ثيابه الذى .

٥- استعمال اسم الإشارة استعمالا خاطئا مثل : أربع الدراهم هذا .

٦- تحويل صيغة الأمر فَعِّل إلى فَـعِّل بقصد تحقيق المماثلة وتوفير الجهد مثل خيِّطها بدلا من خيطها .

٧- إعادة الضمير مجموعا على غير العاقل الجمع كقول السمنودى فى مقدمة كتابه فى نحو اللغة القبطية : كتب الله المستعملة فى الكنيسة - وما ينضاف إليهم ، وكقول مخطوط مكتبة دير القديس مكاريوس : الأعمال كلهم .

ثالثا : فى مجال المفردات :

استعملت كلمات كثيرة لها أصول أجنبية مختلفة ، كما حرفت كلمات أخرى عن صورتها الأصلية أو معناها الأصلى . فمن النوع الأول :

١- كلمتا «دغرى» و «بُرش» وهما من أصل تركى .

٢- كلمة «شوشة» وهى موجودة فى السريانية بصيغة شُشا ومعناها كُبة قطن .

٣- كلمة «قلاّية» بمعنى بيت الأسقف أو بيعة النصارى . وهى كلمة لاتينية بمعنى خلوة ، ثم أخذها السريان فصارت قليتا ، ثم أخذها العرب فقالوا قلاّية وجمعوها على قلالى .

٤- كلمة «روزنامج» بمعنى دفتر اليومية المأخوذة عن الفارسية : «روزنامجه» أو «روزنامه» .

٥- كلمة «سفتجة» بمعنى إيصال وهى فارسية .

٦- كلمة «اسبيذاج» المأخوذة من أصل آرامى ، ومعناها رماد الرصاص .

٧- كلمة «بوش» بمعنى عديم الجدوى أو خال ، وهى أصلا تركية .

٨- كلمة «زير» للإناء الفخارى المعروف ، وأصلها أكادى ثم انتقلت إلى الآرامية ثم العربية .

٩- كلمة «ستل» أو «سطل» نحاس ، وهى مستعارة من اللاتينية .

١٠- كلمة «أوسية» بمعنى مزرعة .

١١- كلمة «تربيزة» من اليونانية .

١٢- كلمة «كارافاته» من الفرنسية .

١٣- كلمة «روبابكيا» من الإيطالية [١] .

١٤- كلمة «كاني وماني» من التركية [٢] .

١٥- كلمة «يادوب» من الفارسية [٣] .

ومن النوع الثاني :

١- كلمة «بعزأ» التي ترجع إلى الأصل العربي بعثق . ففي اللسان : البعثقة خروج الماء من الحوض . وتبعثق إذا انكسرت منه ناحية ففاض منها .

٢- كلمة «حيَطْ» في قولهم «حيط حائطا» المحرفة عن حوط . ومثله كلمة «المغاير» المحرفة عن المغاور .

٣- استعمال الكلمة في معنى جديد مثل كلمة «تَملّي» التي وردت في البرديات بمعنى دائما أو باستمرار ، وهو نفس معناها العامي الحديث .

٤- قولهم جمادى الآخر بدل الآخرة . ولا زال هذا التعبير شائعا حتى يومنا هذا .

٥- استعمال كلمة «دعوة» في معنى دعوى أو قضية . وقد ورد ذلك في وثائق البردي .

ومما هو جدير بالذكر ، أن كتاب وثائق البردي كانوا في بعض الأحيان يستعملون اختصارات في الكتابة تحل محل كلمة أو أكثر . ومن ذلك :

---

(١) انظر : Ehe Coptic Influence ص ٨ .

(٢) المحكم لأحمد عيسى ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

(٣) السابق ص ٢٥٠ .

واعن	اختصار	وأدى عن
أب	اختصار	أرادب
ولب	اختصار	وطالب
به	اختصار	بتاريخه

كذلك مما تجدر الإشارة إليه أن الأخطاء الإملائية فاشية جدا فى هذا البرديات وفى غيرها من كتابات الأقباط . ومن أمثلة ذلك :

١- كتابة التاء المربوطة تاء مفتوحة كثيرا مثل سنت «سنة» ، امرأت (امرأة) ، ابنت (ابنة) ، المسمات (المسماة) .

٢- كلمة شىء كثيرا ما كتبت «شاى» وهذا من الكتابة الغريبة .

٣- كتابة ذلك وهذا وهذين بالألف .

٤- عدم كتابة ألف أمام واو الجماعة .

٥- كتبت الكلمة بطء هكذا : بطو وذلك فى وثائق البردى .

٦- كتابة الياء ألفا مثل ادعا - فمتا - كفا - تقوا - المسما - الأخرا .

٧- وصل أكثر من كلمة مثل كتبفى (كتب فى) ، وكتبشهادته (وكتب شهادته) ، وذلكفى (ذلك فى) ، بكلما (بكل ما) .

وهناك إلى جانب ذلك تعبيرات عليها مسحة العامية استعملت فى الوثائق البردية مثل :

١- ويبة واحدة قمح بدلا من : ويبة قمح واحدة أو ويبة واحدة من القمح .

٢- وقد شلناه إلى دكان السمسار بدلا من حملناه أو نقلناه .

٣- وديت لك بدلا من أديت إليك أو أرسلت إليك .

٤- نسيت أذكر لك .

٥- وكانوا الخراسانيين قد جابوا مراكب عدة .

٦- صلينا على حافة البحر فى الغيط .

خاتمة

دراسة مقارنة

مدى التأثير المتبادل بين القبطية والعربية

والآن .. وقبل أن نضع القلم نحب أن نتعرض لقضية أخرى يحلو لكثير من الدارسين أن يخوضوا فيها ، وهى قضية تأثير العربية على القبطية ، ومقارنته بتأثير القبطية على العربية .

ولن نشتط نحن فى الحكم فنعطى أحكاما جزافية أو بالجملة ، أو نقول عن العربية ما قاله الدكتور صبحى عن القبطية من أنها سبب اختلاف عربية مصر – وبخاصة عاميتها – عن سائر العربيات ، وما ادعاه من أن مفردات عامية مصر مليئة بأعداد ضخمة من الكلمات ذات الأصل المصرى القديم أو القبطى بدرجة تثير الدهشة والعجب . ولكننا سنعرض القضية عرض منصف يلتزم الحياد ، ويهمه تصوير الحقيقة .

لقد سبق أن تعرضنا بالتفصيل لقضية التأثير القبطى على عربية مصر ، وخرجنا بنتيجة محددة هى انحصار هذا التأثير فى جانب المفردات فقط . وحتى فى هذا الجانب وجدنا التأثير ضيقا لايتجاوز بضع عشرات من الكلمات . وليس هذا فحسب ، فقد وجدنا أن قوائم هذه الكلمات مليئة بألفاظ يونانية تسرب بعضها إلى العربية عن طريق القبطية ، وبعضها عن طريق مباشر ، وبعضها فى بلد آخر غير مصر . وربما كانت ضآلة عدد الكلمات القبطية وحدها الموجودة فى عربية مصر هى السبب المباشر الذى حدا بالدكتور جورجى صبحى وغيره أن يدمجوا فى قوائمهم الكلمات القبطية واليونانية حتى يبدو الأثر قويا . ومعنى هذا أننا لو نحينا جانبا مثل هذه الكلمات ، ورددنا الكلمات ذات الأصل العربى إلى أصولها ، واستبعدنا أسماء الأعلام نهائيا ، لانكمش الرقم جدا ، ولم يبق عندنا شىء ذو بال .

ونضيف إلى هذا أن الدراسات اللغوية القبطية لم تترك أى آثار على الدراسات اللغوية العربية فى مصر . ويبدو أن الأقباط لم يكن لهم دراسات لغوية قديمة ذات شأن ، وإلا انعكس أثرها على لغويى مصر المتقدمين ، وظهرت ملامحها فى كتب النحو واللغة القبطية التى تتابع ظهورها بعد القرن الحادى عشر الميلادى .

فإذا نحن انتقلنا إلى الجانب الآخر من القضية وأردنا أن نسجل آثار العربية على القبطية ، وجدناها كثيرة ومتنوعة كما يلى :

١- صرح الأستاذ William Worrell المتخصص فى الدراسات القبطية بأن العربية هى التى تركت آثارها على القبطية وليس العكس ، وأن الأصوات القبطية قد انحلت تحت ضغط الأصوات العربية ، وأن فكرة كتابة القبطية بحروف عربية[١] قد أدت ولاشك إلى اختفاء الأصوات القبطية التى لم يمكن أن تمثلها حروف عربية لعدم وجودها [٢] . وصرح فى موضع آخر بأن الأقباط الذين كانوا يتكلمون العربية ، لابد أن تكون لغتهم القبطية قد تعربت [٣] .

٢- فحص Worrell بعض الوثائق القبطية المكتوبة بحروف عربية وانتهى إلى نتيجة فحواها أن لغة هذه الوثائق «يظهر بوضوح كاف وقوعها تحت تأثير العربية لدرجة أنها لايمكن أن يعتمد عليها فى دراسة الأصوات القبطية ، وأن حروف العلة فيها هى تلك الموجودة فى العربية [٤] .

---

(١) عثر على نص قبطى مكتوب بحروف عربية نشره Galtier عام ١٩٠٦ . انظر W. worrell فى كتابه Coptic Sounds ص ٢ و ٥ و ٦ .

(٢) Coptic Sounds ص ٦ ، و Coptic Influence ص ٣ .

(٣) المرجع ص ١٢٢ .

(٤) المرجع والصفحة السابقان .

٣- نشر Chassiant أوراقا بردية طبية قبطية كتبت فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين عثر عليها قرب إخميم . وقد لوحظ أنها تشتمل بكثرة على مصطلحات عربية كتبت بحروف قبطية وأحيانا بحروف عربية . كما لوحظ أن كاتب هذه الأوراق كثيرا ما كان يفضل استعمال المصطلح العربى على مقابله القبطى أو اليونانى [١] .

٤- قارن «اميلينو» بين وثيقتين قبطيتين ، كتبت الأولى فى ولاية عبدالعزيز بن مروان ، والثانية فى القرن الثالث عشر الميلادى فى عصر الملك الكامل ، وحكم بأن «لغة الوثيقة الأولى لغة العصور المزدهرة وليس فيها ما يشعر بالاضمحلال» . أما الثانية فتدل على أن «اللغة القبطية قد أصابها الفساد حيث أدخلت فيها كلمات عربية . ولما كان المؤلف يخطىء فى التعبير فقد كان فهم الوثيقة من الأمور الصعبة» [٢] .

٥- عثر على قصة قبطية مكتوبة فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى . وقد ظهر فيها بوضوح ضعف المؤلف فى اللغة القبطية ، واستعماله لكلمات عربية كثيرة [٣] .

٦- عثر على قصيدة قبطية تعالج موضوعات دينية تهذيبية وترجع إلى القرن الرابع عشر الميلادى ، وقد كتبت بلهجة قبطية صعيدية . وقد عقب Worrell على القصيدة بقوله «اللغة بوجه عام مفتعلة . وأسوأ من هذا فالأبيات منظومة على الطريقة العربية» [٤] .

---

(١) دائرة المعارف Kibt .

(٢) جاك تاجر ص ٣٠٦ .

(٣) دائرة المعارف Kibt .

(٤) A Short Account ص ٤٧ .

٧- أما آثار الثقافة العربية على مفكرى الأقباط فكثيرة ومتنوعة ، ومن أمثلتها :

(أ) انعكاس الثقافة الإسلامية حتى فى كتابات الأقباط الدينية . وأقرب مثال لذلك كتاب الصفى بن العسال المسمى «بالمجموع الصفوى» الذى يتناول فقه المذهب الأرثوذكسى . وواضح فى هذا الكتاب تأثر المؤلف بالفقه الإسلامى فى تقسيم الكتاب إلى قسمين ، عبادات ومعاملات ، وفى عناوين أبوابه ، وحتى فى تقريره للأحكام . وإليكم النص التالى الذى يوضح هذه الفكرة ، وهو عن آداب القاضى : «ويساوى بين الخصمين فى الدخول والجلوس والإقبال عليهما والإنصات إليهما والمخاطبة لهما والعدل فى الحكم لهما أو عليهما . ولا يساور (كذا) أحدهما . ولا يلقنه حجة ، ولا يختصمه ، ولا يحتج له ولو كان قويا وضعيفا ومشروفا وشريفا حتى لايطمع شريف فى حيفه ولا ييأس ضعيف من عدله»[١] . ومثال آخر من كتاب «سير الآباء البطاركة» لسعيد بن بطريق . فمن يقرأ مقدمته يلاحظ إطالة التحميد والدعاء على نحو ما جاء فى أساليب المسلمين ، والحرص على السجع والجناس ، واستخدام مصطلحات إسلامية مثل : عز وجل ، والمنفرد بالوحدانية ...

(ب) تأثر النحاة الأقباط فى كتبهم النحوية بمجهودات العرب فى ذلك . وأنت تخرج بهذه النتيجة بعض تصفحك لكتب النحو القبطية المتقدمة ، حيث

---

(١) المجموع الصفوى ص ٣٦٤ . كما أن للصفى مجموعة خطب دينية استخدم فيها السجع على نظام الخطب الإسلامية . ومما جاء فيها : تحمده حمدا يهدينا إلى رشده فى الغدو والرواح ، ونشكره بالألسنة الفصاح ، والعقائد الصحاح ، ونتوسل إليه بكرمه ، فهو معدن الجود والسماح ، ونرغب إليه بفضله فهو أهل الفضل الأثيل المباح .

تجد تشابها عجيبا بين المنهجين . فالكلمة عند ابن كاتب قيصر تنقسم إلى اسم وفعل وحرف . والاسم هو الذى يخبر به أو يخبر عنه ، وهو ما دخله أحد أدوات التعريف أو التنكير أو التذكير أو التأنيث أو الجمع وما أشبه ذلك ... والحرف مادل على معنى فى غيره ولم يستقل بنفسه ، ولايخبر به ولا يخبر عنه ... ومنها الحروف التى تدخل على المبتدأ والخبر وهى إن وأخوتها ... إلخ . هل تصدق أنك تقرأ فى كتاب يعالج نحو اللغة القبطية ؟ .

ولم يكن هذا سبيل ابن كاتب قيصر وحده ، بل كان سبيل النحاة جميعا حتى ضاق بهم مؤلف قبطى آخر اسمه الشيخ الوجيه القليوبى ، فقال فى مقدمة كتابه المسمى «بالكفاية» : «وقد وضع فى ذلك (النحو القبطى) مقدمات ، إلا أن المفسرين لغلبة أحكام تصريف اللغة العربية عليهم قاسوا أكثر أحكام القبطى عليها . وليس الأمر كذلك ، بل من شرط المخرج من لغة إلى أخرى أن يجرد ذهنه عن اللغة الغالبة ، ويذهل عنها ، ثم يذوق اللغة المخرجة ، ويستحضر جميع أجزائها ، ويستقرى مواضع استعمال أدواتها» .

٨- وأخيرا يكفينا فى مجال الموازنة أن نذكر القارىء بما سبق أن قررناه من هزائم اللغة القبطية المتكررة أمام هجمات العربية ، وفقدها قلاعها واحدة بعد الأخرى ، فما أن جاء القرن العاشر الميلادى حتى كانت قد اهتز عرشها وثلت أركانها وأصبحت لغة ميتة أو شبه ميتة ، وليس يفوق الموت شىء آخر . وقد سبق أن ناقشنا مراحل احتضار اللغة القبطية وأقمنا الأدلة على موتها المبكر . ونضيف الآن ما يأتى إلى ما سبق :

(أ) أن كتب النحو القبطى المؤلفة بلغة عربية بدأت تظهر فى القرن الحادى عشر الميلادى . وقد بدأها أثناسيوس أسقف مدينة قوص ، وتلاه مؤلفون آخرون مثل ابن كاتب قيصر والشيخ الوجيه القليوبى والمؤتمن ابن العسال وابن الدهيرى والسمنودى . وواضح أنها جميعا وضعت لخدمة القارىء الذى يعرف العربية ويريد أن يتعلم القبطية . ولذا فهى تتخذ المثال العربى أصلا ثم تشير إلى مقابله فى القبطية .

(ب) عثر فى بعض الأديرة على مخطوطات قبطية قديمة مليئة بحواش وإضافات باللغة العربية مثبتة على جوانب المخطوطات . ومعنى هذا أن معظم الرهبان ورجال الدين كانوا قد تعلموا القبطية كلغة ميتة أو لغة ثانية ، وأنهم كانوا يفضلون إثبات تعليقاتهم بلغتهم الأولى ، وهى العربية.

(جـ) من الثابت قطعا أنه فى أوائل القرن العاشر تمت ترجمة «سيرة جون الصغير» إلى السريانية من النص العربى وليس من الأصل القبطى .

(د) أنه بجرد مكتبة دير القديس مكاريوس لوحظ أنها فقيرة جدا إلى مخطوطات تنتمى إلى القرون ما بين الحادى عشر والثالث عشر . وقد فسر المستشرق H. White فى مقدمة كتابه : The Monasteries of the Wadi'N Natrun ذلك بقوله : «هذا التدهور يعود إلى حد ما إلى زهد الناس فى قراءة الأدب الدينى ، وإلى حد أكبر إلى أن اللغة القبطية كلغة حية كانت قد وقعت فى هذه الفترة فريسة بين مخالب اللغة العربية».

(هـ) كذلك لوحظ أن القسم العربى من المكتبة كبير جدا مثل القسم القبطى أو أكبر منه . وقد رجح White أن يكون رهبان الدير قد فضلوا فى

قراءاتهم القراءة باللغة العربية ، وإن كانوا قد احتفظوا بالقبطية فى قداساتهم الكنيسية .

(و) عثر ضمن مخطوطات مكتبة الدير السابق الإشارة إليه على معاجم أو قوائم بالألفاظ هدفها مدّ يد العون لقارىء العهد الجديد باللغة القبطية .

(ز) عثر فى نفس المكتبة على بقايا لعشر قوائم تعطى المقابلات العربية للكلمات القبطية (أو اليونانية) المتعلقة بالكتاب المقدس والطقوس الدينية ، يرجع معظمها إلى القرن الثالث عشر الميلادى . والملاحظ أنها كلها معاجم قبطية عربية ، ولايوجد من بينها معاجم عربية قبطية (١) .

(ح) أن نشاط اللغويين الأقباط المتقدمين أمثال إخوة العسال وابن كبر لم يتم بهدف تيسير تعليم الشعب اللغة ، بل بهدف تزويده بمساعد يعينه على فهم لغة القداس وطقوس العبادة .

(ط) أن آخر محاولة بذلت لإحياء اللهجة القبطية الصعيدية تمت فى القرن العاشر الميلادى حيث ظهرت مؤلفات كثيرة اشتملت على نماذج كلاسيكية للأدب الصعيدى والإنجيل وسير القديسين والشعائر الدينية . ثم لم تتم محاولات بعد ذلك .

فلعل القارىء يكون قد تبين الآن بنفسه خطأ ما ردده الدكتور صبحى عن شدة تأثير القبطية على العربية وما ادعاه من أن آثار القبطية فى العربية أكثر من آثار العربية فى القبطية . فقد ظهر أن لاوجه للمقارنة مطلقا ، بالإضافة إلى تمكن اللغة العربية من القضاء على القبطية ، وليس بعد الموت أثر يفوقه .

(١) انظر ص ٢٢٢ The Monasteries of the Wadi'N Natrun, Part 1. .

ولن نجد ما نختم به بحثنا خيرا من قول الدكتور ولسن بشاى : «ومهما يقل عن آثار اللغة القبطية التى تركتها على اللغة العربية عندما كانت اللغتان مستعملتين جنبا إلى جنب ، وكانت اللغة القبطية قوية ، وذلك خلال المرحلة الأولى من الصراع ، فإن هذه الآثار لابد وأن تكون قد زالت أو تلاشت تماما حينما اختفت اللغة القبطية من الوجود كلغة متكلمة وحلت محلها اللغة العربية» .

* * *

وبعد : فإن قصة اللغة العربية واستقرارها فى مصر من القصص الفريدة التى لاتتكرر كثيرا فى التاريخ . ويكفى أن نعلم أن مصر قد تتابع عليها حكام أجانب على امتداد تاريخها الطويل من هكسوس وآشوريين وفارسيين ويونان ورومان دون أن يتمكن أحد منهم من فرض لغته على مصر ، والقضاء على اللغة الوطنية المصرية تماما ، إلى أن جاء العرب فتمكنوا من فرض لغتهم وإحلالها محل القبطية . وما أن تمكنت اللغة العربية فى مصر حتى رسخت رسوخ الجبال، وقاومت هجمات الاستعمار المتنوعة ، واستطاعت أن تصمد أمام تيار الغزو الأجنبى ، سواء كان تركيا أو فرنسيا أو إنجليزيا ، وظلت – ولن تزال – لغة مصر حامية العروبة .

مراجع القسم الأول

أولا : المراجع العربية

١- أحسن التقاسيم ، المقدسي ، «بريل» ١٩٠٦ .

٢- أخبار سيبويه المصرى ، ابن زولاق ، ط أولى ١٩٣٣ .

٣- الأدب العربى فى مصر ، محمود مصطفى - دار الكاتب العربى ١٩٦٧ .

٤- الأدب العربى فى مصر ، دكتور عبدالرزاق حميدة ، مصر ١٩٥١ .

٥- الأدب القبطى قديما وحديثا ، محمد سيد كيلانى ، ط أولى ١٩٦٢ .

٦- الأساس المتين فى ضبط نطق لغة المصريين ، عبدالمسيح المسعودى ، ط مصر.

٧- أصول الكلمات العامية ، حسن توفيق ، مصر ١٨٩٦ .

٨- أقباط ومسلمون ، دكتور جاك تاجر ، مصر ١٩٥١ .

٩- أهل الذمة فى الإسلام ، أ . س . ترتون ، ترجمة حسن حبشى ، دار الفكر ١٩٤٩ .

١٠- بقايا اللهجات العربية ، دكتور أنوليتمان ، مجلة كلية الآداب ، مايو ١٩٤٨ .

١١- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، المقريزى ، تحقيق الدكتور عبدالمجيد عابدين ، ط أولى ١٩٦١ .

١٢- البيان والتبيين للجاحظ - تحقيق عبدالسلام هارون ط أولى .

١٣- تاريخ ابن الراهب ، بيروت ١٩٠٣ .

١٤- تاريخ الأقباط ، زكى شنودة ط أولى ١٩٦٢ .

١٥- تاريخ الأمة القبطية ، لجنة التاريخ القبطى ، ط ثانية ١٩٢٢ .

١٦- تاريخ الأمية القبطية ، أ . ل . بتشر ، ترجمة اسكندر تادرس ، الفجالة ١٩٠١ .

١٧- تاريخ الشيخ أبى صالح الأرمنى ، أكسفورد ١٩٨٤ .

١٨- تاريخ العرب قبل الإسلام ، دكتور جواد على ، ط المجمع العلمى العراقى .

١٩- تاريخ اللغة العربية جورجى زيدان ، القاهرة ١٩٠٤ .

٢٠- تاريخ مصر الإسلامية الجزء الأول للدكتور جمال الدين الشيال ط دار المعارف ١٩٦٧ .

٢١- تاريخ يحيي بن سعيد الأنطاكى ، ١٩٢٤ .

٢٢- التطور اللغوى ، دكتور عبدالرحمن أيوب .

٢٣- تفسير الألفاظ الدخيلة فى اللغة العربية ، طوبيا العنيسى ، ط ثانية ١٩٣٢ .

٢٤- التكملة فيما تلحن فيه العامة ، الجواليقى ، ملحق بلف القماط .

٢٥- تهذيب الألفاظ العامية ، محمد على الدسوقى ، ١٩١٣ .

٢٦- حسن المحاضرة ، السيوطى ، القاهرة ١٣٢١ هـ .

٢٧- حضارة مصر فى العصر القبطى ، دكتور مراد كامل ١٩٦٨ .

٢٨- حياة النثر فى مصر ، دكتور بهى الدين محمد زيان ، رسالة دكتوراه بكلية الآداب ، جامعة القاهرة .

٢٩- الخطط ، المقريزى ، بولاق ١٢٧٠ هـ .

٣٠- الدخيل فى اللغة العربية ، دكتور فؤاد حسنين ، مجلة كلية الآداب .

٣١- دراسة الصوت اللغوى ، دكتور أحمد مختار عمر - عالم الكتب بالقاهرة ١٩٧٦ .

٣٢- دلالة الألفاظ العربية ، دكتور مراد كامل ، معهد الدراسات العربية ١٩٦٣ .

٣٣- الرسالة ، الإمام الشافعى ، تحقيق أحمد شاكر ، ط أولى ١٩٤٠ .

٣٤- رسالة الكلمات الغير العربية ، حمزة فتح الله ، بولاق ١٩٠٢ .

٣٥- السلم الكبير ، ابن كبر ، مخطوطة بالمكتبة التيمورية .

٣٦- السلم المقفى ، ابن العسال ، مخطوطة بالمكتبة التيمورية .

٣٧- سير الاباء البطاركة ، سويرس بن المقفع ، باريس ١٩٠٧ وما بعدها .

٣٨- شخصية مصر ، دكتور جمال حمدان ، الجزء الثانى - عالم الكتب القاهرة ١٩٨١ .

٣٩- صبح الأعشى ، القلقشندى ، ط دار الكتب .

٤٠- العربية ، يوهان فوك ، ترجمة دكتور عبدالحليم النجار ، القاهرة ١٩٥١ .

٤١- فتح العرب لمصر ، ألفرد بتلر ، ترجمة محمد فريد أبو حديد ، دار الكتب ١٣٥١ هـ .

٤٢- فى الأدب المصرى الإسلامى ، دكتور محمد كامل حسين .

٤٣- فى اللهجات العربية ، دكتور عبدالحليم النجار ، مجلة كلية الآداب ، مايو ١٩٥٣ .

٤٤- قبائل العرب فى مصر ، أحمد لطفى السيد ، ط أولى .

٤٥- القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، دكتور عبدالله خورشيد البرى - دار الكاتب العربى ١٩٦٧ .

٤٦- قواعد اللغة المصرية القبطية ، دكتور جورجى صبحى ، ١٩٢٥ .

٤٧- قواعد اللغة المصرية فى عصرها الذهبى ، دكتور عبدالمحسن بكير ، ط أولى.

٤٨- كتاب البرهان ، سعيد بن بطريق ، ١٩٦٠ .

٤٩- كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، سعيد بن بطريق ، بيروت ١٩٠٥ .

٥٠- لحن العوام ، الزبيدى، تحقيق دكتور رمضان عبدالتواب ، ط أولى ١٩٦٤ .

٥١- لسان العرب ، ابن منظور ، ط بيروت .

٥٢- اللغة القبطية ، جرجس فليوثاؤس عوض ، مصر ١٩١٦ .

٥٣- لف القماط ، محمد صديق خان ، ط الهند .

٥٤- المتوكلى ، السيوطى ، دمشق ١٣٤٨ هـ .

٥٥- المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول للدكتور شكرى فيصل ١٩٥٢ .

٥٦- المجلة القبطية ، جرجس فيلوثاؤس عوض .

٥٧- المجموع الصفوى ، ابن العسال ، تحقيق جرجس فيلوثاؤس عوض ، ط أولى.

٥٨- مجموعة الألفاظ القبطية المتداولة ، أقلوديوس لبيب ، ط أولى .

٥٩- المحاضرة الأولى عن الأوراق البردية العربية ، دكتور أدولف جروهمان دار الكتب ١٩٣٠ .

٦٠- المحكم فى أصول الكلمات العامية ، دكتور أحمد عيسى ، ط أولى ١٩٣٩ .

٦١- مصر العربية الإسلامية للدكتور على حسنى الخربوطلى ، الأنجلو ١٩٦٣ .

٦٢- مصر في فجر الإسلام ، دكتورة سيدة إسماعيل الكاشف ، ط دار الفكر ١٩٤٧ .
٦٣- مقدمة ابن خلدون ، طبع المطبعة الشرفية .
٦٤- مقدمة في نحو اللغة القبطية، ابن كاتب قيصر ، مخطوطة بالمكتبة التيمورية.
٦٥- مقدمة في نحو اللغة القبطية ، ابن العسال ، مخطوطة بالمكتبة التيمورية .
٦٦- مقدمة في نحو اللغة القبطية ، ابن الدهيري ، مخطوطة بالمكتبة التيمورية .
٦٧- مقدمة في نحو اللغة القطية ، السمنودي ، مخطوطة بالمكتبة التيمورية .
٦٨- المقدمة في نحو اللغة القبطية ، الوجيه القليوبي ، مخطوطة بالمكتبة التيمورية.
٦٩- المكافاة ، ابن الداية ، ط أولى ١٩١٤ .
٧٠- من أسرار اللغة ، دكتور إبراهيم أنيس ، الانجلو ، ط ثانية .
٧١- من أصول اللهجات العربية في السودان ، دكتور عبدالمجيد عابدين ، ط أولى ١٩٦٦ .
٧٢- المنجد في اللغة لكراع النمل ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٩٠ لغة .
٧٣- النثر الفني في القرن الرابع ، دكتور زكي مبارك ، ط أولى ١٩٣٤ .
٧٤- النجوم الزاهرة ، ابن تغري بردي ، ط دار الكتب .
٧٥- النحو الوافي ، عباس حسن ، ط المعارف .
٧٦- نظرات في الصرف العربي ، دكتور كمال بشر ، حلقة البحث العلمي بكلية دار العلوم .
٧٧- الولاة والقضاة ، الكندي ، بيروت ١٩٠٨ .

ثانيا – المراجع الأجنبية

1- A History of Egypt, Lane Poole, 1925.

2- An Introductory Coptic Grammar, Prof, Plumley, 1948.

3- Arabic Linguistic Studies in Egypt. A.m. Omer, Ph. D. Cambrige.

4- Arabic Papyri, Adolf Grohmann, Cairo, 1934.

5- A Short Account of the Copts, William Worrell, U.S.A. 1945.

6- Characteristics of the Hamitic Languages, O'Leary.

7- Colloquial Arabic, De Lacy O'leary, London, 1963.

8- Common words in the Spoken Arabic of Egypt, of Greek or Coptic Origin, G. Sobhy, Cairo, 1950.

9- Conversion and the pool-Tax in Early Islam. D. C. Dennett, Combridge, 1950.

10- Coptic Sounds, William worrell, U.S.A. 1934.

11- Coptic Texts from Deir el-Bala'izah in Upper Egypt, Paul E. Kahle, Oxford, 1954.

12- Coptic Texts, William Woorrell, U.S.A. 1942.

13- Elements of the Science of Language, Irach J. Sorabji, Calcutta. 1932.

14- Encyclopaedia Americana, Coptic Language and Literature.

15- Encyclopaedia Britannica fifteenth ed., 1985, Coptic Church and Coptic Language.

16- Encyclopaedia of Islam, Kibt.

17- Fragments of an Arabic MS. in Coptic Script, (New Texts from the Monastery of Saint Macarius) , G. Sobhy .

18- From the World of Arabic Papyri, Adolf Grohmann, Cairo 1952.

19- Language, J. Vendryes, London, 1925.

20- Notes on the Alleged Coptic Morphological Influence on Egyptian Arabic, Heikki Palva, Orientalia Suecana, Uppsala, 1969 - 1970 .

21- Notes on the Coptic Language, O'Leary, Orientalia, 1934.

22- Notes on the Coptic Substratum in Egyptian Arabic, wilson Bishai, J.A.O.S., 1960 .

23- Prominece and Syllabication in Arabic, T. Mitchell, B.S.O.A.S., London, 1960 .

24- Studies in Arabic Literary Papyri, Nabia Abbott, 1957.

25- Survivals of Ancient Egyptian in Modern Dialects, G. Sobhy, Ancient Egypt, 1921.

26- The Administration of Egypt, H. Bell, Leipzig, 1928 .

27- The Alphabet, David Diringer, London, 1949.

28- The Coptic Influence on Egyptian Arabic, Dr. Wilson B. Bishai, Ph.D. thesis, Johns Hopkins University, Baltimore, 1959.

29- The Kurrah Papyri, Nabia Abbott, Chicago, 1938.

30- The Modern Pronunciation of Coptic in the Mass, J. D. Prince, J.A.O.S., 1902 .

31- The Monasteries of the Wadi'N Natrun, H. White, New York.

32- The People of Sharqiya, Abbass Ammar, Cairo, 1944.

33- The Persistence of Ancient Coptic Methods of Medical Treatment in Present-Day Egypt, G. Sobhy, Coptic Studies in Honour of W. Crum, Boston, 1950 .

34- The Saints of Egypt, O'Leary, 1937.

35- The Triumph of the Alphabet, A.C. Moorhouse, New York, 1953.

القسم الثانى

اللغة العربية فى المغرب الأدنى

مقدمة القسم الثانى

تأتى هذه الدراسة عن استطيان اللغة العربية فى المغرب الأدنى كالأثر أو النتيجة لاستيطانها فى مصر . فلم تكن المناطق الشرقية من المغرب العربى أثناء تبعيتها تدار مباشرة من مركز الخلافة ، وإنما من مصر . ولم تكن جيوش المسلمين تأتى من المدينة أو دمشق أو بغداد ، وإنما من مصر . كما أن حركات التهجير أو الاستيطان للقبائل العربية لم تكن تتزود بالأمداد من الجزيرة العربية ، وإنما من القبائل العربية المقيمة فى مصر .

وإذا كان انتشار الإسلام وتوافد العنصر العربى إلى البلاد المفتوحة أهم عاملين من عوامل توطين اللغة العربية وتوطيد دعائمها ، فإن محدودية أثر العامل الثانى فى منطقة الدراسة ، وضعف أثره فى القرون الأولى كان له أكبر الأثر فى تأخر انتشار اللغة العربية فى هذه البلاد كلغة أولى بالنسبة لسرعة انتشارها فى مصر .

وقد سبق أن نشرت هذه الدراسة كجزء من دراسة مطولة عن ليبيا ، كما سبق أن ذكرت فى مقدمة الكتاب العامة . ولكن لما كانت حدود ليبيا فى ذلك الوقت لاتتطابق مع حدودها فى العصر الحاضر ، وإنما كانت فى غالب أمرها جزءا من مناطق تمتد إلى الشرق أو الغرب[1] – فقد رأيت أن أستبدل بلفظ «ليبيا» لفظا آخر أوسع وأشمل ، وهو «المغرب الأدنى» الذى يغطى – إلى جانب ليبيا – أجزاء من تونس والجزائر الحالية .

---

(١) كانت منطقة برقة تتبع فى كثير من الأحيان مصر ، وقد يكون لها استقلالها الخاص . وكانت المناطق الساحلية من طرابلس تستقل أحيانا بوضع خاص عن المناطقة الجنوبية من طرابلس ، وكانت أحيانا تتحد معها . وفى كلتا الحالتين كانت تعد إداريا جزءا من مناطق تمتد إلى جهة الغرب .

الباب الأول

دراسات تمهيدية

الفصل الأول

البربر قبل الإسلام

أصل البربر :

يعد البربر أقدم سكان الشمال الإفريقى المعروفين لنا ، أو على الأقل من أقدم السلالات المعمرة فى الشمال الإفريقى [١] ، وقد كانوا حين الفتح الإسلامى طائفتين : طائفة الحضر وطائفة الرحل . أما الأولون فكانوا يسكنون النواحى الشمالية الخصبة والسفوح المزروعة ، وهؤلاء بمرور الزمن اندمجوا فى الروم ونسى بعضهم قوميتهم وعاداتهم [٢] . وأما الآخرون فكانوا يسكنون الصحارى والواحات والجبال ، وهؤلاء احتفظوا بقوميتهم وعاداتهم ، وكثيرا ما قاوموا الروم ، ولم يتركوا فرصة للثورة عليهم إلا انتهزوها ، حتى إنه بمجىء القرن السابع الميلادى كان نفوذ الروم قد تقلص من داخل البلاد وانحصر فى السواحل [٣] .

وآثار البربر تدل على أنهم جيل عزيز ، مرهوب الجانب ، شديد البأس ، كثير الجمع ، مضاه للأمم العالم وأجياله من العرب والفرس والروم . وهناك آراء متعددة فى بيان أصل البربر ، وموطنهم الأول ، وكيفية وجودهم فى الشمال

---

(١) الجوهرى : السلالات البشرية ص ٣٢٧ .

(٢) الزاوى : تاريخ الفتح العربى ص ٢٨ .

(٣) المرجع والصفحة ، وشيت خطاب : قادة فتح المغرب العربى ١/ ١٧ ، ١٨ .

الإفريقى لايخرج بعضها – فى الحقيقة – عن أن يكون مجرد فروض [١] . وأهم هذه الآراء :

١– أن البربر كانوا يسكنون فلسطين ، وكان ملكهم جالوت . فلما قتله داود عليه السلام خرج البربر متوجهين إلى المغرب حيث انتهوا إلى لوبية ومراقية ، وهما كورتان من كور مصر الغربية فتفرقوا أولا هنالك ... [٢] . وقيل إن الذى أخرجهم من فلسطين بعض ملوك فارس [٣] . ويذكر بعضهم أن تلك الهجرة كانت فى العصر الحجرى وقبل ميلاد المسيح بمدة لاتقل عن ثلاثين قرنا [٤] . ويفهم من كلام صاحب الاستقصا أن هجرة البربر إلى الشمال الإفريقى تمت على مرحلتين ، المرحلة الأولى فى فترة متقدمة من التاريخ حين تنازع بنو حام مع بنى سام فترك عدد منهم فلسطين وذهبوا إلى المغرب . أما الباقون فظلوا بفلسطين حتى زمن داود ، فلما قتل داود جالوت أمر بإجلائهم عن بلاد كنعان وفلسطين إلى أرض المغرب [٥] .

٢– أن البربر نشأوا بالمغرب وليسوا منقولين من مكان آخر [٦] .

---

(١) يقول مبارك الميلى معبرا عن ذلك : «الحديث فى أصل البربر من أكثر الأحاديث اضطرابا وأوسعها خلافا ، بحث فيه المؤرخون قديما وحديثا وأطالوا البحث ولكنهم لم يحصلوا من ذلك إلا على روايات متضاربة وآراء متناقضة» (تاريخ الجزائر فى القديم والحديث ص ٤٨) ويقول صاحب الاستقصا : «واعلم أن الخلاف فى نسب البربر طويل وقد تركنا جله اختصارا» (٦٣/١) .

(٢) ابن عبدالحكم : فتوح مصر وأفريقية ، مقتبس فى إحسان عباس : ليبيا فى كتب التاريخ والسير ص ٢٩ .

(٣) عبدالمنعم عبدالعال : لهجة شمال المغرب ص ٣٢ .

(٤) دبوز : تاريخ المغرب الكبير ٢٣/١ .

(٥) الاستقصا ٦٠/١ .

(٦) تاريخ الجزائر ص ٤٨ .

٣- أن أصلهم من اليمن من عرب حمير [1] .

٤- أن أصلهم من عرب الشمال ، وبالتحديد من لخم وجذام .

٥- والرأى الذى اختاره ابن خلدون أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح ، وذكر أن أبناء حام ثلاثة : كنعان جد البربر - ومصرايم جد قدماء المصريين - وفلسطين جد الفلسطينيين القدماء [2] .

والذى يهمنا من رأى ابن خلدون ما توصل إليه من أن البربر حاميون وليسوا ساميين وهو الرأى الذى ترجحه الدراسات اللغوية المقارنة التى تربط اللغتين البربرية والمصرية القديمة برباط واحد وتضعهما فى مجموعة واحدة كما سنفصل الحديث فيما بعد .

٦- ويفرق جوستاف لوبون بين نوعين من البربر فيقول : إن المهاجرين السود الشعور قد أتوا من شواطىء الفرات ومن شمالى الجزيرة العربية أو من مكان أبعد من ذلك ، أما المهاجرون الشقر الشعور الزرق العيون فقد جاءوا من شمالى أوربة [3] .

وخطورة هذا الرأى أنه من ناحية يدعى وجود جنسين متميزين أو عصبيتين مختلفتين ، ومن ناحية أخرى يريد أن يخلق شعورا عند بعض البربر بانتمائهم إلى أصل أوربى حتى يقتل عندهم الإحساس بالشخصية المستقلة ، ويوهمهم أن

---

(١) الزاوى : تاريخ الفتح العربى ص ١٧ .

(٢) عبدالمنعم عبدالعال : لهجة شمال المغرب ص ٢٢ .

(٣) حضارة العرب ص ٢٤٤ . وقد علل د. محمد عوض محمد فى كتابه : الشعوب والسلالات الإفريقية وجود الشقرة عند بعض السكان بوجود هجرات أوربية شمالية (ولكن فى وقت لاحق) ونزول أصحابها بديار المغرب (ص ٢٤٢ ، ٢٤٣) .

ارتباطهم بفرنسا وأوربا ارتباط قوى من قديم ، ولذا لا يوجد معنى لمقاومة الاستعمار الأوربى من أى نوع .

وشبيه بهذا الرأى ما حاوله رين Rinn من ادعاء انتماء البربر إلى أصول أوربية متعددة معتمدا على بعض المقارنات اللغوية اللفظية [١] .

٧- وهناك نظريات أخرى مثل القول بأنهم من الفرس ، أو من الهند ، أو من أخلاط شتى [٢] .

أصل كلمة بربر :

كما اختلف فى أصل البربر ، اختلف فى أصل الكلمة نفسها وأول من استعملها :

١- فقيل إن البربر سموا أنفسهم بذلك انتسابا إلى جدهم «بربر بن تملا» وقد عرفوا بهذا الاسم من قبل الفتح الإسلامى وقبل أن يعرفهم العرب [٣] .

٢- وقيل إن أول من سماهم بذلك أفريقس بن قيس بن صيفى من ملوك التبابعة لما غزا المغرب وإفريقية وبنى المدن والأمصار . فحين سمع رطانتهم ولاحظ اختلافها وتنوعها تعجب من ذلك وقال : ما أكثر بربرتكم . فسموا بالبربر [٤] .

---

(١) تاريخ الجزائر ١/ ٥١ .

(٢) المرجع السابق ١/٤٩ و ٥٠ ، الاستقصا ١/٦٠ .

(٣) تاريخ المغرب الكبير ١/٢٦ .

(٤) دائرة معرف البستانى ٥/٢٧٧ .

٣- ويروى بعضهم أن الكلمة يونانية الأصل وأنها مشتقة من لفظ «فرفاروس» التى تعنى أصلا : اللفظ أو الصوت الذى يصدره الألثغ . ثم صار اليونانيون يطلقونها على كل من يتكلم بلغة تختلف عن لغتهم . ولذلك سموا إيطاليا «برباريا» [١] .

٤- ويرى بعض آخر أنها مشتقة من لفظ لاتينى قديم هو Barbarus أى المتلعثم فى كلامه . ويظهر أن الرومان لم يستطيعوا فهم لغة البربر فأطلقوا على أصحابها هذا الاسم [٢] .

٥- ويذهب بعضهم إلى أنها مأخوذة من لفظ «وروَرا» باللغة السنسكريتية ومعناه: «غريب» [٣] .

٦- ويقال إن العرب هم الذين أطلقوا هذا الاسم على سكان شمال إفريقية جميعا، وسبب التسمية عدم فهم العرب للغتهم [٤] . ولكن يعترض محمد ديوز على هذا الرأى قائلا : «ولو صح هذا لسموا كل جنس لايفهمون لغته بربرا كأقباط مصر ولغتهم حامية كلغة البربر» [٥] .

---

(١) المرجع السابق ٥/٢٧٦ .
(٢) ملامح المغرب العربى ص ٥٥ .
(٣) البستانى فى دائرة معارفه ٥/٢٧٧ .
(٤) ملامح المغرب العربى ص ٥٥ ، وتاريخ المغرب الكبير ١/٢٦.
(٥) السابق ١/٢٦ .

أصل اللغة البربرية [1] :

أما الحديث عن أصل اللغة البربرية ، وإلى أى المجموعات اللغوية تنتمى فحديث طويل متشعب ، وتتباين فيه وجهات النظر بشكل ملحوظ ، وذلك لأنه يعالج لغة ذات تاريخ طويل لايرجع فقط إلى عهد اليونان أو الرومان ولكن إلى فترة ما قبل التاريخ [2] .

والخلاف فى أصل اللغة البربرية لايخرج فى مجموعه عن النظريات الأربع الآتية :

١- أنها تنتمى إلى مجموعة اللغات السامية .

٢- أنها تنتمى إلى مجموعة اللغات الحامية .

٣- أما النظرية الثالثة فهى تجمع الرأيين السابقين وتضع المجموعتين فى مجموعة واحدة .

٤- وأما النظرية الرابعة فتخرج البربرية عن المجموعة السامية أو الحامية وتعتبرها أخلاطا أو مزيجا من لغات متعددة معظمها أوربى .

وإليكم الحديث عن كل نظرية بالقدر الذى يسمح به المقام :

---

(١) هل يصح اعتبار البربرية لغة واحدة ذات لهجات متعددة ، أو هى مجموعة من اللغات المختلفة ؟ تختلف نظرة اللغويين فى ذلك ، فمنهم من يعتبر البربرية لغة ، ويعد الخلاف بين متكلميها – وإن كان كبيرا – خلافا لهجيا ، ومن هؤلاء O. Bates الذى يقول عن البربرية : «والتفاوت كبير بين اللهجات وإن وجد تشابه أساسى فى النحو والمفردات» (ص ٧٣ The Eastern Libyans) كذلك اعتبرها لغة مؤلفا Libyan Notes (ص ١٠) . ومنهم من يعتبرون البربرية مجموعة من اللغات ولذلك أطلقوا عليها اسم «اللغات البربرية» ومن هؤلاء Applegate فى بحثه The Shelha (ص ٣٢٤) .

(٢) The Eastern Libyans ص ٧٩ .

١- أما أصحاب النظرية الأولى فهم أولئك الذين يرون أن سكان الشمال الإفريقى القدامى يرجعون إلى أصل سامى وأنهم نزحوا إما من اليمن بعد انفجار سد مأرب أو من العراق بعد حدوث طوفان مدمر [١] . ويؤيد أصحاب هذه النظرية دعواهم بما يوجد من تشابه بين البربرية ومجموعة اللغات السامية مثل تلك الأصوات التى نجدها فى البربرية وقلما نجدها فى غير اللغات السامية كالحاء والضاد والغين [٢] .

وهذه النظرية – فى الحقيقة – تبدو ضعيفة ، ولا تقوى على الصمود أمام ما وجه إليها من اعترضات كما سيأتى عند عرض النظرية الثانية .

٢- أما النظرية الثانية فتبدو أقوى النظريات وأقربها إلى العلمية . وقد توصل إليها أصحابها بعد إجراء مقارنات متعددة بين اللغة البربرية واللغات السامية من ناحية ، وبينها وبين الحامية من ناحية أخرى .

وقد كان البروفسر Francis Newman (عام ١٨٣٦) أول من أنكر الأصل السامى للغة البربرية [٣] ، كما أن من أصحابها عالم الساميات القدير Renan الذى يقول : إنه رغم وجود شبه بين البربرية وبعض الساميات فهى مختلفة عنها ، ولايوجد تشابه بين أى لهجة بربرية ولغة سامية مثل التشابه الموجود بين لغتين ساميتين [٤] . ويقول Sergi فى كتابه المشهور The Mediterranean Race :

---

(١) حسن سليمان محمود : ليبيا بين الماضى والحاضر ص ٢٧ ، والأدب المغربى لابن تاويت وعفيفى ص ٢٦ .

(٢) حسن سليمان محمود ص ٢٨ ، وسعد زغلول . تاريخ المغرب العربى ص ٥٧ ، ٥٨ .

(٣) Libyan Notes ص ١٠ .

(٤) The Eastern Libyans ص ٧٣ .

«اللغة البربرية حامية وهى قريبة الصلة بالمصرية وغيرها من الحاميات الشرقية» .
ويقول : «ولا يمكن أن نقول إن الليبيين لم يكونوا حاميين وإنهم اكتسبوا اللغة الحامية من الغزاة ، لأنا نعلم أن المصريين لم يغزوا هذه البلاد . وإذا كان قد حدث هذا فقد كان محصورا فى بعض القبائل الشرقية ولفترة محدودة . حقا إن مصر قد أقامت علاقات تجارية مع القبائل الداخلية ، ولكن لم يكن لها سلطان سياسى عليها . وعلى هذا فاللسان البربرى هو اللسان الأصلى لهذا الفرع الحامى»(١) .

ويميل إلى هذا الرأى كذلك الأستاذ مبارك الميلى الذى يقول : «فأما اللغة فلا مشابهة بين لغات البربر واللغات السامية نحوا وتصريفا ولها مشابهة من حيث التركيب بلغة قدماء المصريين والنوبة والحبشة والصومال والهوصا ..»(٢) .

ويؤيده أيضا الدكتور يسرى الجوهرى فى كتابه السلالات البشرية إذ يقول: «الليبيون من الناحية اللغوية ينتمون إلى الحاميين كما أنهم من الناحية السلالية يشبهون جيرانهم المصريين وغيرهم من الشعوب التابعة للفرع الشرقى من الحاميين»(٣) .

أما المشابهات بين البربرية والمصرية القديمة – وهى أيضا حامية – فأهمها التشابه فى النظام الفعلى ، وفى نظام الجمع والضمائر . كما أن مقارنة المفردات فى اللغتين تثبت أن هناك قدرا مشتركا بينهما فى الكلمات البدائية(٤) .

---

(١) ص ٥٦ .
(٢) تاريخ الجزائر فى القديم والحديث ١/٥١ .
(٣) ص ٣٢٩ .
(٤) انظر ص ٨١ من The Eastern Libyans . وقد ضرب المؤلف أمثلة للكلمات البدائية المشتركة بين اللغتين فانظرها فى الصفحات ٨١ – ٨٣ .

ويعلق Oric Bates على ذلك بقوله : «وإن الوحدات المشتركة فى مفردات البربرية والمصرية ، والتشابه النحوى المثير يجعل من الممكن الاطمئنان إلى القول بوجودعلاقة قوية بينهما»[١] .

ويمكن دعم هذا الرأى كذلك بالاكتشافات الأثرية الحديثة للألفبائية البربرية التى يربطها العلماء بنظام هجائى مشترك يشمل كريت ومصر وكل الشمال الإفريقى وأسبانيا . وسنزيد هذه النقطة تفصيلا فيما بعد .

ولا ينكر أصحاب هذه النظرية وجود بعض مشابهات بين البربرية واللغات السامية ولكنهم يلفتون النظر إلى الحقائق الآتية :

أ- على الرغم مما لوحظ من وجود عدد مشترك من الجذور بين البربرية والساميات فإن الأغلبية العظمى من المفردات مستقلة [٢] .

ب- أن التشابه بين البربرية وبعض اللغات السامية مرجعه التشابه بيه المجموعتين الحامية والسامية ، فقد ثبت بالمقارنة وجود تقارب بينهما فى بعض الخصائص الصوتية ، وفى خاصية الأصل الثنائى أو الثلاثى ، وفى نظام الضمائر وفى بعض طرق الاشتقاق [٣] .

جـ- بعض هذا التشابه مرجعه أسباب سياسية مثل الغزو والفتوحات القديمة [٤] .

---

(١) المرجع السابق ص ٨٤ .

(٢) Libyan Notes ص ١٠ .

(٣) Barton فى : Semitic and Hamitic Origins ص ٢١ - ٢٣ . وبعد أن عدد المؤلف أحد عشر وجه شبه (ص ١٧ - ٢٥) قال : «الفحص اللغوى يثبت وجود علاقة بين المجموعتين الحامية والسامية» (ص ٢٥) .

(٤) سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ص ٥٨ .

د- اعترف فريق من المؤرخين أن بعض القبائل البربرية التى وجدت أثناء الفتح ذات أصل عربى ومن بينها صنهاجة وكتامة ذات الأصل اليمنى [١] . ومعنى هذا أنه وجد تلاق بين الحامية والسامية ، أو بين البربرية وعربية هاتين القبيلتين فى فترة ما من فترات التاريخ سمح بنوع من التبادل ، أو التأثير والتأثر .

٣- وأما النظرية الثالثة فيريح أصحابها أنفسهم من هذا الصراع بين أنصار الأصل الحامى أو الأصل السامى ، ويربطون المجموعتين برباط واحد ، أو أصل مشترك سماه بعضهم «المجموعة الأفرو آسيوية» وبعضهم «المجموعة الحامية السامية» . ويعتمد هؤلاء وأولئك فى ربطهم المجموعتين فى مجموعة واحدة على النقاط الآتية :

(أ) اللغات الحامية تختلف عن سائر لغات إفريقية .

(ب) اللغات الحامية تبدو مشابهة بقدر كبير للغات السامية مما يسمح بالقول بوجود قرابة لغوية قوية بينهما .

(جـ) أن الساميات تبدو وكأنها تطور عن الحاميات . إنها صورة خاصة للحاميات تطورت فيها اللغة إلى أن تكون إعرابية [٢] .

(د) ما نادى به عالم المصريات القدير Adolf Erman من أن ما يسمى بالجنس الحامى ماهو إلا سامى هاجر إلى إفريقية من جنوب الجزيرة العربية ثم اختلط بدماء إفريقية متنوعة [٣] .

---

(١) لهجة شمال المغرب ص ٣٣ .

(٢) A Study of Race in the Ancient Near East ص ٥٥ .

(٣) Semitic and Hamitic Origins ص ١٠ .

ومن أصحاب هذه النظرية جرينبرج الذى يعد من أقدر علماء اللغات فى العصر الحاضر . وقد نادى بنظريته هذه بعد أن قدم دراسة عن اللغات الإفريقية استغرقت السنوات من ١٩٤٩ إلى ١٩٥٥ ، وانتهى إلى القول بأن لغة البربر واللغات السامية تمتّ كلها إلى أصل واحد سماه «المجموعة الأفرو آسيوية» . كما أن من أصحابها مارسيل كوهين الذى نادى بأن اللغات الحامية ليست – فى حد ذاتها – وحدة تقف موقف التقابل من اللغات السامية ، بل إنهما يكونان أسرة أكبر هى «المجموعة الحامية السامية»(١) .

٤– وأما النظرية الرابعة فهى أضعف النظريات وأبعدها عن الواقع . وقد نادى بها فريقان من العلماء ، أحدهما يضم أولئك الذين عجزوا عن رد اللغة البربرية إلى مجموعة معينة ، ومنهم علماء عاشوا فى الفترة التى سبقت الدراسة الجادة لهذه اللغة ومقارنتها بغيرها من اللغات ليمكن التنبؤ بأصلها . أما الفريق الآخر فيضم بعض الساسة المحترفين الذين يزيفون الحقائق العلمية لخدمة أغراضهم الاستعمارية .

فمن الفريق الأول Joseph Applegate الذى يعتبر اللغات البربرية تشكل مجموعة لغوية مستقلة تسمى «مجموعة اللغات البربرية» التى تشمل لغات مثل الـ Shilha والـ Rif والـ Touareg والـ Kabyle وغيرها (٢) . ومنهم Peyronnet الذى يرى أن البربرية لغة غريبة مجهولة الأصل(٣) .

---

(١) انظر : Encyclopaedia Britannica مادة African Languages ، الشعوب والسلالات الإفريقية لمحمد عوض ص ٣٣٨ ، إفريقية الأرض والناس لمحمد عبدالفتاح ص ١٤٠ – ١٤٢ ، أزمة المغرب الأقصى لروم لاندو ص ٩٦ .

(٢) انظر : The Middle East Journal الجزء الثانى العدد الثالث سنة ١٩٥٧ ص ٣٢٤

(٣) تاريخ الجزائر فى القديم والحديث ٨٥/١ .

أما الفريق الثانى فيضم عالمين كبيرين أحدهما M. Olivier الذى نشر بحثا حاول فيه أن يظهر القرابة بين الجذور البربرية والجذور الهند أوربية . ويعلق مؤلفا كتاب Libyan Notes على ذلك بقولهما : «ولكن الأمثلة التى ذكرها أبعد عن أن تقنعنا بما ذكر . بالإضافة إلى أن علم اللغة الآن قد تقدم إلى الأمام وخلف وراءه مرحلة الزعم بأن وجود تشابه قريب أو بعيد بين المفردات يمكن أن يؤدى إلى القول بوجود علاقة بين لغات لاتتفق فى تركيبات صيغها»[1] . وأما الآخر فهو Rinn الذى ناظر بين ألفاظ بربرية وأخرى هندية أوربية ، وانتهى إلى القول بأن مفردات اللغة البربرية ترجع إلى أصول إيطالية قديمة وألمانية وإنجليزية وسويدية ونرويجية . بل لم يكتف بذلك فطار إلى روسيا وأتانا منها بمفردات أتعب نفسه فى تقريبها من مفردات بربرية . ويعقب الأستاذ مبارك الميلي على هذا بقوله : «لقد كتب بقلم سياسى لا بقلم علمي . يريد أن يمزق البربر ويوزعهم على أمم أوربية لكى يسهل على البلعوم الأوربي ابتلاعهم»[2] .

خصائص اللغة البربرية :

من خصائص اللغة البربرية ما يأتى :

١- الابتداء بالساكن وتتابع السواكن مثل : تْزالّيتْ بمعنى الصلاة ، وتْمارْتْ بمعنى الحية ، وتْفُوِيتْ بمعنى الشمس ، وتْفاوْتْ بمعنى النار .

٢- قد ينقلب فيها الفعل اسما والاسم فعلا .

---

(١) ص ١٠ .

(٢) تاريخ الجزائر فى القديم والحديث ١/٥٢ و ٥٣ .

٣- تاء التأنيث فيها تكون فى أول الاسم لا فى آخره . وقد يختم الاسم بتاء كذلك، لكن لابد من تاء فى أوله ، كقولهم : تامَطوتْ بمعنى امرأة ، وتامْرُوت بمعنى بندقية .

٤- يكثر بدء أسمائها بالهمزة مثل أجَنًّا بمعنى السماء .

٥- علامة التثنية فيها كلمة وليست حرفا ، فتثنية إتّرِى (النجم) : سَنْ إيتّران ومعناها : اثنان من النجوم . (سن = اثنان و إيتران = جمع إتّرِى) .

٦- الماضى يبتدىء بالياء ، والمضارع والأمر بالهمزة . وقد يكون الأخير بدون همزة كما فى العربية . ومثاله سُو بمعنى اشرب [١] . وفى بعض اللهجات يضاف للماضى سابقة هى tsou أو tsoua .

٧- عدم وجود أدوات . أما السابقة «أل» الموجودة فى البربرية الحديثة فمأخوذة من العربية .

٨- وجود علامة للمذكر وهى البدء بـ «أ» أو «إ» .

٩- تشكيل المستقبل عن طريق إضافة السابقة Ad (d = ذ) للماضى .

١٠- الضمائر نوعان متصلة كلواحق بالأسماء أو الحروف أو الأفعال ، ومستقلة باعتبار كل منها فاعلا لفعل .

١١- هناك فرق فى الصيغة بين الضمير المتصل المباشر وغير المباشر .

١٢- الأفعال التى تنصب مفعولين تشكل عن طريق السابقة S للجذر [٢] .

---

(١) دبوز ٤٩/١ وأمثلته مأخوذة من البربرية الميزابية وهى بربرية موجودة فى الصحراء بجنوب الجزائر .

(٢) Libyan Notes ص ١٣ .

١٣- الجمع يشكل عن طريق تغيير داخلى أو تغيير خارجى .

١٤- تتبع الصفات الأسماء فى التذكير والتأنيث وغيره .

١٥- يقع الفعل فى أول الجملة ثم الفاعل ثم المكملات[١] .

الخط البربرى :

ظل العلماء حينا من الدهر يظنون أن البربرية لغة منطوقة لامكتوبة حتى ظهر فساد هذا الرأى بعد الكشوف الحديثة التى تمت فى مناطق متعددة من الشمال الإفريقى موطن البربر القدماء .

ويقول مؤلفا Libyan Notes : «إن الاكتشاف الذى انتهت إليه بحوث الأستاذ A.J. Evans والبروفسور F. Petrie ، وهو أن الألفبائية التى ظهرت فى كثير من النقوش التى عثر عليها فى كل الشمال الإفريقى - تشكل جزءا من نظام واحد مشترك بين كريت ومصر من ناحية وأسبانيا وغيرها من ناحية أخرى - هذا الاكتشاف يعد واحدا من أهم الاكتشافات الحديثة حول الآثار قبل التاريخية» . ويقولان أيضا : «وقد أثارت هذه النقوش اهتمام الباحثين لمدة تزيد على الخمسين سنة ، وقد وجدت فى مسافات تمتد إلى خليج سيناء شرقا وجزر الكنارى غربا والصحراء جنوبا»[٢] .

وإذا كان هذا الكتاب قد طبع عام ١٩٠١ ويتحدث عن الخمسين سنة الثانية من القرن التاسع عشر ، فإن البحوث التنقيبية لم تتوقف فى القرن العشرين بل

(١) The Eastern Libyans ص ٧٤ .

(٢) ص ٧٢ .

زادت وبخاصة منذ عام ١٩٤٦ . يقول Goodchild : «إن أعمال التنقيب التى تمت داخل منطقة طرابلس خلال السنوات الخمسين الأخيرة وبخاصة منذ سنة ١٩٤٦ قد أدت إلى اكتشاف عدد كبير من النقوش التى تمدنا بمعلومات هامة عن لغة الليبيين وحياتهم خلال العصر الرومانى»(١) . ولكن المؤلف مع ذلك يعترف بأن النقوش المكتشفة ما تزال قليلة ، وأنها لا تكفى الباحثين اللغويين لكى يصلوا إلى نتائج لغوية محققة(٢) .

والنقوش التى عثر عليها تشكل ثلاث مجموعات رئيسية :

أما المجموعة الأولى فقد كتبت باللغة البربرية ولكن فى حروف لاتينية . وقد أطلق الباحثون عليها اسم Latino-Libyan . وقد لوحظ أن كاتب هذه النقوش كان يستخدم إلى جانب الرموز اللاتينية رموزا غير لاتينية للتعبير عن الأصوات التى لاتوجد لها رموز فى تلك اللغة(٣) . ومن أمثلة هذه النقوش تلك التى ذكرها Goodchild وهى :

---

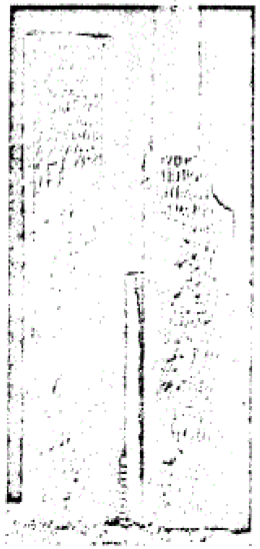
(١) The Latino-Libyan Inscriptions ص ١٣٥ .

(٢) المرجع ص ١٤٣ .

(٣) المرجع ص ١٣٥ ، Inscriptions in the Libyan Alphabet ص ١١٢ ، ١١٣ .



a. Inscription from Romano-Libyan fortified farmhouse at Scemech (now in Leptis Magna Museum)

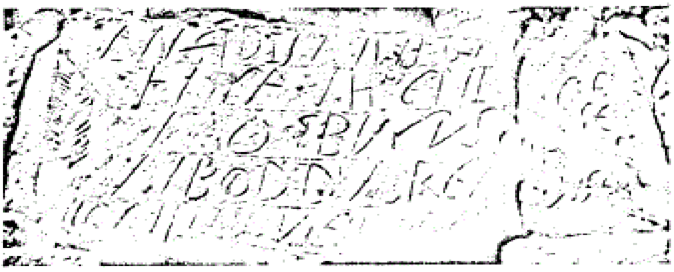


b. Inscribed stelae from Romano-Libyan necropolis at Bir ed-Dreder (now in Tripoli Museum)
(*Photograph: Antiquities Dept. Tripolitania*)

٢٢٧



a. Doorway of Romano-Libyan fortified farm-house at El-Ureia, showing inscription *in situ*



b. Inscription at El-Ureia

وأما المجموعة الثانية فقد كتبت بخط غير لاتيني ، ومن بينها نقوش تم العثور عليها بين عامى ١٩٥٣ و ١٩٥٧ فى غرزة . وتبدو أبجديتها صورة من صور الأبجدية الليبية التى سبق العثور عليها فى تونس والجزائر والمغرب [١] . وتعد نصوص غرزة ذات أهمية خاصة للكتابة الليبية لسببين : أولهما أنها يمكن تأريخها بالقرن الرابع الميلادى وما تلاه ، فهى تسد الثغرة بين الخط الليبى القديم والحديث . وثانيهما أن معظمها قد وجد على مبان سكنية وأدوات منزلية فى أماكن مستقرة وليست من نوع النقوش الجنائزية أو المرسومة على القبور [٢] .

وأما المجموعة الثالثة فتمثل عددا من النقوش المزدوجة اللغة، بعضها فينيقى – ليبى ، وبعضها لاتينى – ليبى . وبمساعدة هذه النصوص تمكن الباحثون الفرنسيون من عرفة القيمة الصوتية لاثنين وعشرين رمزا مستعملا ، ومن قراءة عدد كبير من أسماء الأعلام الليبية ، وعدد قليل من الكلمات العادية [٣] .

ويبدو أنه كان هناك أشكال متعددة أو ألفباءات متنوعة لكتابة المجموعة الثانية ، أهمها الألفباء الليبية والألفباء الطوارقية [٤] . كما يبدو أن الألفباء الواحدة قد تعرضت لأنواع من التطوير والتعديل من آن لآخر مما أدى إلى تعدد الصور التى قدمها لنا العلماء للخط البربرى . وعلى هذا يكون عندنا ثلاثة نماذج – على الأقل– يصور أحدها مراحل تطور الخط البربرى ، ويمثل ثانيها الخط الليبى ، ويمثل ثالثها الخط الطوارقى .

أما مراحل تطور الخط البربرى فقد شرحها كل من الأستاذ محمد على دبوز والأستاذ مبارك الميلى . ومن مجموع ما قالاه يتبين ما يأتى :

(١) Inscriptions in the Libyan Alphabet ص ١١٢ ، ١١٣ .

(٢) المرجع ص ١١٣ .

(٣) المرجع ص ١١٣ ، ١١٤ .

(٤) وجد كذلك الخط الجرامنتى الذى كان يكتبه الجرامنت الذين استوطنوا جنوب ليبيا . ومن الحفريات القليلة التى عثر عليها تبين أن يختلف كلية عن التيفيناغ (جرمة فى عصر ازدهارها ص ١٦٤) .

أ- أن الحروف البربرية فى القديم كانت تركب من عشرة حروف يسمونها «تيفيناغ» ، ومعناها الحروف المنزلة من عند الإله ، لأنهم كانوا يعتقدون أنها ليست من وضع البشر . وصورة هذه الحروف كما يلى (مفسرة بما يوافقها أو يقاربها من الحروف العربية) :



ن ل م ر س ى ت د ج ب

ب- وأضيف إليها خمسة أشكال تسمى «تيدباكين» ومعناها الدليل على العمل والتوسع . ويعتقدون أنها من وضع البشر . ثم أضيفت حروف أخرى فى وقت لاحق مثل :



ز بين "ز" و"س" ث ش

جـ- وأضيف كذلك أشكال أخرى وعلامات للحركات مثل :

. وتدل - فى الأكثر - على الضمة .

: وتدل - فى الغالب - على واو المد .

حتى صار مجموع حروفهم ثلاثة وعشرين حرفا .

د- ويقال كذلك إن الملك مسينيسا Massinissa (ولد سنة ٢٣٨ ق م) مؤسس مملكة نوميديا (الجزائر) قد وجه عنايته للخط البربرى ، ورقاه ، وزاد فى حروفه حتى استقر على النحو الذى نجده اليوم [١]

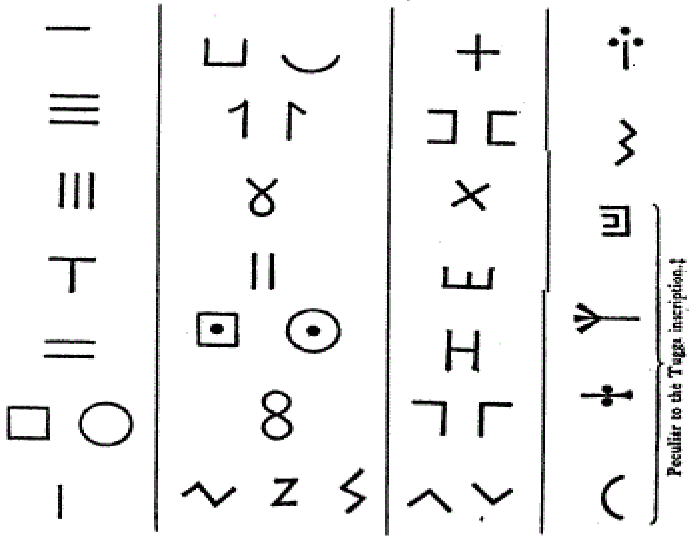
وأما الألفباء الليبية فأشمل صورة لها تلك التى قدمها الأستاذ Faidherbe والتى تحتوى على ٢٧ حرفا ، وهى [٢] .

---

(١) انظر ديوز ١/٦٤ ، ٦٥ ، ١٤٩ والميلى ١/٨٧، ٨٨ ودائرة المعارف الإسلامية - بربر ص ٥٠٢.

(٢) Libyan Notes ص ٧٣ .

LIBYAN ALPHABET



أما الابجدية الطوارقية أو الـ Tifinagh قد اكتشفها الدكتور Oudney الفرنسى سنة ١٨٢٢ ، ووجد رموزها فى منطقة مرزق Mourzouk فى فزان ووصفها بقوله : «توجد الرموز الطوارقية على كل حجر تقريبا . ولا يهم أن تكون الحروف مكتوبة من اليمين إلى اليسار أو العكس أو عموديا»[١]. وقد قدم Oudney لنا ١٩ حرفا فقط ، ولذا فقائمته تنقص عن تلك التى قدمها العالم Hanoteau والتى هى :[٢]

(١) Libyan Notes ص ٧٤ . وقد كان هذا فى القديم ثم تأثر البربر بالعرب بعد الإسلام فصاروا يلتزمون اتجاها فى الكتابة هو الاتجاه العربى من اليمين إلى اليسار (دبوز ٦٧/١) .

(٢) Libyan Notes ص ٧٤ ، إفريقية الأرض والناس ص ٥٩ .

Tifinagh Alphabet

	Phonetic Value (French).		Phonetic Value (French).		Phonetic Value (French).		Phonetic Value (French).
•	a, i, ou	⊡ ⵙ	s	⋯	k'	ق	Arabe
◫ ⴱ	b	ⴳ ⴳ	g	⁝	r grasseyé	غ	Arabe
ⵜ	t	⋈	g doux	ⵛ	ch	ش	Arabe
⊓ Λ ⊔	d	ⴼ ⴼ	f	⁞	h	ه	Arabe
ⵊ	j	ⵍ	l	∃	dh } t' }	ط ض	Arabe
ⵣ	z	ⵎ	m	∷	kh	خ	Arabe
ⵥ ⵥ	z doux	ⵏ	n	⁚	ou long	و	Arabe
□ ⵔ	r	∵	k	ⵢ	i long	ز	Arabe

وبعض هذه الحروف تتجمع فى تشكيلات هكذا :



ويلاحظ أن الأبجديتين الليبية والطوارقية متقاربتان فيما عدا ما أدخلته الطوارقية من تعديلات تتمثل فى وضع نقط بدل الخطوط فى الحروف رقم ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ [١] (لاحظ العد من جهة اليسار) .

وهناك نظريات متعددة فى أصل الخط البربرى . فبعضهم يرده إلى المصريين ، وبعضهم إلى اليونانيين ، وبعضهم إلى الوندال ، وبعضهم إلى السبئيين، وبعضهم إلى الأثيوبيين . كما أن بعضهم يربطه بالصفوية أو الثمودية المنسوبتين إلى شمالى الجزيرة العربية كما فعل Littmann [٢] .

ولكن الذى يبدو صحيحا أن الخط البربرى قد بدأ البربر بوضعه أولا [٣] ، ثم عدلوا فيه أو زادوا عليه حروفا استفادوها من كتابات شعوب أخرى مثل المصرية القديمة والفينيقية وخط المسند القديم لأهل شمال الجزيرة العربية فى فلسطين والشام والعراق . فقد صرح Evans و Flinders بأن بعض الرموز الخطية (أى المؤلفة من خطوط) التى وجدت على الأوانى الفخارية المصرية القديمة جدا ، تتطابق مع تلك الموجودة فى الرموز الليبية والطوارقية [٤] . ومن ناحية أخرى أثبت Halevy (فى أواخر القرن التاسع عشر) أن بعضا منها مأخوذ من الفينيقية التى وجدت فى شمال إفريقية . وقد وجد Halevy ستة رموز من بين الرموز الليبية تتماثل فى شكلها وفى قيمتها الصوتية مع الرموز الفينيقية [٥] . وقد

(١) Libyan Notes ص ٧٥ . وانظر كذلك The Mediterranean Race ص ٥٣ .
(٢) The Eastern Libyans ص ٨٥ . وانظر دائرة المعارف الإسلامية مادة بربر .
(٣) دبوز ٦٤/١ .
(٤) Libyan Notes ص ٧٥ ، وانظر دبوز ٦٤/١ .
(٥) The eastern Libyans ص ٨٥ ، ٨٦ . وانظر دبوز ٦٤/١ .

مثل الأستاذ دبوز لهذا التماثل برمز التاء فى البربرية والفينيقية وهو واحد ويكتب هكذا + ورمز الدال الذى يكتب فى البربرية هكذا ٨ وفى الفينيقية هكذا △ ، وغير ذلك [١] . كذلك صرح الأستاذ دبوز أن التشابه بين حروف المسند القديمة وحروف البربر لايمكن إنكاره ، ومثل لذلك برموز الزاى والباء والتاء التى تتشابه فى كلتا الكتابتين [٢] .

وهنا حقائق أخرى تتعلق بالخط البربرى تحتاج إلى التنبيه عليها وهى :

١- أن حروف العربية لها ما يماثلها فى البربرية ما عدا العين والحروف المعجمة الثاء والذال والظاء [٣] .

٢- البربر لايعجمون حروفهم .

٣- العين تكتب غينا فى البربرية ، وتقرأ عينا أو غينا بحسب السياق . وقد وجدت عندهم العين نتيجة اختلاطهم بالفينيقيين والعرب ، ولذا لم يفردوا لها رمزا مستقلا [٤] .

٤- يقول Rinn : «المظنون أن اللاتينيين قد أخذوا حروفهم عن البربر لأنهم يسمون حروفهم الهجائية «المنتاء» وحروف ل م ن هى الأولى فى الحروف البربرية [٥] .

٥- أنه لاصحة لما يقال من أن الطوارق هم الوحيدون - دون جميع البربر - الذى لهم كتابة خاصة [٦] . فقد ثبت مما سبق أن الكتابة كانت موجودة عند البربر

---

(١) ٦٦/١ .
(٢) المرجع والصفحة .
(٣) دبوز ٦٤/١ .
(٤) المرجع والصفحة .
(٥) الميلى ٨٨/١ .
(٦) الشعوب والسلالات الإفريقية ص ٣٥٣ .

بعامة ، كما يؤيد ذلك النقوش القديمة التى وجدت فى مساحات واسعة ومناطق لم يسكنها الطوارق مطلقا [١] .

٦- الأبجديات البربرية تعد من النوع الألفبائى وليس المقطعى . ولكن بسبب الاختصارات فى استعماله ، ولغياب رموز العلل (فى العادة) فمن الممكن اعتبارها أبجدية شبه مقطعية [٢] .

٧- أن الخط الطوارقى ما يزال مستعملا حتى الآن بين الطوارق ، ولكن فى مجالات ضيقة ، وبصورة تختلف قليلا أو كثيرا عن صورته القديمة مما يجعلهم فى كثير من الأحيان عاجزين عن قراءة نقوش أجدادهم [٣] .

٨- أنه لا مجال للشك فى بربرية النقوش التى عثر عليها ، لأن تردد الأسماء البربرية فى هذه النقوش يدل على أن هذه الكتابة كانت خاصة بالمواطنين الأصليين وليست بأى مستوطنين آخرين [٤] .

٩- أن بعض النقوش التى عثر عليها فى الجزائر وتونس محفوظة أصولها فى المتحف البريطانى [٥] .

١٠- يصرح الأستاذ Oric Bates أنه لم يعثر على نقوش للخط البربرى أقدم من القرن الرابع قبل الميلاد [٦] .

---

(١) Race of Africa ص ٩٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٥ .

(٣) الصحراء الكبرى ص ١٠٣ ، Race of Africa ص ٩٦ .

(٤) Libyan Notes ص ٧٣ .

(٥) المرجع ص ٧٢ .

(٦) The Eastern Libyans ص ٨٥ .

ديانات البربر قبل الإسلام :

كان معظم البربر – حتى بعد دخول اليهودية والمسيحية البلاد – يدينون بالوثنية أو المجوسية ، وكان بعضهم يعبد إلهة معينة ، وبعضهم يعبد الشمس ، وبعضهم يعبد القمر [1] .

وقد بدأ دخول الدين اليهودي بلاد المغرب نتيجة لهجرات يهودية تمت ابتداء من القرن الثالث قبل الميلاد . وقد نزلت هجراتهم الأولى على الفينيقيين في تونس بحكم الصلات الجنسية واللغوية [2] ، وسجل التاريخ لهم ثورات مبكرة منذ استوطنوا بلاد المغرب وقعت إحداها عام ١١٥ م في برقة ، وكانت ضد الحكم الروماني ، وأعقبها اتجاههم نحو الجنوب وتوزعهم في كل أجزاء الشمالي الإفريقي [3] .

ويبدو أن اليهود قد حققوا لأنفسهم – رغم قلتهم النسبية [4] . – نفوذا كبيرا في المنطقة استمر حتى مجيء الإسلام . «ففي عام ٦٨٨ م تمكن الجراوة Djeraoua في جبل أوراس الذين اعتنقوا اليهودية ، ونصبوا امرأة منهم تدعى كاهنة قائدة لهم – تمكنوا من مطاردة العرب بقيادة حسان حتى خليج قابس ثم

---

(١) انظر الدعوة إلى الإسلام لتوماس أرنولد ص ٤٥ وديبوز ٤٠٥/١ و Libyan Notes ص ٩ وقادة فتح المغرب العربي ١٩/١ وتاريخ الفتح العربي في ليبيا للزاوي ص ١٨ ، ١٩ .

(٢) السلالات البشرية ص ٣٣١ وملامح المغرب العربي ص ٥٩ .

(٣) The Eastern Libyans ص ٢٠٨ والممالك الإسلامية في غرب إفريقيا ص ٧٥ ، ٧٦ .

(٤) قدر Sir Johnston عدد اليهود وقت الفتح بحوالي ١٠٠ ألف والمسيحيين بحوالي ٣٠٠ ألف والبربر بعدة ملايين (A History of the Colonization of Africa ص ٦١) . ويفهم من هذا أنه لم يعتبر المسيحيين واليهود من سكان البلاد الأصليين الذين سماهم بالبربر . وقد صرح محمد سليمان أيوب في بحثه بعنوان «جرمة في عصر ازدهارها» بأن «أكثر الذين اعتنقوا المسيحية من سكان المدن أي من أبناء الإغريق والفينيقيين والرومان بينما ظل أغلب البربر في ليبيا على وثنيتهم» (ص ١٧٣) .

تتبعوهم حتى طرابلس»[١] . ويحدثنا Blake فى بحث له أنه قد عثر قرب مصراته على أحجار قبور نقشت عليها كتابة عبرية ترجع إلى عام ١١٤٢ م مما يدل على وجود مجتمع يهودى إذ ذاك[٢] .

أما الدين المسيحي فقد وصل إلى المغرب فى القرن الثانى الميلادى على أيدى رهبان أتوا من مصر[٣] ، وصارت المسيحية الدين الرسمى للدولة الرومانية منذ ارتقى قسطنطين على عرش روما سنة ٣١٢ م فارتبطت المسيحية فى نظر البربر منذ ذلك الحين بالرومان فكرهوها كما كانوا يكرهونهم ، وأدى ذلك إلى مخالفتهم واعتناق البربر للمذهب الدوناتى المسيحى وهو مخالف للمذهب الأرثوذكسى الكاثوليكى الذى كان عليه الرومان . وقد أدى هذا الخلاف المذهبى إلى نشوب معارك طاحنة بين البربر والرومان[٤] . ويبدو أنه – إلى جانب المذهبين السابقين – كان يوجد بعض المسيحيين الذين يدينون بالمذهب اليعقوبى السائد فى مصر ، فإن المراجع العربية تتحدث عن مناطق من ليبيا أهلها أقباط[٥] .

ونعود إلى الصراع المذهبى فنقول إن المذهب الدوناتى نشأ فى أوائل القرن الرابع الميلادى فى شمالى أوراس الذى كان يغلى بمقت الرومان . وقد أنشأه راهبان كان كل منهما يسمى «دونتوس» فسمى بالمذهب الدونتوسى أو الدوناتى . وكان هذا المذهب يرمى إلى غايات سياسية مثل تحرير المغرب من أيدى الرومان ورفع لواء المسيحية .

---

(١) الصحراء الكبرى ص ٧٢ .

(٢) Misurata ص ١١ .

(٣) حسن سليمان محمود : ليبيا بين الماضى والحاضر ص ٩٤ . ولكن يرى بعضهم أن البربر أخذوا دين المسيحية عن الروم لأنهم كانوا مغلوبين لهم (انظر : شيت خطاب ، قادة فتح المغرب العربى ص ١٩) .

(٤) ديوز ٤٠٦/١ .

(٥) تاريخ ليبيا لإحسان عباس ص ١٤

وما كاد القرن الرابع ينتصف حتى كان جمهور البربر المسيحيين فى المغرب دنتوسيين ، وحتى أقضت قلاقل الدنتوسيين مضاجع الرومان الحكام . وقد بدأت المتاعب بثورة الدنتوسيين ضد الكنيسة وروما . وفى ثورتهم ضد الامبراطور تعاونوا مع جماعة الدوّارين Circumcelliones ، وهى فئة متعصبة دأبت على سلب حوافّ الصحراء . ووكل أمر القضاء على الفوضى وإعادة تأسيس حكم الدولة إلى الكونت بونيفاس ولكنه أعلن الثورة على روما واستعان بالوندال . وفى عام ٤٢٩ م اندفع الوندال بنسائهم وأطفالهم إلى إفريقيا من أسبانيا وكانوا نحو ثمانين ألفا بينهم نحو عشرين ألف مقاتل ، وحكموا البلاد ، فشعر بونيفاس بخطئه. وانضم الدنتوسيون إلى الوندال لما كان يربطهما من كراهية للكنيسة الكاثوليكية . وفى سنة ٥٣٣ قاد بلزاريوس جيشا بيزنطيا . وكما حدث للوندال قبله رحب الناس به كمخلص لهم من الوندال . وفى خلال ثلاثة أشهر من وصول بلزاريوس كتب إلى الامبراطور جوستنيان أن أفريقية عادت رومانية . ولكن ما أن عاد إلى بيزنطة حتى أخذ البربر يزاولون ما اعتادوه من حب تقليدى للحرية . وصاحب ذلك إعلان جوستنيان «أن المذهب الكاثوليكى هو الدين الرسمى لبلاد المغرب» . وفى سنة ٥٣٥ انتزعت أملاك المخالفين من دنتوسيين ويهود وغيرهم ، وجردوا من حماية القانون ، وحجر عليهم العمل بمذهبهم ، وطردوا من مناصبهم ، وأخذت الكنيسة تراقب الولاة والحكام وأهل الوظائف وتتدخل فى جميع شئون الدولة السياسية والمالية والإدارية والحربية بالإضافة إلى فرض ضرائب باهظة على البربر وابتزاز أموالهم مما عمق الفجوة بين البربر وحكامهم من الرومان[١] .

---

(١) ديوز ٤٠٧/١ ، ٤٠٨ ، ٤٤٥ والممالك الإسلامية فى غرب إفريقيا ص ٧٧، ٧٨ ، ٧٩ . ولكن جاء فى بعض المراجع أن المذهب الدوناتى نسبة إلى صاحبه دونات Donat أحد الأساقفة الثائرين على الدولة الرومانية (انظر شيت : قادة فتح المغرب العربى ٤٠/١) .

ويبدو أن حركات الاضطهاد ضد أصحاب المذاهب الأخرى قد أفادت المسيحية إلى حد ما ، وأدت إلى نشرها في الصحراء بعد أن كانت وقفا على المناطق الساحلية [١] ، فقد أصبحت الصحراء ملجأ لطريدي الاضطهاد الديني . والقصص المثيرة المعروفة عن القديس بريتوا Perpetua وغيره من شهداء شمال إفريقيا لاتترك مجالا للشك في أن آلافا من الرهبان الضعفاء قد فروا إلى الصحراء في الجنوب [٢] . ويستدل بعضهم على انتقال المسيحية إلى الصحراء حيث يسكن الطوارق بوجود كلمات في لغتهم ذات أصل مسيحي مثل اسم ميسى ومعناه إله وأنجلوس ومعناه ملاك ، وأسماء صموئيل وداود وشارل وغيرها من الأسماء التي تندر بين عرب إفريقية [٣] . ومن أجل هذا الصراع لم يجد الإسلام حين وفد على المنطقة دينا سماويا قويا ، ولم يكن عدد المسيحيين وقت الفتح الإسلامي كبيرا . «وعلى كل حال ليس من المحتمل أن تكون المسيحية – حتى إذا كانت قد وضعت أقدامها في المنطقة – قد احتلت قلوب الناس» [٤] ، أو على حد تعبير باحث آخر : «وعند الفتح العربي كان هناك عدد من القبائل البربرية المسيحية ، ولكن المسيحية لم تكن متمكنة بينهم ولذا لاتوجد بقايا مسيحية قوية كما وجدت في مصر» [٥] . ويقول باحث ثالث : «وقبل ظهور محمد كان من

---

(١) يقول أرنولد : «الولايات الرومانية في أفريقية التي كان الأهالي المسيحيون محصورين فيها لم تمتد قط بعيدا إلى الجنوب ، فإن الصحراء الكبرى تقف حاجزا منيعا في هذا الاتجاه» (ص ١٤٤) . ومع ذلك فهناك من الباحثين من يقطع بأن بربر طرابلس – رغم أنهم ساحليون – لم يعتنقوا المسيحية مطلقا (Libyan Notes ص ٨) .

(٢) الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا ص ٧٤ . ويقال إن الخلافات الدينية والسياسية وما تبعها من حروب واضطهادات (تم معظمها على يد حكومة الامبراطور جوستنيان) قد أفنت خمسة ملايين من الإفريقيين (أرنولد ص ١٤٦) .

(٣) الممالك الإسلامية في غرب افريقيا ص ٧٤ .

(٤) Libyan Notes ص ٨ .

(٥) The Eastern Libyans ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

الواضح أن الكنيسة المسيحية قد عجزت عن أن تقنع هؤلاء الناس . إنها اختيرت كديانة رسمية للامبراطورية الرومانية ، وصارت ديانة أوروبية بدلا من سابق عهدها كديانة إفريقية أو أسيوية . ولذا فإنها أصبحت فى نظر الناس تمثل حكما استبداديالايطاق[1] .

وهكذا كان الواقع الدينى فى المنطقة يعمل فى صالح الإسلام ، وقد أعانه على أن يثبت أركانه ويرفع لواءه بطريقة أدهشت العالم وأذهلته كما سنتحدث فى الفصل التالى .

(١) The Romance of Nearest East ص ١٧٨ .

الفصل الثانى

انتشار الإسلام فى المنطقة

واجهت الجيوش العربية صعوبات جمة فى فتح الشمال الإفريقى ، وصادفت من الثورات والانقلابات والحركات الخارجية ما فاق نظيره فى البلدان المفتوحة الأخرى . ولا نريد أن ندخل فى تفصيلات حول الفتح الإسلامى ومراحله وما صادفه من صعوبات وأسباب ذلك ، فمجاله كتب التاريخ السياسى ، وإنما نريد أن نتتبع فى سرعة وإيجاز حركة الفتح الإسلامى ، ومعدل انتشار الإسلام فى المنطقة ، مبرزين - فقط - العوامل الرئيسية ، أو ما يسمى بنقاط التحول ، سواء فى جانب انتشار الإسلام أو ضده .

من المعروف أن الفتح الإسلامى للمنطقة قد بدأ عام ٢١ هـ على يد عمرو ابن العاص الذى أرسل جيشا بقيادة عقبة بن نافع إلى برقة ، فلم يحاربه أهلها ، وآثروا الصلح فصالحهم على مبلغ سنوى يدفعونه ، وتم فتح برقة سنة ٢٢ هـ . وبعد ذلك اتجه عقبة إلى الواحات الداخلية حيث لواتة ونفوسة وهوارة التى اشتهرت بمقاومتها للحكم البيزنطى ، ووفق فى فتح بعض مناطقها ، ومنها عاصمة فزان حينئذ «زويلة» . وفى نفس الوقت سار عمرو ببقية الجيش متجها إلى طرابلس ففتح المدن التى صادفته فى طريقه إلى طرابلس . وحين وصل طرابلس حاصرها نحو شهر ثم اقتحمها ، وهرب الروم من البحر وغنم المسلمون غنائم كثيرة وأمنوا الناس على أموالهم وأعراضهم ومعابدهم . وتحرك عمرو لفتح صبراته وأرسل

بسر بن أبي أرطاة لفتح ودان ... وهكذا استمر الفتح الإسلامي يتقدم من نصر إلى نصر حتى تم فتح جميع الأراضي الليبية . وكانت خطة عمرو بن العاص العسكرية تهدف إلى التوغل في الأراضي الإفريقية ومواصلة السير نحو عاصمة إمبراطور شمال إفريقية «سبيطلة» ، ولكن عمر بن الخطاب لم يسمح له بذلك . ولهذا توقف المد الإسلامي ولم يبدأ فتح الشمال الإفريقي إلا بعد موت عمر وتولى عثمان الخلافة (١) .

وفي عهده قام عبدالله بن سعد بن أبي سرح بدخول الأراضي التونسية وانتصر على إمبراطور شمال إفريقية المستقل جرجير ، وكان ذلك عام ٢٧ أو ٢٨ أو ٢٩ هـ على اختلاف في الروايات . ثم توجهت فيالق مختلفة إلى أماكن أخرى في البلاد التونسية ففتحتها (٢) .

وفي أثناء إتمام عمليات الفتح كانت بعض البلاد تنتقض بمجرد خروج جيش الفتح منها . وقد قام معاوية بن حديج بثلاث غزوات لإفريقية أعوام ٣٤ و ٤٠ و ٥٠ هـ (٣) .

كما تولى عقبة ثلاثة أعمال حربية في ليبيا ، أولها مع جيش الفتح ، وثانيها في ولاية عمرو بن العاص الثانية على مصر (من ٣٨ – ٤٣) ، والثالث سنة ٤٦ أو ٤٩ هـ وفيها أعيد فتح فزان وودان وغدامس ... وغيرها .

وفي آخر الأمر تولى عقبة ولاية إفريقية عام ٥٠ هـ بعد أن اخترق الحدود التونسية واتجه إلى القيروان التي اختطها معاوية بن حديج فلم تعجبه فواصل

---

(١) ، (٢) القيروان ص ٢٤ – ٢٩ .

(٣) السابق ص ٣٢ .

السير حتى نزل فى مكان مدينة القيروان اليوم وهنالك أسس مدينة القيروان التى أصبحت بعد سنوات قليلة عاصمة المغرب العربى ومركز الإشعاع الفكرى فى شمال إفريقية [١] . ومنذ ذلك الوقت أصبح الحكم الإسلامى فى ليبيا راسخا متينا ، إذ لانسمع أن سكان أى من مناطقها قد تأثروا بثورة كسيلة ، وبمقتل عقبة سنة ٦٣ هـ وبذا انفصلت ليبيا مؤقتا عن حركة المقاومة التى استطار شررها فى إفريقية ، وأصبحت ليبيا مركزا للجيوش الإسلامية ، أو منطلقا للقوى الذاهبة إلى المغرب لإخضاع الثورات فى إفريقية ، أو ملاذا للتراجع والانحياز . حتى إنه لما قتل عقبة واحتل كسيلة مدينة القيروان وانقلبت إفريقية ضد العرب انسحب زهير ابن قيس البلوى الذى كان عقبة قد خلفه فى القيروان إلى برقة انتظارا لرأى الخليفة بدمشق [٢] .

وعلى الرغم من تمام الفتح الإسلامى للمغرب على يد موسى بن نصير عام ٨٨ هـ [٣] ، فقد تخلل فترة الفتح هذه وتلاها إلى نهاية القرن الأول كثير من

---

(١) القيروان ص ٣٣ .

(٢) حسن سليمان محمود ص ١٠٣ ، ١٠٤ وتاريخ ليبيا لإحسان عباس ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٣) يعلل الأستاذ ديوز طول الفترة التى استغرقها الفتح الإسلامى للمغرب بالأسباب الآتية :

١- كثرة الممالك وتعددها واستقلال كل منها . ولم يكن المغرب دولة واحدة يخضع إذا أسقطت حكومته بل كانت فيه حكومات وملوك ، فإذا هزم أحدهم لم يفتح المسلمون إلا ناحيته .

٢- كره البربر للأجنبى . ٣- عداوة الروم المستعمرين للإسلام . ٤- قوة المغرب . ٥- طبيعة بلاد المغرب الجبلية . ٦- شجاعة البربر وإباؤهم وتمسكهم بمبادئهم (٢/١٠٩) . وقد ظهرت الصعوبات فى حكم البربر وإسلاس قيادهم من قديم . ومع أن الرومان كانوا – فى الغالب – يقنعون بفرض الجزية على البربر وتجنيدهم ، وتركوا حكم القبائل لشيوخها ، فإن نار الرغبة فى الاستقلال لم يخمد أوارها فى صدور البربر . فبدت حينا فى شكل فتن يقودها وطنيون تتفاوت درجة تأثرهم بالرومان مثل تاكفاريناس Tacfarinas (١٧ – ٢٩ م) ، وحينا آخر فى شكل غارات يقوم بها بدو الصحراء أو القبائل التى تعيش فى الداخل ، والتى لم تأخذ بأسباب الحضارة ... ومنذ نهاية القرن =

الحركات الخارجية التي كانت تهدف إلى التخلص من الحكم الجديد ، ونبذ سلطان الإسلام . يقول ابن خلدون : «ارتد البربر في إفريقية عن الإسلام اثنتى عشرة مرة ، ولم يثبتوا على الإسلام إلى في عهد موسى بن نصير»[١] . وقد كان من أكبر الحركات المضادة ثورة «الكاهنة» التي أشعلت البلاد نارا في طولها وعرضها . ومهما يكن سبب هذه الثورة ، فقد كانت ثورة دينية تهدف إلى التخلص من النفوذ الإسلامي . واسم هذه الكاهنة «داهية» وكان لها عسكر عظيم من البربر والروم ، وكان نفوذها في منطقة جبل أوراس ، وكانت امرأة ساحرة ذات شوكة وقوة[٢] . وقد استفحل أمر هذه الكاهنة فيما بعد حتى شمل المنطقة من طرابلس إلى طنجة ، وحاربها حسان بن النعمان (ولى إفريقية والمغرب سنة ٧٧ هـ أو سنة ٧٨ هـ) في معقلها عند جبال أوراس ولكنها هزمته شر هزيمة ، وفر حسان في نفر قليل من أصحابه إلى طرابلس . وأرسل بهزيمته إلى عبدالملك ابن مروان بمصر فأرسل إليه عبدالملك أن ينتظر حيث أدركه كتابه ، فأدركه في أراضي سرت فأقام بها خمس سنين ينتظر المدد . وأتاه المدد سنة ٨٤ فاستأنف حسان غزو الكاهنة ، ونشبت بينهما حرب قاسية انتهت بقتل الكاهنة في المكان المعروف اليوم باسم بئر الكاهنة في الجزائر وزوال ملكها سنة ٨٤ هـ[٣] . وكانت

= الثالث الميلادي أخذ نفوذ الرومان يتقلص ، كما تشهد بذلك حركات البربر الناشطة التي كانت تزداد قوة على قوة . ووضحت شخصية البربر باعتناقهم مذاهب تخالف مذهب حكامهم كالدوناتية. (انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة بربر) .

(١) حسن سليمان محمود ص ١١٥ ، ١١٦ .

(٢) المؤنس لابن دينار مقتبس في : ليبيا في كتب التاريخ والسير لإحسان عباس ص ١٩٨ - ٢٠١ .

(٣) ولاة طرابلس للزاوي ص ٢٩ ، ٣٠ . ويبدو أن الكاتب قد أخطأ في اسم عبدالملك بن مروان وأن صحة الاسم «عبدالعزيز بن مروان» الذي ولي مصر منذ عام ٦٦ هـ إلى عام ٨٥ هـ كما جاء في النجوم الزاهرة . وانظر : القيروان ص ٤٢ .

الكاهنة قد أصدرت أوامرها – حتى تعوق تقدم جيوش المسلمين – بقطع المزروعات والأشجار ، وحرق الغابات والأحراش ، وتدمير كل ما يوجد في طريق المسلمين من طرابلس حتى طنجة ، وذلك فيما بين عامي ٨٢ – ٨٤ (١) ، مما ألحق بالبلاد شر الأضرار وأدى بالكثيرين إلى الهجرة ومغادرة البلاد . يقول ابن عذاري: «يقال إن إفريقية كانت ظلا واحدا من أطرابلس إلى طنجة ، وقرى متصلة ومدائن منتظمة ، حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات ولا أوصل بركات ولا أكثر مدائن ... مسيرة ألفي ميل في مثله ، فخربت الكاهنة كل ذلك» (٢) . وبمقتل الكاهنة وتشتت جمعها قفلت صفحة من صفحات الحروب الدينية ، ولم يأت عام ١٠٠ هـ حتى كان الإسلام قد بسط نفوذه على الإقليم كله . يقول صاحب المونس: «وعلى رأس المائة الأولى دانت إفريقية للعرب من برقة إلى السوس ، ولم تقدم بعدها للنصارى والبربر قائمة ، فمنهم من دخل الإسلام ومنهم من بقى على النصرانية فضربت عليهم الجزية» (٣) .

وإذا كان القرن الأول قد مر تقريبا في إتمام عملية الفتح وتثبيت جيوش المسلمين في المنطقة ، فإن القرن الثاني يمتاز بأنه قرن الدعوة الإسلامية وإرسال الدعاة ورجال الدين إلى المنطقة ليعلموا الناس دينهم ويطلعوهم على أسراره وخفاياه . وإذا كان موسى بن نصير (في أواخر القرن الأول الهجري) قد وصف بأنه أول من اهتم بتعليم البربر القرآن الكريم وعلوم الدين (٤) ، فإن إسماعيل بن

(١) الزاوي : تاريخ الفتح العربي ص ٦ .
(٢) البيان المغرب ٣٦/١ .
(٣) حسن سليمان محمود ص ١١٧ .
(٤) المرجع ص ١١٥ ، ١١٦ .

عبيدالله بن أبي المهاجر (تولى فى المحرم سنة ١٠٠ هـ) قد اقترن عهده بوفود عشرة فقهاء من أعيان التابعين إلى المغرب لإرشاد البربر وتعليمهم الدين الإسلامى واللغة العربية . وقد تم ذلك عام ١٠٠ هـ فى خلافة عمر بن عبدالعزيز وانتشروا فى أنحاء البلاد . وقد كان إسماعيل نفسه حسن السيرة ولذلك لم يبق أحد من البربر فى ولايته إلا أسلم ، مع قصر فترة ولايته التى لم تبلغ العامين[١] .

أما أسماء هؤلاء العشرة من فقهاء التابعين فقد حفظها لنا أبو العرب فى كتابه «طبقات علماء إفريقية وتونس» حيث قال[٢] : «حدثنى فرات بن محمد أن عمر بن عبدالعزيز أرسل عشرة من التابعين يفقهون أهل إفريقية ، منهم : مَوْهَب ابن حى المعافرى ، وأقام بإفريقية حتى مات بها ، وحبان بن أبى جبلة ، وإسماعيل بن عُبيد الله الأعور القرشى مولاهم ، وكان رجلا صالحا استعمله عمر ابن عبدالعزيز ليفقههم أيضا ، وإسماعيل بن عبيد مولى الأنصار ... وطلق بن حابان ... وبكر بن سوادة الجذامى ، وعبدالرحمن بن رافع التنوخى ... وأبو عبدالرحمن الحبلى ، واسمه عبدالله بن يزيد ، مات بإفريقية ، وله بها مسجد ، وسعيد بن مسعود التجيبى ...»[٣] .

ولم يكن هؤلاء الدعاة وحدهم السبب فى إقبال البربر على الإسلام ، فقد كانت القدوة الحسنة والمعاملة الطيبة التى عامل بها الحكام الصالحون رعيتهم من

---

(١) انظر : شيت خطاب : قادة فتح المغرب ١٦٦/٢ ، ١٦٧ وحسن سليمان محمود ص ١١٦ ، ١١٧.

(٢) ص ٨٤ – ٨٧ .

(٣) هؤلاء تسعة وقد أسقط المؤلف العاشر واسمه أبو سعيد جعثل بن هاعان بن عمير (هامش رقم ١ من المرجع السابق ص ٨٤) .

الأسباب الهامة فى تحبيب الناس فى ذلك الدين الوافد ، وجعلهم يشعرون بالسيادة والطمأنينة والرضا فى ظله . ومن أبرز هؤلاء الولاة القدوات نجد :

١- حسان بن النعمان الذى منح البربر الذين يؤيدون الفتح حق المساواة الكاملة مع العرب فى الأعطيات والحقوق ، وأدخل قسما من البربر فى الجيش الإسلامى ، واعتبر أرض المغرب مفتوحة صلحا لا عنوة ، وأقر البربر على ما فى أيديهم من الأرض . وبذلك لم يسلب البربر أرضهم ولا ميزاتهم المادية الأخرى [١] .

٢- إسماعيل بن عبيدالله بن أبى المهاجر السابق الإشارة إليه . ويذكر المؤرخون دليلا على فضله وتورعه القصة التالية : كان من عادة الخلفاء ألا يدخلوا خزائنهم شيئا مما يرسله الولاة إلا بعد أن يشهد عشرة عدول أنه مال مستصفى حلال بعد دفع الأعطيات ، والإنفاق على مصالح الرعية . وفى أيام سليمان الخليفة أقبلت أموال إفريقية وشهد ثمانية من العدول أن المال حلال . أما إسماعيل هذا والسمح بن مالك الخولانى فقد أبيا أن يحلفا . وكان عمر ابن عبدالعزيز حاضرا المجلس فأعجبه موقف الرجلين . وما أن جاء إلى الحكم حتى أولى إسماعيل أمر إفريقية [٢] . ويقول عنه دبوز : أبو المهاجر رأى أن المسلمين بدينهم الذى يفتّح القلوب ، وليس بسيوفهم ، وسلاح الإسلام الأكبر هو الدعاية التى ينتشر بها ... فوضع خطة على أساس تطهير إفريقية من الروم الذين يبثون الدعاية ضد الإسلام ... وهو أول من دخل البلاد البربرية المستعصية فبث فيها الإسلام ، وهو الذى وصل البربر بالعرب ، وفتح قلوب البربر لمحبة العرب بلينه وكياسته وحسن تأتيه [٣] .

---

(١) شيت خطاب ٢/١٧٠ ، ١٧١ وإحسان عباس : تاريخ ليبيا ص ٣٥ .

(٢) حسين مؤنس : ثورات البربر ص ١٤٦ .

(٣) ١/٣٠ - ٣٣ .

وقد كان انتشار الإسلام فى المغرب خلال القرن الأول الهجرى ، وتقويضه دعائم الأديان السابقة ، وقضائه على المسيحية قضاء مبرما – من القضايا التى لفتت نظر المستشرقين ، وعبروا عنها كل بطريقته الخاصة وحاولوا تعليلها . يقول Playfair : «يعد مجىء الإسلام إلى هذه المنطقة أغرب حركة شاهدها العالم على الإطلاق . فقد ظهر وانتشر بسرعة عجيبة ، وطغى على كل المعالم المسيحية ، والمظاهر الحضارية فى الشمال الإفريقى»[١] . ويقول Randall-Maciver و Anthony Wilkin : «إن سيطرة العرب على الأماكن المنبسطة من الشمال الإفريقى تستحق التقدير . ولكن الغريب أن سكان الجبال – الذين عاشوا دائما مستقلين – لم يقبلوا الإسلام فقط، بل ظلوا مخلصين له»[٢] . ويقول : Peyronnet «تحير كل المؤرخين من سرعة تأثير العرب على البربر فى ديانتهم وعاداتهم وأخلاقهم»[٣] .

وقد اختلفت وجهات نظرهم فى تعليل هذه الخاصة الاكتساحية التى اتصف بها الإسلام . فمنهم من عزاها إلى تعصب الولاة المسلمين ، ووسائل الضغط والإكراه التى باشروها ضد أبناء الشعوب المفتوحة . ولكن توماس أرنولد نفسه قد تكفل بالرد على هذا الرأى قائلا :

١– لايصح أن نلتمس تدهور الكنيسة المسيحية فى شمال إفريقيا فى تعصب الولاة المسلمين إذ ليس هناك دليل بين يؤيد مثل هذا الرأى .

---

(١) The Bibliography of the Barbary States القسم الأول ص ٥٦٠ .
(٢) Libyan Notes ص ٨ .
(٣) الميلى ١/٢٥١ .

٢- كان عدد الأهالي المسيحيين في نهاية القرن السابع الميلادى قليلا جدا . وإن استمرار بقائهم في ظل الحكم الإسلامي لأقوى دليل على انعدام وسائل العنف والإكراه في التحول إلى الإسلام .

٣- انحلال الكنيسة التدريجي دليل تسامح المسلمين ، فقد وجد بعد الفتح الإسلامي بثلثمائة سنة تقريبا ، ما يقرب من أربعين أسقفية كانت ما تزال باقية هناك . وفي سنة ١٠٥٣ م حزن البابا ليو التاسع على أنه لم يكن يوجد إلا خمسة أساقفة يمثلون الكنيسة الإفريقية التي كانت من قبل تتمتع بالشهرة والازدهار [١] .

أما المنصفون من المستشرقين فقد عزوا هذه الظاهرة إلى الخصائص الذاتية التي يتمتع بها الإسلام ، والسمعة الحسنة التي كانت تسبقه إلى البلاد قبل فتحها . وسنكتفي بشهادة اثنين منهم في هذا الخصوص . أما أولهما فهو جوستاف لوبون الذي يعزو سرعة انتشار الإسلام إلى الأسباب الآتية :

١- لم تُعْمِ الفتوحات أبصار العرب ، ولم تجعلهم يقترفون من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة ، ولم يسيئوا معاملة المغلوبين ، ولم يكرهوهم على اعتناق الدين الذي كانوا يرغبون في نشره في العالم . ولو فعلوا ذلك لتألبت عليهم جميع الأمم التي كانت غير خاضعة لهم بعد ، ولأصابهم مثل ما أصاب الصليبيين عندما دخلوا سورية مؤخرا . ولكن العرب اجتنبوا ذلك .

٢- حلم العرب الفاتحين وتسامحهم كان من الأسباب السريعة في اتساع فتوحهم، وفي سهولة اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونُظُمهم ولغتهم التي

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ١٤٤ ، ١٤٩ .

رسخت ، وقاومت جميع الغارات ، وبقيت قائمة حتى بعد توارى سلطان العرب عن مسرح العالم .

٣- أن النظم الإسلامية كانت من البساطة فى الحقيقة بحيث لامت احتياجات طبقات الأهلين الوسطى والبسيطة أيضا (١) .

وأما ثانيهما فهو سكوت الذى يقول ما ترجمته :

إذا أردنا أن نفهم قوة الديانة المحمدية ، وسر انتشارها ، ونموها السريع فى أيامها الأولى فى آسيا وإفريقية فإننا لابد أن نعلم ما يأتى : كان دعاة محمد يأتون كرسل للأمل والرجاء والتحرير لشعوب عانت العبودية والاسترقاق . وعلى عكس ما كانت تتعرض له الشعوب تحت ظل المسيحية من اضطهاد ورعب ، جاء الدين الجديد يبشر بإله واحد رحيم غفور . ووسط الفساد السياسى الذى كان موجودا - قدم الإسلام صورة للمجتمع الدينى الذى يسوده الوئام . كذلك فالإسلام يخاطب الأرقاء والمستضعفين ، ويزيل الحواجز الطبقية أو الاجتماعية . كل المسلمين سواسية أمام الله . لا مسلم يمكن أن يتخذ عبدا من نفس دينه . إن عبدا أو أى رجل يمكن أن يصل باستعداده إلى أعلى مرتبة فى البلد ... والإسلام بجانب هذا يعد أبسط الديانات وأقربها إلى الفطرة ، لا أستثنى المسيحية ولا اليهودية . «لا إله إلا الله محمد رسول الله» هذه أبسط عقيدة وأوضحها وأثبتها وأكثرها صلابة وتركيزا ، تدور حولها الديانة الإسلامية . لاتوجد مماحكات دينية ، ولا مكان فيها للمبشرين والوعاظ الكنيسيين . إنها ثورة ضد كل شىء يتعلق بالخلاف العقائدى وبالتبشير الدينى . إنها عقيدة الرجل الساذج البسيط ذى

---

(١) حضارة العرب ص ٦٠٥ .

الشخصية القوية ، الذى تمرد على التهاويم والأحاجى التى سيطرت على العقلية البشرية إذ ذاك . إن دين محمد يخاطب حتى العبيد والأميين ... إنه يلغى أى وساطة بين العبد والرب . وإن الرجل العادى الذى عجز عن فهم نظرية التثليث وجد سهلا أن يفهم عقيدة التوحيد الفطرية [1] .

ومن أجل هذا لانعجب إذا روت لنا كتب التاريخ أن من البربر من سعى إلى الإسلام قبل أن يطأ الإسلام أرضهم . فبعد فتح مصر قدم على عمرو ستة نفر من البربر يبدون رغبتهم فى الإسلام ، لأن جدودهم أوصوهم بذلك ، فوجههم عمرو إلى عمر فاكرمهم ، وكتب إلى عمرو بن العاص أن يجعلهم على مقدمة المسلمين . وكانوا من أفخاذ شتى [2] . كذلك لانعجب إذا علمنا بدخول الإسلام المناطق الصحراوية وانتشاره بين الطوارق فى فترة مبكرة جدا لاتتجاوز القرن السابع الميلادى (ينتهى القرن السابع الميلادى عام ٨٠ هـ) ، ويدل على ذلك مقابر العرب الذين قدموا للتبشير بالدين ، تلك المقابر الموجودة فى تيوتين Tio Tine فضلا عن نقوش تيماسو Timissao فى سقف أحد الكهوف [3] .

وقد كان من الممكن أن تسير الأمور على خير ما يرجوه المسلمون ، لو سار الخلف من الولاة على سنة السلف ، وغلبوا دينهم على دنياهم ، وأصلحوا آخر الأمر بما صلح به أوله . ولكن جاءت طبقة من الولاة فتحت للناس أبواب الشر ، وسمحت للفتن أن تطل برءوسها – بما خالفوه من أوامر الدين ، وبما ساروا به فى الرعية من طرق يأباها الإسلام وينهى عنها الخلق القويم ، وبما

---

(١) The Romance of the Nearest East ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

(٢) دبوز ٧/٢ ، ٨ ومقدمة «الوضع» لطفيش ص ٦ ، ٧ .

(٣) الصحراء الكبرى ص ١٠٢ .

عرف عنهم من طمع في أخذ أموال الرعية وقسوة في جمع الخراج منهم .
وهكذا لم تنعم بلاد المغرب في ظل الإسلام بالاستقرار المأمول ، ولم يدم لها هدوؤها وطمأنينتها ، بل اشتعلت ثورات وفتنا ، وتفرقت شيعا وأحزابا ، وتوزعت دويلات وولايات . وندر أن تمر فترة من الزمن دون اضطرابات وقلاقل ، وثورات وهجمات ، وكرّوفرّ ، وإقبال وإدبار . وكان القائم بمعظم هذه الثورات سكان البلاد الأصليين من البربر . ولم تكن ثوراتهم ضد الدين بل كانت ضد الحاكم الظالم ، ولم تكن بهدف الخروج على الإسلام ، بل كانت بهدف تأديب الوالي المستبد .
ولهذا فإنه على الرغم من كثرة الثورات والحركات الخارجية البربرية لانجد حركة واحدة منها – منذ القرن الثاني الهجري – تهدف إلى استبدال دين آخر بالإسلام، أو العودة إلى الحياة الجاهلية الأولى . وهذا فرق كبير بين ثورات القرن الأول وثورات القرن الثاني وما يليه ، لابد أن ينتبه إليه كل من يرصد الحركات الثورية في المغرب العربي . وفي ذلك يقول Gsell : «كان البربر يثورون على العرب إما أنفة من أداء الخراج ، وإما طمعا في الاستقلال ، وغرضهم إخراج العرب من وطنهم . وقد أسسوا دويلات فيما بين طرابلس والأندلس ومع ذلك لم يفكروا في رفض لغة العرب وديانتهم والرجوع إلى اللغة اللاتينية والدين المسيحي ، فبقى مؤلفوهم في التوحيد والفقه والتاريخ يكتبون تآليفهم باللغة العربية ، وشاد ملوكهم قصورهم على الفن العربي ، وصارت بعض القبائل البربرية تلفق أنسابا تتصل بها من العرب»(١) .

ونكتفي بذكر الأمثلة الثلاثة الآتية لظلم بعض الحكام وتعسفهم تاركين الاستقصاء للمشتغلين بالتأريخ السياسي :

---

(١) الميلي ١/٣٥٠ .

١- موسى بن نصير رجل نشيط قادر ، ومحارب ماهر ، ولكنه لم يكن خبيرا فى سياسة الشعوب . فبدلا من أن ينفق وقته فى التنظيم وكسب القلوب ، مضى يحارب البربر ، ويرميهم بالجيش تلو الجيش حتى روعهم ، وشككهم فى مرامى الحكم الإسلامى ، وانصرفت همته إلى الغنيمة والسبى . وأسرف فى ذلك إسرافا أنكره عليه العرب أنفسهم ، فقد روى أنه لما أرسل إلى الوليد عشرين ألفا من السبى (وهو مقدار الخمس فقط) قال الناس : ابن نصير والله أحمق . من أين له عشرون ألفا يبعث بها إلى أمير المؤمنين فى الخمس !! ونتيجة لهذه السياسة ريع البربر ، وجعلوا يتركون مساكنهم ، ويتهاربون أمامه ، واضطر معظمهم إلى الاستئمان وبذل الطاعة عن رهبة . ومضى على ذلك هو وبنوه من بعده وكبار رجاله قرابة عشر سنوات، أصابوا من المغانم والسبى ما لم يسمع بمثله من قبله ، وفاق ما غنمه المسلمون من فارس وغيرها من الأقاليم[1] .

٢- يزيد بن دينار بن أبى مسلم (١٠٢ هـ) الذى وصفته المصادر القديمة بسياسة الظلم والتعسف ، والذى كان ماديا ، ورأى قلة الدخل بسبب إسلام من أسلم من البربر ، فعزم أن يسير بسيرة الحجاج فى أهل الإسلام الذين سكنوا الأمصار ، ممن كان أصله من السواد (القرى) من أهل الذمة فأسلم بالعراق فإنه ردهم إلى قراهم ، ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم أهل ذمة . وزعم يزيد أن بلاد المغرب فىء للمسلمين ومغنم لهم فتحت عنوة بالسيف ، وهو عكس ما رآه حسان ، وأقره موسى بن نصير، وكل الولاة من بعده .

(١) حسين مؤنس : ثورات البربر ص ١٤٤ .

وكانت النتيجة الحتمية قتل يزيد بعد الثورة عليه ، وتعيين وال آخر مكانه [١].

٣- إسماعيل بن عبدالله بن الحبحاب أساء السيرة بطنجة وأراد أن يخمّس من أسلم من البربر وزعم أنه الفيء ، فانقضوا عليه [٢] .

ومهما يكن من شيء فقد استقر الإسلام في البلاد ورسخ منذ بداية القرن الثاني الهجري ، ولم يصب بأي نكسة منذ ذلك الوقت حتى الآن ، رغم تكرار تعرض البلاد لهجمات مسيحية من إيطاليا وفرنسا وأسبانية ومالطة وغيرها .

وقد كانت الحركات الانفصالية تهدف إلى الاستقلال عن مقر الحكم وليس الردة عن الإسلام وربما كانت أول حركة استقلالية للقيروان عن المشرق تلك التي قام بها عبدالرحمن بن حبيب ضد أبي جعفر المنصور . وقد كان ابن حبيب شخصية سياسية نشأ في المغرب والأندلس وتولى الحكم بمساعدة سكان إفريقية [٣] .

وقد زاد من رسوخ الإسلام في المنطقة قيام دويلات بربرية [٤] ووجود كثير من الفرق الإسلامية ، والمذاهب الفقهية ، وشدة التنافس بينها ، ومحاولة أعوان كل فرقة أو مذهب أن يكسبوا أنصارا جددا وأن يكون لهم السلطان دون غيرهم .

---

(١) ديوز ٢/٢٠١ ، ٢٠٢ والقيروان ص ٤٥ .

(٢) المنهل العذب ص ٥٩ .

(٣) القيروان ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٤) يقول توماس أرنولد : لم ترسخ قدم الإسلام بين البربر إلا بعد أن اتخذ شكل حركة قومية وأصبح مرتبطا بتوالي دول [illegible] تلك الدول التي دخل في عهدها كثير من البربر الإسلام، وكانوا من قبل يعدون قبول هذا الدين رمزا على ضياع الاستقلال السياسي (ص ٣٥١) . ويقول : لايبعد أن تكون الحركة القومية الكبرى التي نشأت بين قبائل البربر وأعني بها ظهور الموحدين في بداية القرن ١٢ م قد جذبت إلى المسلمين بعض القبائل التي كانت بعيدة عن الإسلام حتى ذلك الحين (ص ٣٥٣) .

وأشهر الفرق الإسلامية التى كونت لها مدارس بالمنطقة : الخوارج والأباضية والمعتزلة . أما المذاهب الفقهية فكان أشهرها المذهبين الحنفى والمالكى. وقد كان الخوارج من أسبق الناس وصولا إلى المغرب ، إذ كان ظهورهم قبل منتصف القرن الأول الهجرى ، ثم اضطهدوا فاضطر بعضهم إلى الهرب وقصدوا شاطىء تونس وجزيرة جربة . وقد لاقت مبادىء الخوارج أذنا صاغية بين البربر ، وبخاصة فى المغرب الأقصى وجنوب تونس ، واعتنقها الكثيرون منهم ، ولذلك لما تنادى به من مساواة ، وما تعلنه من أن الخليفة لايجب أن يكون قرشيا . وقد كان أول من دعا إلى المذهب الخارجي فى المغرب عكرمة بن عبدالله المتوفى سنة ١٠٧ هجرية ، وكان من كبار تلاميذ ابن عباس ، ومن رجال العلم فى عصره ، ومن الفقهاء الكبار فى الدين ، ومن الشخصيات العلمية الناضجة . وكان ثائرا لتحيز الأمويين لأنفسهم وتفريقهم بين المسلمين [١] .

أما الأباضية [١] فينسبون إلى عبدالله بن أباض رغم أن إمام الأباضية هو جابر بن زيد . وقد حملوا هذا الاسم فى زمن عبدالملك بن مروان . أما انتقال هذه المدرسة إلى المغرب بعامة وطرابلس بخاصة فقد تم فى أوائل القرن الثانى الهجرى على يد سلمة بن سعد الذى دعا لمبادئه قرابة عشر سنوات ، ثم كون بعثة علمية سافرت إلى البصرة للقاء أبى عبيدة بن أبى كريمة البصرى زعيم الأباضية فى

---

(١) دبوز ٢٧٩/٢ ، وظهر الإسلام ٢٩٣/١ ، A History of the Colonization of Africa ص ٥٦ . ولكن ذكرت دائرة المعارف الإسلامية أن هذه الحركة قد بدأت فى المغرب على يد ميسرة السقاء الطنجى (عام ١٢٢ هـ) . راجع مادة بربر .

(٢) من الغريب أن نجد كتاب الأباضية المحدثين مثل على معمر وعمرو تامى ومحمد دبوز يصرون على كتابة الكلمة بهمزة من أسفل مع أنها بهمزة من أعلى . يقول صاحب الجواهر المنتقاة : «عبدالله بن أباض والنسبة إليه أباضى بفتح الهمزة» (ورقة ٧٩) .

عصره . وعادت البعثة لتنشر المبادىء الأباضية ، وتعمل على قيام دولة أباضية . ويحرص الأباضيون دائما على أن يفرقوا بين مبادئهم ومبادىء الخوارج ، ومع ذلك نجد كثيرا من الباحثين لايميز بين الفرقتين . وقد لخص الأستاذ دبوز أهم مبادىء الأباضية وبين الفرق بينهم وبين الخوارج فيما يأتى :

١- كلاهما أنكر التحكيم وتمسك بالحكم الجمهورى .

٢- أن الخوارج مغالون والأباضية معتدلون .

٣- هناك فروق بينهما فى الاعتقاد والمسائل الجوهرية والسلوك .

٤- الأباضية لايحكمون بكفر مرتكب الكبيرة ، ولكن يرونه عاصيا بخلاف الخوارج .

٥- الأباضية لايقاتلون إلا دفاعا عن النفس أو الدين بخلاف الخوارج [١] .

أما المعتزلة فيبدو أن مركز تجمعاتهم كان بالمغرب الأوسط والأقصى ، وأنهم كانوا يكثرون فى «تيهرت» عاصمة الدولة الرستمية . يقول البارونى : إن الواصلية من المعتزلة قد خرجوا على الإمام وحاربوه ، وأنه لما أنهى الإمام عقد الهدنة مع الواصلية استعدلهم وتهيأ لإطفاء جذوة نفاقهم . ولما كان جبل نفوسة وما يليه من حيز طرابلس من جملة ولايات مملكته التى تدين بالطاعة له وتتفانى فى رضائه ، وفيه من أهل النجدة والشجاعة وأبطال الحرب وفحول العلماء ما يعد بالألوف ، رأى أن يطلب منهم الإعانة ، فأرسل إلى عامله بالجبل كتابا طلب منه جندا يتألف من ٤٠٠ نفر ، ١٠٠ من خيرة فرسان نفوسة ، و ١٠٠ من المتبحرين فى التفسير ، و ١٠٠ من علماء الكلام ، و ١٠٠ من العلماء المتضلعين فى الجدال

---

(١) دبوز ٢/٣٩٠ – ٣٩٤ .

والحرام . ولكن أهل نفوسة اختاروا أربعة كل واحد منهم يقوم مقام مائة . وكان الذى اختاروه ليمثل علماء الكلام العلامة مهدى النفوسى . ولما التقى الإمام الرستمى بمهدى النفوسى قال له : أصغ إلى حتى أعرض عليك ما جرى بينى وبين المعتزلى من المحاورات لتكون على بصيرة من الأمر ، وتعلم مقدار معرفته . فأصغى إليه ، وصار يسرد له الحديث . وكلما رأى خطأ فى كلام المعتزلى قال له: هاهنا حاد عن الصواب وسفسط ، وكان من الصواب أن تجيبه يا أمير المؤمنين بكذا ... وقد دخل مهدى النفوسى فى نقاش مع المعتزلة فأفحم – كما يقول البارونى – فى يوم واحد تسعين منهم . ودعى المعتزلة إلى مناظرة علنية بين شيخهم ومهدى النفوسى انتصر فيها مهدى ، وسلم المعتزلة بهزيمتهم (١) .

وقد كان المذهب المالكى أسبق المذاهب الفقهية شيوعا فى المغرب ، ثم تلاه مذهب أبى حنيفة . أما المذهب الشافعى فلم يجد له أنصارا عندهم . يقول المقدسى : بسائر المغرب (ما عدا الأندلس) إلى مصر لايعرفون مذهب الشافعى رحمه الله ، إنما هو أبو حنيفة ومالك . وكنت يوما أذاكر بعضهم فى مسألة ، فذكرت قول الشافعى فقال : اسكت . من هو الشافعى ؟ إنما كانا بحرين : أبو حنيفة لأهل المشرق ، ومالك لأهل المغرب ، أفنتركهما وتشتغل بالساقية . وسمعتهم يحكون عن قدمائهم فى ذلك حكايات عجيبة حتى قالوا : إنه كان الحاكم سنة حنفيا وسنة مالكيا . قلت : وكيف وقع مذهب أبى حنيفة رحمه الله إليكم ولم يكن على سابلتكم ؟ قالوا : لما قدم ابن وهب من عند مالك رحمه الله وقد حاز من الفقه والعلوم ما حاز ، استنكف أسد بن عبدالله لجلالته وكبر نفسه أن يدرس عليه ، فرحل إلى المدينة ليدرس على مالك فوجده عليلا . فلما طال مقامه عنده قال له :

---

(١) الأزهار الرياضية ٢/١١٦ – ١٢٥ .

ارجع إلى ابن وهب فقد أودعته علمي ، وكفيتكم به الرحلة . فصعب ذلك على أسد، وسأل : هل يعرف لمالك نظير ؟ فقالوا : فتى بالكوفة يقال له محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة . قالوا : فرحل إليه وأقبل عليه محمد إقبالا لم يقبله على أحد ، ورأى فهما وحرصا فزقّه الفقه زقا . فلما علم أنه قد استقل وبلغ مراده فيه سيّبه إلى المغرب . فلما دخلها اختلف إليه الفتيان ورأوا فروعا حيرتهم ، ودقائق أعجبتهم ، ومسائل ما طنت على أذن ابن وهب ... وفشا مذهب أبي حنيفة بالمغرب[١] .

وقد قوى مذهب أبي حنيفة في المغرب بعد تولي أبي يوسف في عهد الرشيد خطة القضاء ، فكان القضاة يعينون من قبله من أقصى المشرق إلى أقصى عمل إفريقية . ويقول عياض : ظهر مذهب أبي حنيفة بإفريقية قرابة ٤٠٠ عام ثم انقطع منها [٢] . وقد كانت بداية اضمحلاله على يد المعز بن باديس الصنهاجي (توفى سنة ٤٥٤) الذي كان أول الأمرشيعيا يدعو لآل عبيد ، ثم قطع دعوتهم ودعا لبني العباس ، وحمل الناس على مذهب الإمام مالك[٣] . واقتحم النفوذ المالكي فيما بعد معاقل الأباضية ، فيقول الباروني عن جبل غريان إنه عامر بقبائل مالكية المذهب خرجوا عن مذهب الأباضية منذ عصر الشيخ إسماعيل بن موسى الجيطالي[٤] .

---

(١) أحسن التقاسيم ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(٢) الأدب المغربي لابن تاويت والصادق عفيفي ص ٤٦ ، ظهر الإسلام ٢٩٣/١ .

(٣) ظهر الإسلام ٢٩٣/١ و ٢٩٤ .

(٤) ٨٩/٢ .

وقد حافظت على الإسلام في المنطقة عوامل أخرى أدت إلى استمراره ، بل وعملت على نشره في المناطق المجاورة ، ومن ذلك :

١- قيام الدولة المرابطية التي تعد أول دولة وحدت المغرب الأوسط والأقصى ، وقامت بدور كبير في نشر الإسلام على الساحل الإفريقي الغربي وبلاد السودان . ويجمع المرابطون بين الجهاد والثقافة الدينية .

٢- كذلك كان للموحدين أثر محمود في الجهاد ضد الصليبيين في الأندلس ، كما كان من مآثرهم نشر دعوتهم التي تقوم على التوحيد . وكان للموحدين الفضل العظيم في نشر الثقافة الإسلامية [١] .

٣- كذلك كان لكثرة المساجد والزوايا ومجالس العلم أثر كبير في نشر الإسلام وتعاليمه .

---

(١) انتشار الإسلام في القارة الإفريقية لحسن إبراهيم حسن ص ١٧ ، ٢١ ، ٢٢ .

الباب الثانى

الصراع اللغوى فى المنطقة

الفصل الأول

مراحل الصراع

جاءت اللغة العربية إلى المغرب مع جيوش الفتح الإسلامي ، فوجدت بها عددا من اللغات تبعا لتعدد الأجناس بها . فالبربر وهم سكان البلاد الأصليون كانوا يتكلمون البربرية . والأفارقة وهم الذين اختلطوا من أهل البلاد بالروم ودخلوا في خدمتهم كانوا يتكلمون لغة مزيجا من اللاتينية والبربرية (١) . والفرنجة من الحكام وأتباعهم من الروم كانو يتكلمون اللاتينية . والفينيقيون – وهم من أصل سامي ، وقد هاجروا إلى شمالي إفريقية قبل عدة قرون من عصر المسيحية(٢) – كانت لغتهم هي الفينيقية . وقد اتسع نفوذ لغتهم حتى كانت تستعمل إلى جانب اللاتينية كلغة رسمية ، كما كانت لغة متداولة حتى الفتح العربي (٣) . ويذكر الأستاذ الكعاك أن سكان البلاد الأصليين عندما أسسوا

---

(١) شيت خطاب ٢٠/١ .

(٢) اعتبر أحمد النائب الأنصاري الفينيقيين أقدم الأمم التي استوطنت ليبيا ، ويقول إنهم قبل ذلك كانوا يستوطنون فلسطين وسواحل الشام ، وكانوا يترددون على شمالي إفريقية منذ القرن ١٢ ق . م . وأنشأوا على سواحله محطات تجارية لنقل بضائعهم (المنهل العذب ٢٧/١) . وبدأ الفينيقيون استيطانهم عن طريق شراء إحدى نسائهم الحاكمات قطعة أرض بنت عليها مدينة قرطاجنة سنة ٨٤٠ ق م ، ثم وسعوا نفوذهم . وبعد ذلك أخذوا يغيرون على القبائل البربرية (الزاوي : تاريخ الفتح ص ٢٣ ، ٢٤) .

(٣) حسن سليمان محمود ص ٨١ . وكلمة «لبدة» مثلا اسم فينيقي معناه «الصحراء الخالية من العمران» (المنهل العذب ٢٤/١) . ويعطي الدكتور مصطفى كمال عبدالعليم في كتابه «دراسات =

ممالك مستقلة كانت إحدى اللغتين الرسميتين هى اللغة البونيقية [١] ، وبها ألف البربر تصانيفهم . ولم يكن بربرى مثقف لايعرف اللغة البونيقية [٢] . وقد استمرت الكتابة البونيقية مستعملة حتى فى معاملات الناس اليومية بالإضافة إلى شئونهم الإدارية والمالية [٣] .

وقد دخلت اللغة العربية فى صراع مع هذه اللغات جميعها ، ولكن أمر الصراع كان هينا بالنسبة لما عدا اللغة البربرية ، فقد كان أصحاب هذه اللغات

= فى تاريخ ليبيا القديم» تفصيلات أكثر عن وضع اللغة الفينيقية فيقول : «عثر على كثير من النقوش المكتوبة باللغة الفينيقية ولكن بحروف لاتينية . ولعل تلك الفينيقية كانت لغة المجتمعات الليبية المحلية فى هذه المناطق البعيدة عن الساحل . وأغلب هذه النقوش يرجع إلى فترة متأخرة عن بداية القرن الثالث الميلادى ... وهذه النقوش لها طابع رسمى ، وهذا يرجح أنها كانت اللغة الرسمية الثانية بعد اللغة اللاتينية ، على الأقل فى عصر أغسطس ، (ص ٩٨) .

(١) اللغة البونيقية لغة مزيج من البربرية والفينيقية (ديوز ٦٤/١) . ولكن ذكر الأستاذ محمد مصطفى بازامة أن البونيقية مصطلح أطلقه علماء الغرب على فينيقية قرطاجنة تمييزا لها عن فينيقية أرض كنعان فى الشرق (ليبيا هذا الاسم فى جذوره التاريخية ص ١٨ هامش رقم ١٢) .

(٢) مظاهر الحضارة الفينيقية فى طرابلس ص ١٢٥ .

(٣) المرجع السابق ص ١٢٧ .

ولكن ماذا كان وضع اللغة اليونانية فى البلاد ؟ يبدو أنها كانت ذات نفوذ فى إقليم برقة فقد عثر على نقوش لقرارات أصدرها الامبراطور أغسطس وقد كتبت باللغة الإغريقية (دراسات فى تاريخ ليبيا القديم ص ١٥٦ ، ١٥٧) . وفيما عدا ذلك لاتجد اليونانية ذكرا أو نفوذا فى ليبيا . حتى البيزنطيون الشرقيون (أو كما سماهم العرب الروم) الذين كانوا يحكمون البلاد حتى الفتح الإسلامى لم يتخذوا اللغة اليونانية لغة رسمية على الرغم من قوة النفوذ الهيلينى وقتها . فقد كانت «الدولة رغم الدوافع التى تدفعها نحو الشرق تبدو مواصلة لتاريخ روما ، فبقيت اللغة اللاتينية لغة رسمية رغم ما كان فى ذلك من غرابة . ومن أوائل القرن السابع إلى منتصف القرن التاسع أسرعت الدولة فى تحولها إلى دولة شرقية» (الامبراطورية البيزنطية الشرقية ص ٣٣٣ – ملحق بكتاب الامبراطورية البيزنطية لنورمان بينز) .

قلة قليلة ، وكانت لغاتهم تستخدم فى مجالات محدودة ، وبين أوساط معينة ، بالإضافة إلى استخدامها فى الدواوين ، فلم تكن أى منها تتمتع بمميزات اللغة العامة ذات النفوذ والقوة فى مختلف أنحاء الإقليم . هذا بالإضافة لما هو ثابت أن معظم الحكام ومن سار فى غبارهم قد غادروا البلاد بعد استتباب أمر المسلمين ، وتركوا المجال للفاتحين ولغتهم . وبذلك خلا الميدان للغتين العربية والبربرية ، وساروا فى صراع طويل ما تزال آثاره باقية حتى وقتنا الحاضر .

وإنه ولئن كان من الثابت أن صراع اللغة العربية مع البربرية لم يدم طويلا – كما دام بين العربية والقبطية فى مصر مثلا – فإن نتيجة الصراع كانت فريدة، إذ أدت إلى تقاسم مناطق النفوذ فانحسر ظل البربرية ، وانحصرت فى مناطق معينة من المغرب العربى وهى مناطق التجمعات البربرية حتى الآن ، وسادت اللغة العربية أو انتشرت فى سائر أنحاء المغرب ، ولكن مع امتداد سيادتها على مناطق البربر باعتبارها مناطق مزدوجة اللغة .

وقد حكم صراع اللغتين العربية والبربرية نفس العوامل التى حكمت الصراع بين العربية والقبطية وهى :

١– العامل السياسى .

٢– العامل الاقتصادى .

٣– العامل الدينى .

٤– الفترة الزمنية التى تسود فيها العوامل السابقة كلها أو بعضها .

٥– مدى اندماج أصحاب اللغة الوافدة مع أصحاب اللغة الأصلية ، وطريقة معاملتهم لهم .

٦- عامل الهيبة أو التفوق الذاتي للغة .

٧- درجة قرابة اللغتين المتصارعتين .

وقد لعبت هذه العوامل كلها - أو معظمها - دورا هاما فى صالح اللغة العربية ، وتعاونت فيما بينها لإحلال اللغة العربية فى المغرب محل البربرية باعتبارها اللغة العامة المشتركة ، وتقليل نفوذ اللغة البربرية إلى أقصى حد .

فبالنسبة للعاملين الاقتصادى والسياسى ، نجد أنهما عملا فى المغرب - كما عملا فى مصر - فى صف اللغة العربية . فمما لاشك فيها أن القوة كانت بأيدى العرب الذين بذلوا أقصى وسعهم لتعريب البلد ، ونشر الإسلام ، وقد أدت عمليات التعريب ونشر الإسلام إلى نتائج اقتصادية هامة كان لها أثرها فى دعم اللغة العربية ورفع شأنها فى المغرب . وقد كان من أهم الخطوات التنفيذية التى خطاها العرب ، والتى قوت جانبى الإسلام واللغة العربية فى المغرب ما يأتى :

١- إحلال اللغة العربية محل اللغة اللاتينية أو الفينيقية فى الدواوين والمكاتبات الرسمية .

٢- تهجير - أو هجرة - عدد من القبائل العربية إلى المغرب ، بقصد الإقامة الدائمة .

٣- فرض أنواع مختلفة من الضرائب على غير المسلمين .

٤- قصر الوظائف الرئيسية فى الدولة على العرب أو المسلمين .

فإذا انتقلنا إلى العامل الديني نجد أنه من الثابت أنه لم يكن في المغرب ضغط مباشر على غير المسلمين ليعتنقوا الإسلام[١] . ولكننا نجد من الثابت أيضا أنه كانت هناك امتيازات معينة يتمتع بها المسلمون باعتبارهم الطبقة الحاكمة والمرشحين لتولي الوظائف القيادية أو الرئيسية . وقد أغرى هذا وذاك مجموعة من المواطنين باعتناق الإسلام لينعموا بالمساواة في ظله، أو ليحققوا مصلحة دنيوية[٢]. بل منهم من لم يكتب بذلك فادعى أصله العربي وانتسب إلى إحدى القبائل العربية[٣] . ومن ناحية أخرى نجد أناسا آخرين – وهم الكثرة – يعتنقون الإسلام طواعية واختيارا مدفوعين بما يقدمه لهم من إقناع عقلي وارتياح نفسي وإشباع عاطفي ، وبما يحويه من مبادىء وتعليمات سبق صيتها دخول الجيش العربي .

---

(١) يدعى Garrot أن من بقى على مسيحيته حتى عهد عمر بن عبدالعزيز (سنة ٧١٩) قد أجبر على الدخول في الإسلام ، أو الخروج من المغرب ، مما أدى بالبعض إلى الهجرة إلى أوربا وبالأغلبية إلى الدخول في الإسلام . ويرد الأستاذ الميلي على ذلك بقوله : «والظاهر أن هجرة المسيحيين إذ ذاك كانت اختيارا ، فقد فروا أمام انتشار الإسلام ورسوخه بهذا الوطن إلى حيث يأمنون على ذريتهم عدم سريان الإسلام إليهم (تاريخ الجزائر ٣٤٧/١ ، ٣٤٨) وسيأتي لهذه النقطة مزيد بيان فيما بعد .

(٢) سبق أن ذكرنا نموذجا من هذا النوع إسلام يعقوب بن كلس اليهودي الذي اعتنق الإسلام لتحقيق مكاسب دنيوية . ولكن ليس معنى هذا أنه هو القاعدة بل هو في الحقيقة الشذوذ الذي يثبت القاعدة . وعلى هذا فلا وجه لما تقوله دائرة المعارف الإسلامية : «والواقع أن المصلحة تغلبت في إسلام البربر على الاقتناع لأن قواد العرب عمدوا إلى تجنيدهم في جيوشهم فأسلموا طمعا في الغنائم» (مادة بربر) .

(٣) يقول مؤلفا «ملامح المغرب العربي» : «يدعي كثير من البربر الذين استعربوا أنهم من أصل عربي، شأنهم في ذلك شأن سكان البلاد الأخرى التي دخلها الإسلام» (ص ٦٢) . وتزعم هوارة أنهم قوم من اليمن جهلوا أنسابهم (البلدان لليعقوبي ، مقتبس في : ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات ص ١١) . وانظر سكان ليبيا عند اليعقوبي للدكتور عبدالقادر طليمات ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .

وهناك أمثلة أخرى تمت في بلدان أخرى من العالم العربي مثل ما حدث في مصر وعرف بقضية القاضي العمري كما سبق أن ذكرنا .

وعامل الإسلام يعد من الناحية اللغوية ذا أهمية قصوى فى أى بلد من البلاد التى فتحها المسلمون . وقد كان من الواضح ارتباط تقدم اللغة العربية وانتشارها بتقدم الإسلام وانتشاره فى مصر وفى كل الأقطار المفتوحة على السواء . وقد لعب هذا العامل فى المغرب دورا أقوى مما لعبه فى بعض البلدان العربية الأخرى كمصر مثلا[١] . لعدم ارتباط أى من الأديان التى كانت موجودة فى المغرب إذ ذاك بلغة معينة يحميها ويعتبرها لغة طقوسه وشعائره . وقد سبق أن تناولنا بالشرح موضوع الأديان التى كانت موجودة فى المنطقة قبل الفتح الإسلامى ، ونقاط الضعف فيها ، كما بينا عظمة الإسلام بالنسبة لها ، وعوامل القوة فيه .

وأما الفترة الزمنية التى ساد فيها الحكم العربى ، فقد كانت طويلة ومستمرة لدرجة مكنت للإسلام أن يرسخ ، وللغة العربية أن تسود . ولذلك لم يحدث فيما بعد أى محاولة للخروج عن دائرة الإسلام ، أو أى اتجاه لنبذ اللغة العربية .

وأما العامل الخامس ، وهو مدى اندماج أصحاب اللغة الوافدة بأفراد الشعب وكيفية معاملتهم لهم ، فقد سبق أن ذكرنا ما حققه الإسلام من مساواة بين العرب وسكان البلاد من البربر ، كما سبق أن ذكرنا سياسة الحكام فى

---

(١) كانت المسيحية فى مصر قوية راسخة ، لذلك كان تحول السكان إلى الإسلام بطيئا وبخاصة فى الأماكن النائية من مصر . (انظر : جرمة فى عصر ازدهارها ص ١٧٤) وقد أثر هذا على معركة اللغة العربية فى مصر فأطال أمدها ، إذ كان ارتباط اللغة القبطية بالديانة المسيحية ، واتخاذها اللغة الرسمية فى الصلوات والكنائس من العوامل التى أدت إلى التمسك الشديد بها والإبقاء عليها ما أمكن .

اجتذاب نفوس البربر وإشعارهم بروح الأخوة والمساواة . ومن ناحية أخرى ، كان اعتبار المسلمين من بقى من الروم والأفارقة موالى لهم - وليسوا كالبربر مساوين لهم فى الحقوق والواجبات - واعتبار أرض الروم مفتوحة عنوة لا صلحا ، سببا من أسباب اختفاء العنصر الرومى واللاتينى من البلاد شيئا فشيئا ، حتى تلاشت آثارهم من البلاد تقريبا (١) . وقد أدى هذا إلى إرضاء البربر من ناحية ، وإلى منحهم فرصة النهوض ، وتحمل المسئولية ، والأخذ بأسباب الحضارة من ناحية أخرى .

وهناك فرض آخر لاندماج الشعبين لا يستبعده الدكتور محمد عوض محمد فى كتابه «الشعوب والسلالات الإفريقية»(٢) . وهو قرابة السلالات ، أو القرابة الروحية . فالكتاب العرب حين يتحدثون عن القبائل العربية فى جزيرة العرب وما يليها من الأقطار ، كثيرا ما يشيرون - كما فعل صاحب صبح الأعشى - إلى أن البربر من سكان إفريقية الشمالية لهم صلة نسب قديمة بالعرب. ومن الكتاب من يرجع أصل البربر إلى قبائل حمير مستندين إلى الرواية القائلة بوجود غزو يمنى لهذه البلاد فى القديم ، وإن كان ابن خلدون ينكر ذلك ويستبعده بشدة(٣) .

وأيا ما كان الأمر ، وحتى على فرض اعتبار البربر حاميين والعرب ساميين، فقد سبق أن عرضنا وجهات نظر الباحثين فى الأنساب حول صلة النسب القوية التى تربط المجموعتين . ويضاف إلى هذا استيطان الفينيقيين بليبيا

---

(١)حسن محمود ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٢) ص ٢٣٨ .

(٣) راجع الزاوى : معجم ص ٣٤٣ ، تاريخ الفتح ص ١٧ .

فى فترة سحيقة من التاريخ ترجع إلى ما قبل ميلاد المسيح بقرون – كما سبق أن بينا – والفينيقيون ساميون لاشك فى ذلك ، ووجودهم بين البربر فى جماعات كبيرة قد مازج بين العنصرين إلى درجة ملحوظة .

ويشير الشيخ الزاوى إلى ما حدث من اندماج بين العرب والبربر فى أكثر من موضع من كتابه «معجم البلدان الليبية» كقوله عن أولاد بوماضى : «إنهم قبيلة عربية لم تحافظ على أصولها العربية بل التحمت مع بعض القبائل البربرية بالمصاهرة والجوار ، فحصل بينهما امتزاج كبير»[١] . وقوله : «لما كثر العنصر العربى فى إفريقية وتغلبوا على أمصارهم وسكنوا مدنها وقراها وأصبحوا أكثرية، انحاز البربر إلى جبل نفوسة وزوارة واندمج بعضهم الآخر فى العرب»[٢] . وتعطى دائرة المعارف الإسلامية أمثلة أخرى للاندماج فتقول : «استقرت قبيلة بنى قرة ، وقبيلة هَيْب وهم بطون من سليم فى برقة وامتزجوا بأهلها امتزاجا يجعل من الصعب علينا الآن أن تميز بين ذريتهم وذرية أهل البلاد الأصليين»[٣] . وتقول فى مكان آخر متحدثة عن أثر الزحفة الهلالية – وسوف نتحدث عنها فيما بعد بشىء من التفصيل – وما ترتب على ذلك من نتائج : «تم اختلاط البربر بالعرب فى السهول والهضاب ، وهجرهم تدريجيا لغتهم وعاداتهم ، وفقدهم أيضا اسمهم القديم ، واستعاضتهم عنه باسم شخص وصلوا به نسبهم ، بل نستطيع أن نقول إنهم استعربوا»[٤] .

---

(١) ص ١٦٠ ، ١٦١ .

(٢) ص ٣١٥ .

(٣) مادة برقة .

(٤) مادة بربر .

ومن الثابت تاريخيا كذلك أن سيل الهجرة إلى الشمال الإفريقي لم ينقطع طوال عدة قرون ، بل يرى سلجمان أن كثيرا من العرب المهاجرين أو المهجرين قد آثروا الاستيطان في المغرب الأدنى دون سائر الشمال الإفريقي نظرا لطبيعته الصحراوية الملائمة [1] .

فإذا انتقلنا إلى العامل السادس نجد أن تفوق أى لغة وتمتعها بالهيبة يرجع إلى قيمتها الذاتية . وفى حالة اللغة العربية نجد قيمتها عظيمة ، وتفوق إلى حد كبير القيمة الذاتية للغة البربرية فى ذلك الوقت . فهى من ناحية لغة الحكام ، ومن ناحية أخرى لغة الدين والقرآن والنبى . وهى بالإضافة إلى هذا وذاك لغة حضارة عظيمة ، وثقافة تفوق أختها البربرية إلى حد كبير ، قد لايسمح حتى بالمقارنة .

ويمكننا أن نقدر الفجوة بين اللغتين العربية والبربرية فى هذا الصدد إذا أخذنا فى الاعتبار الحقائق الآتية :

١- أن اللغة العربية كانت ذات تاريخ وأدب وثقافة من قبل ظهور الإسلام ثم انتشرت فى كثير من أنحاء العالم بعد مجيء الإسلام ، وتمثلت ثقافات وحضارات كثيرة ، مما أعطاها ميزة ضخمة وقيمة كبيرة . وبمرور الزمن ازداد هذا العامل قوة . فما أن جاءت العربية إلى معركتها الحاسمة مع البربرية حتى كانت قد أصبحت لغة ثقافة عالية .

٢- أن متكلمى البربرية لم يكونوا قد وصلوا إلى درجة من الحضارة تمكنهم من تثبيت لغتهم فى شكل أدب . فعلى الرغم مما عثر عليه من نقوش فى الصحراء تثبت كتابة اللغة البربرية ، لم يؤثر عن البربر أى كتابات أو مؤلفات

---

(١) محمد عوض ص ٣٣٩

ذات قيمة حتى عدة قرون من ظهور الإسلام . ولهذا يقول مؤلفا Libyan Notes : «لم تستعمل اللهجات البربرية قط لأغراض أدبية»[١] ، ويقول روم لاندو : «البربرية ليست لغة ثقافة»[٢] .

٣- أن البربرية لم تكن في الحقيقة ذات لغة واحدة مشتركة ، وإنما كانت مجموعة من اللهجات ، وكان التفاوت بينها كبيرا [٣] . وكانت أشبه بلهجات القبائل العربية في مرحلة طفولتها ، وقبل أن تأتلف وتتوحد في لغة قومية واحدة هي اللغة المشتركة التي نزل بها القرآن الكريم [٤] . ويقول روم لاندو في ذلك : قد نقول من قبيل المزاح إن هناك من اللغات البربرية ما يعادل ما هناك من قبائل بربرية [٥] .

٤- أن اللغة البربرية في فترة احتكاكها باللغة العربية كانت في موقف ضعيف بشكل واضح . فقبل ذلك بمدة طويلة كانت قد وقعت فريسة للغتين اللاتينية والفينيقية اللتين أصبحتا فيما بعد لغتي الكتابة الرسمية . وهذا يعني أن الأعمال الكتابية الهامة كانت تكتب باللاتينية أو الفينيقية لا البربرية ، ويعني بالتالي إضعاف اللغة البربرية إلى حد كبير .

ومن أجل هذا حين جاءت حركة الترجمة النشيطة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية لم يجد المترجمون شيئا يمكن ترجمته من البربرية ، ولا نعلم بوجود ترجمة من هذا النوع لأي عمل كان .

---

(١) ص ١١ .
(٢) أزمة المغرب الأقصى ص ٩٧ .
(٣) The Eastern Libyans ص ٧٣ .
(٤) تاريخ المغرب العربي لسعد زغلول ص ٥٧ .
(٥) أزمة المغرب الأقصى ص ٩٧ .

وأما العامل الأخير ، وهو درجة قرابة أو بعد اللغتين المتصارعتين ، فهناك آراء تضع العربية والبربرية فى مجموعة واحدة سواء أطلق عليها المجموعة السامية ، أو المجموعة الحامية السامية ، أو المجموعة الأفرو آسيوية . وقد سبق أن عرضنا هذه الآراء بشيء من التفصيل . ومعنى هذا أن العلاقة بين اللغتين موجودة ولا يمكن إنكارها .

فإذا أردنا أن نحدد المراحل التى قطعتها اللغة العربية فى صراعها مع البربرية فلابد أن نحلل العوامل والأحداث التاريخية ، ونرتبها ترتيبا زمنيا ، ونرصد نقاط التحول فى حياة كلتا اللغتين . وفى رأينا أن مراحل الصراع اللغوى فى المنطقة يمكن أن تقسم إلى ثلاث على الوجه الآتى :

١- مرحلة التعادل بين اللغتين .

٢- مرحلة اختلال ميزان القوى فى صالح اللغة العربية .

٣- مرحلة الاستقرار .

وإليكم بيان ذلك :

المرحلة الأولى : مرحلة التعادل بين اللغتين :

يمكن تحديد هذه المرحلة بالفترة المحصورة بين الفتح الإسلامى للمغرب الأدنى ونهاية القرن الأول الهجرى (= ٧١٨ م) . وهى مرحلة تتميز بوجود ازدواجية فى اللغة ، ومحاولة كل طرف من طرفى الصراع التغلب على مشكلة التفاهم عن طريق تعلم لغة الطرف الآخر ، أو على الأقل بضع كلمات من لغته . ولا نشك لحظة فى أن التفاهم فى المرحلة الأولى من هذه الفترة كان يتم عن طريق المترجمين الذين يعرفون اللغتين . ويفترض الأستاذ حسن حسنى

عبدالوهاب أن هؤلاء التراجمة لابد أن يكونوا إما عربا من عرب الشام وفلسطين والحيرة – وكان كثير منهم قد امتزجوا بالروم وتعلموا لغتهم واعتنقوا دين النصرانية ، ثم حين ظهر الإسلام أسلموا والتحقوا بإخوانهم العرب – وإما أفرادا من قبط مصر ، وكان فريق كبير منهم يحسن اللسان اليوناني . ويؤيد ذلك ما روى عن الواقدى من أن عبدالله بن أبى سرح لما كان أمام مدينة سبيطلة [١] . وقبل محاربته لبطريق الروم (جرجير) «كان معه رجل من قبط مصر» ، وإما أفرادا من سكان الواحات المصرية الذى كانوا من سلالة البربر ، فيجوز أن الفاتحين اصطحبوا منهم أفرادا للترجمة [٢] .

وتتميز هذه المرحلة بما يأتي :

١- إتمام فتح المغرب الذى أتعب الدولة الإسلامية وكلفها من أموالها ووقتها الكثير . وقد تم هذا الفتح حوالى عام ٨١ أو ٨٢ هـ [٣] .

٢- توطيد حكم العرب فى المنطقة بعد حروب دامية ومعارك عديدة بلغت فى شرقى بلاد المغرب وحدها – فى رواية ابن خلدون – ثلاثمائة وقعة [٤] .

٣- اقتحام جيوش الفتح معاقل البربر فى الجبل منذ اللحظات الأولى للفتح الإسلامى . فبعد أن أتم عمرو بن العاص فتح طرابس وصبراته ذهب بجيشة

---

(١) تولى عبدالله بن أبى سرح مصر سنة ٢٥ هـ فى عهد الخليفة عثمان بن عفان . وقد قام بفتح إفريقية مرة ثانية ابتداء من عام ٢٧ هـ . وكانت سبيطلة عاصمة ملك جرجير ، وقد فتحها ابن أبى سرح سنة ٢٧ ، ثم فتحها مرة ثانية عام ٢٩ هـ لأن جرجير نقض العهد الذى أبرمه معه فى المرة الأولى . (ولاة طرابلس ، ص ١٥ – ١٨) .

(٢) ورقات ١/٦٢ – ٦٤ .

(٣) دبوز ٢/١٠٧ ، حسين مؤنس : ثورات البربر ص ٢٤٣ .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية (بربر) .

إلى «شروس» عاصمة البربر فى الجبل ، ولم تلبث أن دخلها العرب فاتحين[١]

٤- حكم حسان بن النعمان الذى امتد من عام ٧٧ هـ إلى عام ٨٦ هـ[٢] ، وتتميز فترة حكمه بما يأتى :

(أ) القضاء على الكاهنة وإزالة ملكها عام ٨٤ هـ ، وبقتل الكاهنة حسن إسلام كثير من البربر ودانوا بطاعة العرب[٣] .

(ب) تدوين الدواوين ، وجعل ديوان فيه الكتبة والرؤساء المسئولون لكل وظيفة من وظائف الدولة .

(جـ) جعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية فى الدولة ، بها ترفع الشكاوى ، وتحرر الرسائل ، ويكتب فى الدواوين .

(د) مساواته فى العطاء والرتب والمعاملة بين البربر والعرب .

(هـ) إقامته عمالا على النواحى من ذوى الحزم والدين .

(و) إنشاء المساجد فى المدن والقرى ، وإقامة الفقهاء فيها للصلاة وقراءة القرآن والوعظ والإرشاد والفتوى فى مسائل الدين .

(ز) اعتبر حسان أرض البربر وبلادهم مفتوحة صلحا لا عنوة ، وأقر البربر على ما فى أيديهم من أراض ، وألزم كل قبيلة بزراعة أرضها ودفع زكاتها إلى بيت المال .

---

(١) ولاة طرابلس ص ١٣ .

(٢) السابق ص ٢٩ ، ٣١ .

(٣) السابق ص ٣٠ .

(حـ) ضرب حسان النقود للمغرب دنانير ودراهم وفلوسا . وكان الناس قبل ذلك يتعاملون بنقود القوط والبيزنطيين ، وهى تحمل رسم ملوكهم (١) .

٥- فى أواخر هذا القرن صدرت تعليمات من الخليفة عمر بن عبدالعزيز إلى جميع الولاة والحكام - كما سبق أن ذكرنا - بعدم استخدام الذميين أولياء من دون الله ، والتهديد بعزل من يترك فى ولايته عاملا يدين بغير الإسلام . ومما جاء فى رسالة عمر فى هذا الصدد : «فلا تولين أمور المسلمين أحدا من أهل الذمة فتبسط أيديهم وألسنتهم ، وتذل المسلمين بعد أن أعزهم الله» . وعلى الرغم من أن المراجع قد سكتت عن بيان رد الفعل لهذه الرسالة فى المغرب ، إلا أننا نستنتج أنه قد حدث فيها ما حدث فى مصر عقب هذه التعليمات ، إذ أصدر حاكم مصر إذ ذاك وهو أيوب بن شرحبيل أوامره بإحلال المسلمين أو العرب محل الأقباط فى الوظائف العامة (٢) . ومع ذلك فنحن لانتوقع تطبيقا شاملا لهذه التعليمات فى هذا القرن ، إذ يحتاج ذلك إلى فترة زمنية تطول أو تقصر بحسب وضع كل إقليم .

٦- كان عدد العرب فى الشمال الإفريقى كله قليلا طوال هذا القرن ، وممثلا غالبا فى آلاف قليلة من المحاربين ورجال الإدارة والدين . فى حين أن عدد البربر كان يقدر بعدة ملايين ، والمسيحيين بنحو ٣٠٠ ألف واليهود بنحو ١٠٠ ألف (٣) .

(١) ديوز ٢/١١٢ - ١٢٠ ، وانظر ولاة طرابلس ص ٣٠ والمنهل العذب ١/٥٢ .
(٢) انظر القسم الأول من الكتاب .
(٣) A Historyof the Colonization of Africa ص ٦١ .

وبالإضافة إلى هذا القلة العددية ، كان هم هؤلاء العرب محصورا فى المحافظة على الأمن وتثبيت دعائم الدولة الإسلامية . وكانت لديهم أوامر مشددة ألا يستكينوا إلى الراحة ، وبأن يظلوا فى وضع استعداد دائم ، أو على حد تعبير عمرو بن العاص لجيوش العرب فى مصر بأن يظلوا «فى رباط إلى يوم القيامة» . وكان من تعليمات الخليفة عمر بن الخطاب العامة إلى أمراء الأجناد ألا يسمحوا لجنودهم بالزرع[1] . لأن ذلك يعنى الاستقرار والاستيطان ، وهو مالا يتلاءم مع مرحلة الفتح الأولى . وإذا كان من العرب من وفدوا لا بوصفهم جندا عاملين ، فلابد أنهم كانوا قلة ، وأنهم تفرقوا فى أنحاء البلاد فلم يظهر لهم أثر .

٧- ويجب أن نذكر اسم عمر بن عبدالعزيز هنا مرة أخرى لأنه كان أول من ألغى ضريبة الرؤوس على غير المسلمين إذا اعتنقوا الإسلام ، وعمم ذلك فى كل الأقطار الإسلامية المفتوحة .

ولاشك أن هذه السياسة قد أغرت غير المسلمين بالدخول فى الإسلام ، وبخاصة من غير ملاك الأراضى الذين كان إسلامهم يعنى إعفاءهم من أى ضريبة خاصة . ولكن لانتوقع أن يظهر أثر هذا العامل أيضا فى هذه المرحلة .

٨- وأخيرا نذكر القارىء بالحقائق الآتية التى سبق أن ذكرناها فى فصل «انتشار الإسلام فى المنطقة» وهى :

(أ) قول صاحب المونس : وعلى رأس المائة الأولى دانت إفريقية للعرب من برقة إلى السوس ، ولم تقم بعدها للنصارى والبربر قائمة[2] .

---

(١) انظر القسم الأول من الكتاب .

(٢) لم يمنع ذلك وقوع كثير من الثورات والانقلابات المضادة بعد المائة الأولى ، مثل واقعة القرن قرب القيروان عام ١٢٤ . وفى أيام الحكم العباسى لطرابلس (١٣٤ - ١٨٤) ثار عبدالجبار ابن قيس =

(ب) ما عرف به موسى بن نصير من اهتمام بتعليم البربر القرآن وعلوم الدين .

(جـ) إرسال الفقهاء العشرة عام ١٠٠ هـ إلى بلاد المغرب .

وتنتهي هذه الفترة بتثبيت دعائم الإسلام ، ولكن بدون أن يتم تثبيت دعائم اللغة العربية ، وذلك نظرا لتضارب العوامل الفعالة فى هذا القرن ، ولنشأة بعضها قرب نهايته مما لم يسمح بفاعليته أو ظهور أثره ، ولذا اعتبرناه قرن ازدواج لغوى تعايشت فيه اللغتان جنبا إلى جنب دون أن تقوى إحداهما على قهر الأخرى أو زحزحتها من مكانها . ولا نظن أن اللغة العربية – وإن استطاعت أن تثبت وجودها فى مجال الدواوين والمكاتبات الرسمية – قد استطاعت أن تثبت وجودها فى مجالى اللغة الأدبية أو لغة الحياة وهما المحك الأساسى لهذا الصراع . ولا أدل على عجز اللغة العربية عن الانتصار – حتى فى المجال الرسمى – خلال هذه الفترة مما فعله حسان بن النعمان حين أراد سك النقود العربية لبلاد المغرب إذ اتخذ نفس الدينار القرطاجنى مع حذف الصليب ، ووضع صورتى عبدالملك بن مروان ، والوليد ابنه بدلا من قيصر البيزنطيين وولى عهده . وأبقى كتابته **باللغة اللاتينية** ، وبعد حين زاد حسان فى ديناره **كتابة لاتينية** ترجمتها فى أحد الوجهين : باسم الله الرحمن الإله الأوحد ، وفى وجهها الآخر : وحده لاشريك ولا مثيل له . وبعدها **باللاتينية** : ضرب بإفريقية فى العشرة الثالثة يساوى ٨٥ هجرية [١] .

= على حميد بن عبدالله العكى وتمكن من الاستيلاء على طرابلس ثم ثار البربر برياسة عبدالأعلى بن عبدالرحمن بن السمح واحتلوا طرابلس سنة ١٤٠ وتوسعوا حتى احتلوا القيروان كذلك . وفى سنة ١٥٣ ثار على الجنيد بن بشار الأسدى برابرة طرابلس الذين استولوا عليها ثم على القيروان عام ١٥٤ هـ (انظر : ولاة طرابلس ص ٣٨ و ٤٣ وما بعدها) .

(١) دبوز ١١٩/٢ .

المرحلة الثانية : مرحلة اختلال ميزان القوى فى صالح اللغة العربية :

يمكن – فى رأينا – اعتبار هذه المرحلة ممتدة لتغطى القرون الثلاثة التالية من الهجرة وهى القرون من الثانى إلى الرابع الهجرى .

ولم تجد فى هذه الفترة عوامل جديدة فى صالح اللغة العربية ، وإنما كانت فرصة للعوامل القديمة لتؤتى ثمارها . بل يمكن القول بأن ما جد من عوامل فى هذه الفترة كان من النوع المضاد الذى عاق اللغة العربية عن اتخاذها لغة الحياة فى كافة أنحاء البلاد . فبالنسبة للعوامل المساعدة نجد ما يأتى :

١– ازدياد حركة التعريب للدولة ، وقصر الوظائف العامة على العرب أو المسلمين . وقد أدى هذا بالسكان إلى أن يسرعوا فى تعلم اللغة العربية لتفتح أمامهم فرص العمل ، أو ليحتفظوا بما فى أيديهم من وظائف . ولم تؤد حركة التعريب إلى تذمر أو احتجاج من البربر كما كان الحال فى مصر إذ كان التعريب انتقالا من لغة غير بربرية إلى لغة أخرى غير بربرية . وليس هذا فحسب ، بل إن بعض البربر لم يقتنع بالإسلام ويتعلمه اللغة العربية فقط ، بل أراد أن يذهب خطوة أبعد فى التعريب ، فادعى لنفس نسبا فى إحدى القبائل العربية كما سبق أن بينا .

٢– ازدياد عدد الداخلين فى الإسلام فرادى وجماعات لأسباب متعددة منها :–

(أ) قوة الحركة الدينية فى البلاد ونشاط الدراسات الإسلامية بمختلف فروعها والتوسع فى بناء المدارس والمساجد .

(ب) تفهم الكثيرين روح الإسلام ، ووقوفهم على بساطته وديمقراطيته ومساواته بين البشر جميعا ، فى حين كانوا يحسون بالقلق والألم فى

ظل المسيحية . وقد كتب بتلر فى هذا الموضوع فقال : «وأما الحقيقة المرة ، فهى أن كثيرين من أهل الرأى والحصافة قد كرهوا المسيحية لما كان منها من عصيان لصاحبها ، إذ عصت ما أمر به المسيح من حب ورجاء فى الله ... ومنذ بدا ذلك لهؤلاء العقلاء لجأوا إلى الإسلام فاعتصموا بأمنه واستظلوا بوداعته وطمأنينته وبساطته»[١] .

(جـ) الجهود الجبارة التى بذلتها كل من الدولتين الرستمية والأغلبية –[٢] كل فى مناطق نفوذه – فى خدمة اللغة والحضارة الإسلامية بالمغرب ، بالإضافة إلى جهود بعض الولاة الخلصين مثل يزيد بن حاتم الذى دامت ولايته من ١٥٥ إلى ١٧١ ، وقد عرف عنه تنشيطه للتعليم ، واحترامه للعلماء . وكان أغلب عهده عهد استقرار ، فأقبلت إفريقية والمغرب الأدنى على العلم فكثرت المدارس الابتدائية فى كل القرى والمدن، وصارت المساجد مراكز للتخصص فى الشريعة الإسلامية والعلوم العربية وغيرها . وكان يرابط فيها عشرات من العلماء يلقون دروسهم فيها[٣] .

---

(١) شكرى فيصل : المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول ص ١٥٣ .

(٢) يقول جوستاف لوبون عن دولة الأغالبة : «وكان هم الأغالبة مزج العرب بالبربر فتمتعت إفريقية فى عهدهم بطمأنينة عظيمة» (ص ٢٥٥ ، ٢٥٦) ويعتبر حسن سليمان محمود أن من أهم أعمال الأغالبة «مصاهرة العرب للبربر واختلاط دم هذين الشعبين» (ليبيا بين الماضى والحاضر ص ١٣٥) .

(٣) انظر دبوز ٢/٩٠ ، ٩١ ، ١٣١ ، ٣٦٩ وما بعدها .

٣- ازدياد عدد العرب في البلاد شيئا فشيئا لكن دون أن يستطيعوا – كما يقول إحسان عباس – أن يصهروا العناصر الأصلية [١] . ونحن وإن كنا لانملك أسماء محددة للقبائل التي هاجرت واستوطنت المنطقة في هذه الفترة بالذات، فإننا يمكننا أن نتصور تتابع الهجرات العربية ، نظرا لارتباطها بالحكام ، وحرص كل حاكم – إذا كان عربيا – على أن يكثر من بني جلدته ، وأفراد قبيلته ، على عادة الولاة في ذلك الوقت [٢] . هذا بالإضافة إلى السياسة التي سار عليها الحكام بعد تتابع ثورات البربر ، وتسببيهم للقلاقل والاضطرابات، والتي تتلخص في الإكثار من العرب المستوطنين ما أمكن حتى يكونوا عامل توازن في المنطقة . ويمثل هذه السياسة قول هشام بن عبدالملك بعد تعدد ثورات البربر في عهده ، وتدويخهم جيوشه : «والله لأغضبن للعرب غضبة مضرية ، ولأبعثن إليهم جيشا أوله عندهم وآخره عندي ، ثم لاتركت حصن بربري إلا جعلت إلى جانبه **خيمة قيسي أو يمني**» [٣] .

٤- ازدهار مدينة القيروان بعد إقامتها على أسس إسلامية بحتة . وقد كان النظام الإداري معرّبا بها منذ اللحظة الأولى لإنشائها، ولم يعرف فترة الانتقال التي

---

(١) ، (٢) يعطينا الأستاذ إحسان عباس معلومات تقريبية عن بعض هذه القبائل فيقول : جاء الفتح والهجرات التالية بمستوطنين من العرب وغيرهم ، فغلب على مدينة برقة وأرباضها سكنى الجنود ، كما استوطنتها أعداد كبيرة من قبيلة قرة العربية . ولعل ذلك قد تم في أوائل القرن الرابع . وسكن جماعة من القبائل اليمنية المهاجرة من الأزد ولخم وجذام والصدف وغيرهم جبل برقة الشرقي . أما جبل برقة الغربي فاستوطنته جماعة من غسان والأزد وتجيب ... ونزلت قبائل عربية أخرى من بني مدجل وبلي وجهينة في جهات الرمادة . ونزل ودان قسمان من العرب سهميون وحضرميون . ثم يعلق على ذلك بقوله : «لانعرف نسبة عددية لهؤلاء العرب ، ولكن يبدو أنهم حتى منتصف القرن الرابع الهجري لم يستطيعوا أن يصهروا العناصر الأصلية» (تاريخ ليبيا ص ٩٢ ، ٩٣) . وانظر سكان ليبيا عند اليعقوبي ص ٢٢٩ .

(٣) دبوز ٢/٢٦٤ نقلا عن نهاية الأرب للنويري .

عرفتها العواصم الأخرى . ولو اتخذ العرب الفاتحون مدينة قرطاجنة مثلا عاصمة لهم لمرت إفريقية بنفس التجربة التى مرت بها الإسكندرية أو قرطبة فى هذا الميدان [١] .

ولكن كانت هناك عوامل مضادة برزت خلال هذه الفترة وأهمها :

١- قوة الشعور القومى عند البربر وإثارة العصبيات فيهم كرد فعل لما لحقهم من ظلم وسوء معاملة على أيدى بعض الحكام الجائرين . ونضرب لهذا على سبيل المثال اسم الوالى يزيد بن دينار (١٠٢ هـ) الذى فرض الجزية حتى على من أسلم من البربر ، وادعى أن بلادهم فتحت عنوة لا صلحا [٢] . وكذلك عمر بن عبيدالله المرادى عام ابن الحبحاب (١٢٢ هـ) على شمال المغرب الأقصى الذى أراد أن يخمس أموال البربر كما يفعل بأموال المشركين زاعما أن البربر وأموالهم غنيمة للأمويين [٣] . ولهذا حاول البربر منذ العشرينيات من القرن الثانى الهجرى أن يقيموا لهم دولة فى الشمال الإفريقى ، ولم تكلل محاولاتهم بالنجاح إلى بعد إعلان الدولة الرستمية التى استمرت فى المغرب الأوسط من عام ١٤٤ - ٢٩٦ هـ ، وكان نفوذها يمتد فيشمل ما عدا الجزء الساحلى من طرابلس [٤] . وعلى الرغم من أن اللغة الرسمية لهذه الدولة كانت

---

(١) القيروان ص ١٤١ .

(٢) دبوز ٢/٢٠١ .

(٣) المرجع ٢/ ٢٣٥ .

(٤) امتد نفوذ الدولة الرستمية حتى شمل طرابلس كلها من خليج سرت إلى قابس غربا (ماعدا مدينة طرابلس والبحر فقد خرجا عنها إلى الدولة الأغلبية) ومن البحر إلى الصحراء الكبرى . (انظر دبوز ٣/٥١٥ ، ٥١٦) . وهناك خريطة للدولة تجدها فى مقابل ص ٦٥٦ من المرجع السابق . وقد سبق =

هى اللغة العربية فقد كانت تحتضن اللغة البربرية وتحاول ترقيتها بشتى الوسائل . وقد كان للرستميين مترجمون ينقلون الكتب من العربية إلى البربرية لتأخذ النواحى التى لاتحسن العربية كالبربر المنقطعين فى رءوس الجبال حظها من العلم[1] . كذلك يروى عن أبى سهل الفارسى[2] مترجم الدولة الرستمية أنه دون اثنى عشر كتابا وعظا وتذكيرا وتخويفا باللغة البربرية . ويبدو أنه لم يكتب شيئا من ذلك باللغة العربية ، إذ يقول الدرجينى عنه : «وجميع ما حفظ من ذلك فإنما هو بلسان البربر» . ومما ألف بالبربرية كذلك «عقيدة نفوسة» . ويقول أبو إسحاق اطفيش : «وقد عنى الأباضية بالتأليف بالبربرية منذ ظهروا بين البربر فى أوائل القرن الثانى الهجرى ، وكانت هذه من أسباب تمكين البربر فى الإسلام»[3] .

ويبدو أن هذه الحركة نحو التمسك بالبربرية قومية ولغة قد أزعجت الكثيرين حتى من بين البربر أنفسهم . فيروى عن أبى عمران موسى بن زكرياء أحد العلماء السبعة الذين ألفوا ديوان الأشياخ أنه كان يقول : «إن تعلم حرف من العربية كتعلم ثمانين مسألة من الفروع»[4] .

= قيام الدولة الرستمية معارك طاحنة مثل تلك التى دارت بين حنظلة بن صفوان الكلبى وعكاشة بن أيوب (من برابرة هوارة) وكان معه جيش من البربر يقدر بثلاثمائة ألف . وكانت هذه المعركة من أكبر المعارك التى وقعت فى إفريقية بين العرب والبربر ، وكانت سنة ١٢٤ هـ واشتهرت بواقعة القرن، وهو مكان خارج القيروان (ولاة طرابلس ص ٣٨) .

(١) دبوز ٣/٤٠٥ .

(٢) قال الشماخى : غلبت عليه العزوة الفارسية وليس بفارسى وإنما هو نفوسى (ص ٢٨٩) .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية – مادة بربر هامش رقم ١ ص ٥١٨ ، ٥١٩ .

(٤) دبوز ٣/٣٩٧ .

٢- وجود مناطق جبلية ، وقرى نائية كان يصعب الوصول إليها ، وتشق إقامة العرب فيها ، مما أحيا العصبية البربرية وأبقى اللغة البربرية فيها [١] . وكان الذين لايستطيعون الكتابة بالعربية فى هذه المناطق يرفعون شكاويهم إلى الإمام مكتوبة بالبربرية [٢] .

وبانتهاء هذه القرون الثلاثة نتصور أن يكون الوضع اللغوى للمنطقة قد أصبح كما يلي :

١- جميع الرسائل والمكاتبات الرسمية والدواوين والسجلات تكتب باللغة العربية فيما عدا الشكاوى أو الوثائق التى يحررها من لايعرفون العربية من سكان المناطق النائية .

٢- اتخاذ اللغة العربية لغة تأليف وثقافة فى جميع أنحاء البلاد ، وعلى أيدى مؤلفين من البربر ، مثل «نوازل نفوسة» للإمام عبدالوهاب ، وتفسير الشيخ هود بن محكم الهوارى بعد الدولة الرستمية بزمن قليل ، وكلاهما باللغة العربية الفصيحة [٣] . ونستطيع أن نزعم أنه بانتهاء هذه الفترة لم يكن يوجد فى البلاد مثقف واحد لايعرف اللغة العربية . وإذا كان بعضهم قد كتب باللغة البربرية فليس لجهله بالعربية ، ولكن إما ليظهر مقدرته على الكتابة باللغة البربرية ، وإما لأنه يكتب وفى ذهنه خدمة العوام من الناس ، أو سكان

---

(١) كان جبل نفوسة مثلا مستقلا عن طرابلس وكان كثيرا ما يثور حاكم جبل نفوسة على حاكم طرابلس لإلحاق طرابلس بجبل نفوسة كما حدث فى عهد سفيان بن أبى المهاجر والى طرابلس من جهة الأغالبة الذى ثار عليه حاكم جبل نفوسة أبو منصور عام ١٩٦ وغزا مدينة طرابلس وخربها وهدم أسوارها (ولاة طرابلس ص ٢٦) .

(٢) ديوز ٤١٧/٣ .

(٣) المرجع السابق ص ٤١٠ .

المناطق النائية الذين لم تتيسر لهم سبل التعلم للغة العربية . ويقول الأستاذ شيت خطاب : «كان إقبال البربر على اللغة العربية شديدا ، يدل على ذلك ماترويه كتب الطبقات من رحيل الكثيرين منهم في القرن الثاني الهجرى إلى المشرق للاستزادة من العلم والتثبت من اللغة . وقد ظهرت خلال هذا القرن فئات تكتب بالعربية وتؤلف بها . وبدراسة ما ورد من تراجم في كتب طبقات فقهاء المغرب نجد الرواية تتسلسل إلى رعيل أول من أهل البلاد الأصليين الذى برعوا فى ثقافة العرب وفهموها فأحسنوا الفهم»[1] .

٣- اتخاذ اللغة العربية لغة تخاطب فى جميع أنحاء المغرب ما عدا سكان الجبال أو المناطق النائية ، فقد ظل بعضهم يتكلمون اللغة البربرية وحدها وصار بعض آخر مزدوجي اللغة . ولعل في تمييز اليعقوبى لأهل نفوسة بأنهم عجم اللسان ما يشير إلى أن سائر مناطق المغرب حتى أواخر القرن الثالث الهجرى كانت قد تعربت تعربا كاملا أو شبه كامل من حيث اللغة[2] .

المرحلة الثالثة : مرحلة الاستقرار :

تشمل هذه المرحلة القرنين الخامس والسادس . وأهم ما يميزها الهجرتان العربيتان اللتان تمت إحداهما فى القرن الخامس والأخرى فى القرن السادس . وبتمامهما تم تعريب البلاد نهائيا ، وظهرت الغلبة للعنصر العربى ، وحدثت المصاهرة الكاملة والامتزاج التام بين البربر والعرب فى معظم أنحاء البلاد ، واختفت اللغة البربرية إلا من بعض الأماكن .

---

(١) قادة فتح المغرب ١٧٢/٢ .

(٢) إحسان عباس : تاريخ ليبيا ص ٩٤ .

وميزة هاتين الهجرتين عما سبقهما من هجرات أنهما تمتا بطريق القصد والعمد ، وهدفتا إلى الاستقرار والاستيطان ، وشملتا أعدادا كبيرة من العرب لم يسبق لمثلها أن دخلت البلاد .

أما الهجرة الأولى فقد تمت قبيل منتصف القرن الخامس الهجرى ، وكان بطلاها قبيلتى سليم وهلال ، وانضمت إليهما أشتات من قبائل أخرى ، وقصة هذه الهجرة وما لابسها وسبقها وتلاها من أحداث قصة طويلة لايتسع المجال للإحاطة بها ، كما أن ذلك ليس من هدفنا هنا . ولكن فى اختصار شديد نقول إن المعز بن باديس الصنهاجي [1] أعلن عداءه الصريح للفاطميين واضطهد معتنقى مذهبهم وأعمل فيهم القتل والتشريد ، ثم ختم تصرفاته هذه عام ٤٤٣ بقطع الخطبة لهم ، وبالدعاء للقائم بأمر الله العباسى ، وحمل الناس فى المغرب على مذهب الإمام مالك بن أنس . وفى نفس السنة التى قطع فيها المعز الخطبة للفاطميين بعث إليه أمير برقة جبارة بن مختار العربى بطاعته وبيعته ، وأخبره أنه هو وأهل برقة قد نكثوا كذلك عهود بنى عبيد ، وأحرقوا بنودهم وراياتهم ، والمنابر التى كان يدعى عليها لهم ، وتبرؤا منهم ، وسبوهم ، ولعنوهم على منابرهم ، ودعوا للقائم بأمر الله العباسى [2] . وحركت هذه الأحداث نفس المستنصر للانتقام

---

(١) من نسل الأمير بلكين بن زيرى أول حاكم صنهاجي للمغرب من طرف الدولة العبيدية . وقد اختاره المعز لدين الله الفاطمى عام ٣٦٢ هـ . واستمر انضواء هذه الأسرة تحت لواء الفاطميين حتى جاء المعز بن باديس (٤٠٦ – ٤٥٣) . انظر «قبائل العرب فى ليبيا» ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) تفصيلات هذه الحوادث فى أماكن متفرقة من : «قبائل العرب فى ليبيا» و «رحلة التجانى» و «ابن خلدون» و «جوستاف لوبون» وغيرها من كتب الحضارة والتاريخ .

فأشار عليه أحد وزرائه [١] . باصطناع بني سليم وبني هلال ، وتسريحهم إلى المغرب ، وتوليتهم أعمال إفريقية واستعدائهم على صنهاجة لمحاربتها . وكانت هذه القبائل تقطن الصعيد والفيوم والبحيرة ، وقد أقضت مضاجع المستنصر لكثرة ما كانت تسببه من قلاقل واضطرابات . واستجاب المستنصر للفكرة التي ستصيب هدفين بحجر واحد ، وأرسل وزيره للتفاوض معهم . ونترك ابن خلدون يكمل القصة بقوله : بعث المستنصر وزيره على هؤلاء الأحياء ... وأرضخ لأمرائهم في العطاء ، ووصل عامتهم بعيرا ودينارا لكل واحد منهم ، وأباح لهم إجازة النيل ، وقال لهم : قد أعطيتكم المغرب وملك المعز بن بلكين الصنهاجي العبد الآبق . وكتب اليازوري (الوزير) إلى المغرب : «أما بعد . فقد أنفذنا إليكم خيولا فحولا وأرسلنا عليها رجالا كهولا ليقضي الله أمرا كان مفعولا» . فطمعت العرب إذ ذاك وأجازوا النيل إلى برقة ، وافتتحوا أمصارها ، واستباحوها ، وكتبوا لإخوانهم شرقي النيل يرغبونهم في البلاد ، فأجازوا إليهم بعد أن أعطوا لكل رأس دينارين فأخذ منهم (يعني المستنصر) أضعاف ما أخذوه [٢] . وتقارعوا على البلاد فحصل لسليم الشرق ولهلال الغرب .. وسارت بطون هلال إلى إفريقية كالجراد المنتشر حتى وصلوا إفريقية سنة ٤٤٣ [٣] . ودارت معارك طاحنة حول القيروان وفي داخل

---

(١) يقول التجاني : الجرجرائي الأقطع هو الذي أمكن العرب من الدخول إلى هذه البلاد ... ومن الناس من نسب هذه الإجازة لغيره لأن موته سبق جواز العرب بأعوام . وذكر هؤلاء أن المجيز لهم هو اليازوري الحسن بن علي ، وقد تولى الوزارة بعد الجرجرائي . ولا يبعد أن يكون هذا هو الصحيح (ص ١٦ ، ٢١ ، ٢٢) .

(٢) يعني أن المستنصر أعطى إخوانهم السابقين كل واحد دينارا ، وفي هذه المرة أخذ من كل واحد دينارين .

(٣) مقتبس في : ليبيا في كتب التاريخ والسير ص ١١٩ .

القيروان – عاصمة المعز بن باديس – وانتهبت هذه المدينة ، وصارت أثرا بعد عين، وتفرق أهلها فى الآفاق ، وانتقل المعز مع أهله إلى المهدية ، وعاش بها كئيبا بقية حياته حتى مات سنة ٤٥٣ هـ[١] .

وهناك تفصيلات أخرى تهمنا فى هذا المقام لأنها مرتبطة بحركة التعريب وتوطين القبائل العربية وهى :

١- يقدر بعض المؤرخين عدد المهجرين فى هذه الموجة بما يتراوح بين ٢٠٠ ألف و ٤٠٠ ألف[٢] ، وبعضهم يرتفع بالرقم حتى المليون . ويوفق جوستاف لوبون بين هذه الآراء المتعارضة بقوله : «والذى أراه أن الغارة الأولى تبعتها غارات أخرى»[٣] .

٢- بعد هجرة بنى سليم وهلال واستقرارهم فى المغرب تبعتهم هجرات أخرى جاءت بطوائف كثيرة من الناس .

٣- لم يؤسس العرب ملكا ولا دولة ، وآثروا الضواحى والأرياض على الأمصار[٤].

٤- استيطان هذه القبائل فى إقليم برقة كان سهلا ، لأن المعز لدين الله كان قد سبق وأباد «زناتة» . ولذلك حينما جاء العرب إليها ، وجدوا بلادا كثيرة المرعى خالية من الأهل[٥] .

---

(١) قبائل العرب فى ليبيا ص ٥٦و ص ٧٨ – ٨٦ .

(٢) ملامح المغرب العربى ص ٦٣ و A History of the Colonization of Africa. ص ٦١.

(٣) حضارة العرب ص ٢٥٧ .

(٤) لهجة شمال المغرب ص ٤٤ ، ٤٥ .

(٥) التذكار ص ٢٩ .

٥- كذلك من المرجح أن يكون بعض من بنى هلال قد جاز النهر ودخل ليبيا مع أحد الجيوش التأديبية التى أرسلت قبل الغزو الهلالى لأن المراجع التاريخية تتحدث عن وجود هلالى فى وقت مبكر (١) .

٦- بعد حلول القبائل العربية هاجرت بنو قرة ثم بطون من كعب إلى مناطق أخرى ، وغلبت على أنحاء برقة بنو سليم (٢) . ولعل هؤلاء المهاجرين هم الذين قال عنهم ابن عذارى : فى عام ٤٦٨ وصلت إلى إفريقية مجموعة أخرى من عرب برقة ونزلت حول القيروان (٣) .

٧- اقتسم بنو هلال بلاد المغرب فاستولت زغبة على طرابلس ، واستولت رياح على باجة ، ثم اقتسموها ثانية ، فكان لرياح وزغبة والمعقل وجشم وقرة والأثبج والخلط وسفيان من تونس إلى المغرب ، وتخلت زغبة عن طرابلس ... وكان بنو قرة بالجبل الأخضر قبل مجىء هلال وسليم فتركوه مشاركين أبناء عمومتهم فى الاندفاع والغزو .

٨- أما بنو سليم فكان انتشارهم فى المغرب على النحو التالى :

(أ) أقامت هيب وأحلافها رواحة وناصرة وغمرة ببرقة .

(ب) انتشرت قبائل دباب وعوف وزغب فى جهات طرابلس ، واستوطنت فيما بين قابس ونفوسة وما بينهما من الضواحى والجبال .

(جـ) هناك جماعة من دباب توغلت فى القفر كآل سليمان الذين اتجهوا نحو فزان وودان

---

(١) عباس همدانى فى : Some Aspects of the History of Libya ص ٢٣٩ .

(٢) تاريخ ليبيا لإحسان عباس ص ١٥٧ .

(٣) البيان المغرب ، مقتبس فى إحسان عباس : ليبيا فى كتب التاريخ والسير ص ١٠٢ .

(د) نزل آل سالم مصراته [١] .

أما النتائج التى ترتبت على هذه الهجرة فيختلف المؤرخون – بعد اتفاقهم على دورها الذى لاينكر فى تعريب البلاد – يختلف المؤرخون فى تقديرها والحكم عليها . فيعتبرها بعضهم كارثة من الناحية الحضارية ، ويعتبرها بعضهم نافذة فتحت أعين البلاد على الحضارة الأجنبية . ويعتبرها بعضهم سببا فى تدمير البلاد ، والإتيان على ما فيها من أخضر ويابس ، ويعتبر بعض آخر دمار البلاد سابقا على هجرة بنى هلال وسليم ، ويقلل من تقدير الدمار الذى لحق البلاد على أيديهم ، ويلتمس العذر لما قد يكونون قد سببوه من خراب .

فنجد – على سبيل المثال – الأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب يعزو ضياع كثير من الكتب والمؤلفات ومظاهر الحضارة إلى «الكارثة العظيمة المؤلمة ، وهى زحفة بنى هلال وبنى سليم فى آخر عهد المعز بن باديس سنة ٤٤٩ هـ»[٢] ونجد الأستاذ إحسان عباس يرتب على هجرة هذه القبائل «نتائج خطيرة فى منطقة ليبيا . فهم المسئولون عن خراب العمران وعن تعطل الزراعة . وكان كثير من هؤلاء الأعراب خطرا على الحجاج والتجار والرحالين حتى أضحت البلاد كما قال العبدرى لايسلكها إلى المخاطر . وبذلك حرمت ليبيا من حركة علمية كانت تعتمد على مرور العلماء بليبيا»[٣] . ويضع جوستاف لوبون الأمر فى صورة مخففة

---

(١) قبائل العرب فى ليبيا ص ٦٦ – ٦٨ .

(٢) ورقات ٣٤٩/١ . وهناك رأى يقول إن الغزو الهلالى قد توقف فى الإقليم الليبى الحالى وتعثرت خطواته إلى عام ٤٥٥ (أى إلى ما بعد وفاة المعز بن باديس) . ويعتمد هذا الرأى على وثيقة هامة وردت فى كتاب «السجلات المستنصرية» نشر الدكتور ماجد بالقاهرة سنة ١٩٥٣ . (الرباطات الساحلية لشعيرة ص ٢٣٩) .

(٣) تاريخ ليبيا ص ١٥١ .

فيقول : لم تؤد هذه الغارات إلى نتائج عمرانية ، بل على العكس حافظ أعراب جزيرة العرب على جلفهم الذى هو نقيض كل ثقافة جدية ، فأخذت تلك الحضارة التى كادت تلمع تذوى بسرعة»[١] . ولكن على العكس من ذلك تماما يظن Grievus «أن آثار الغزوة الهلالية كان قدوم العرب وقد حملوا كثيرا من المزايا الثقافية إلى المغرب ، إذ أحضروا معهم العلم والنظرة العريضة التى اكتسبوها من الثقافة الهيلينية التى عرفوها ... وهى التى صارت بعد ذلك برعما للثقافة الإسلامية الغنية فى الأندلس»[٢] .

والحق الذى لايصح إنكاره أن هناك شيئا من الدمار قد لحق البلاد على أيدى بنى هلال وسليم ، ولكن يجب ألا ننسى الحقائق الآتية التى تعزو كثيرا من الدمار إلى غيرهم مثل :

١- الخراب المريع الذى لحق البلاد على أيدى الكاهنة وأعوانها فى القرن الأول من الهجرة ، وقد سبق الحديث عنهم .

٢- ما هو ثابت من أن منطقة برقة كانت - حين وفد هؤلاء العرب إليها - شبه مهجورة وخالية من الأهلين ، لأن أصحابها من زناتة حاربوا المعز لدين الله الفاطمى ففتك بهم وأوشك أن يبيدهم ويفنيهم عن آخرهم[٣] .

٣- ما هو ثابت تاريخيا من أن المعز بن باديس نفسه قد ساهم فى خراب البلاد ، إذ أصدر أوامره «بانتهاب المزروعات والثمار المحيطة بالقيروان والمنصورية ليحرم الهلاليين منها . وسر الناس بذلك حاسبين أنها ستؤول إليها ، ولكن

---

(١) حضارة العرب ص ٢٥٧ .

(٢) الممالك الإسلامية فى غرب إفريقية ص ٨٢ .

(٣) قبائل العرب فى ليبيا ص ٦٥ .

المعز كدسها فسدت وأكلتها البهائم»(١) . وفعل المعز نحو ذلك فى مدينة «صبرة» إذ اقتلع رجال صنهاجة وعبيد المعز خشب الحوانيت وسقائفها فخربت عمارة هذه المدينة(٢) .

٤- تعاقب الفتن والمحن والحروب والثورات على المنطقة . وفى ذلك يقول الأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب : «الحقيقة التى لايطرقها شك ... أن العرب لما قدموا فاتحين لم يجدوا فى البلاد سوى خرائب متهدمة تعلوها مسحة من زخرف قديم أبلاه الدهر وغير نضارته الزمان لتعاقب الفتن وتوالى المحن . ولم يصيبوا غير مدائن متداعية البنيان ، نزرة السكان ، ضعيفة الإيراد ... ولهذا السبب لم يفكر العرب فى نصب مركزهم الذى عزموا على إيجاده فى البلاد المفتوحة على أنقاض إحدى تلك المدائن البالية ... ولو أن فى البلاد عاصمة قديمة تناسب الفاتحين لما ارتادوا سواها ، كما فعلوا فى الشام وطليطلة ثم قرطبة بالأندلس»(٣) .

٥- وإذا كان عرب بنى هلال وسليم قد تسببوا فى خراب بعض الجهات ، فقد كان ذلك نتيجة المقاومة التى لاقوها من أتباع المعز بن باديس ، والاقتتال العنيف الذى دار بين الطرفين ، وحاول كل طرف فيه أن يستخدم كل الأسلحة الإنسانية وغير الإنسانية فى سبيل القضاء على خصمه . فمسئولية الدمار تعود إلى كلا الطرفين على السواء ، وترجع أولا وأخيرا إلى الحرب التى دارت رحاها لعدة سنوات .

---

(١) المرجع ص ٨١ .

(٢) المرجع والصفحة .

(٣) ورقات ٤١/١ ، ٤٢ .

ومما يدل على انتفاء الصفة التخريبية عن هؤلاء الأعراب أننا نجدهم بعد وقف القتال وتوطنهم فى البلاد – نجدهم قوما مستقرين ميالين للدعة والسكينة ، مشتغلين بالتعمير والزراعة ، محبين للعلم والحضارة . فهذا ابن خلدون يقول عن قبيلة العزة التى نزلت بالجهة الشرقية من ليبيا : «وركاب الحج من المغرب يحمدون مسالمتهم فى ممرهم ، وحسن نيتهم فى التجافى عن حاج بيت الله ، وإرفادهم بجلب الأقوات لسربهم وحسن الظن بهم»[١] . وهذا أبو عبيد البكرى (المتوفى سنة ٤٨٧ هـ) يتحدث عن ليبيا فيصف مدينة برقة بأنها دائمة الرخاء كثيرة الخير ، وأكثر ذبائح أهل مصر منها . وهى كثيرة الثمار والفاكهة» . ويصف أجدابية بأنها «مدينة كبيرة فى الصحراء ، ذات بساتين لطاف وأسواق حافلة مقصودة» ، ومدينة سرت بأنها «مدينة كبيرة على سيف البحر ... لها نخل وبساتين وآبار عذبة ولحمانها عذبة طيبة» . ويصف طرابلس بأنها «ذات أسواق حافلة جامعة ، وحمامات كثيرة فاضلة ، كثيرة الثمار والخيرات»[٢] . فهى صورة تختلف تماما عن الصورة القاتمة السوداء التى ألصقت ببنى هلال وسليم . وليس هذا فحسب ، فلدينا شهادة شاهد عيان زار البلاد فى القرن الثامن الهجرى وهو التجانى ، وقد كتب فى رحلته مشاهداته وملاحظاته ، ومن بينها ما رآه من عمران وغرس وزراع ، وما شاهد من زوايا فيها كتب كثيرة محبسة ، وبها أماكن لضيافة الزوار وتقديم الطعام لهم[٣] .

ومهما يكن من شىء ، فهناك إجماع تام على أن استيطان هؤلاء الأعراب فى بلاد المغرب ، وانتشارهم فى الأرض ، ومخالطتهم للبربر ، وامتزاجهم

---

(١) قبائل العرب فى ليبيا ص ٩٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(١) التجانى ص ٢٦٣ ، وإحسان عباس : تاريخ ليبيا ص ١٥٣ ، وقبائل العرب فى ليبيا ص ٩٧ وما بعدها .

بالسكان ، وتزاوجهم معهم ، كل أولئك قد أدى إلى نجاح عملية التعريب ، وإلى اندماج العنصر البربرى فى العنصر العربى ، حتى أصبح من العسير فيما بعد تمييز البربرى من العربى ، فقد صار الجميع عربا باللسان ، فيما عدا قلة من البربر «نجحوا فى الاحتفاظ بنقاوة جنسهم لسكناهم المرتفعات»(١) ، وظلوا من أجل انحيازهم إلى الأقاليم الجبلية غير المطروقة متمسكين بلهجاتهم البربرية مكونين مناطق انعزال أو جزرا لغوية(٢) . ويقول جوستاف لوبون مصورا ما حدث بكل دقة «تمت تلك الهجرة ببطء ، وملأ العرب شمالى إفريقية بالتدريج ، فقد جاوز العرب طرابلس الغرب بعد أن مكثوا بها سنتين ، وزحفوا خطوة خطوة ، وولجوا الأودية جماعات على مهل ، واختلطوا بالسكان رويدا رويدا ، وزاد عددهم شيئا فشيئا ، وفرضوا – بفضل كثرتهم – على البربر عاداتهم ودينهم ولغتهم بعد بضعة أجيال . ولم يتركوا لأمراء البربر سوى سلطة وهمية . ولم يتفلت من نفوذهم إلا القبائل التى دحرت إلى الجبال ، وبعض البقاع الجنوبية»(٣) . ويرتب السير جونستون على وفود هذه القبائل نتائج خطيرة إذ يقول : «ولكن فى القرن الحادى عشر الميلادى وفد إلى الشمال الإفريقى هؤلاء العرب الغزاة الذى كانوا المصدر الأساسى للعرب الموجودين فى الشمال الإفريقى ، وبدونهم كان الإسلام سيضعف بمرور الزمن ، وكانت سلسلة من الدويلات البربرية ستنشأ مرة ثانية تحت حكم المسيحيين»(٤) . ويقول الدكتور عبدالقادر أحمد طليمات : إن

---

(١) الممالك الإسلامية فى غرب إفريقيا ص ٨١ .

(٢) تاريخ المغرب العربى ص ٥٨ ، ٥٩ . وتقول دائرة المعارف الإسلامية : «امتزج البربر بغيرهم .... ولكن الذين كانوا يعيشون فى الجبال الشاهقة والهضبات المرتفعة على حدود الصحراء لم يتأثروا بغيرهم من الأجناس إلا قليلا» (مادة بربر) .

(٣) حضارة العرب ص ٢٥٧ وانظر كذلك ص ٢٤٧ .

(٤) A History of the Colonization of Africa ص ٦١ .

«الاستعراب الكامل أخذت ملامحه فى ليبيا تظهر بشكل واضح فى عصر الإدريسى (النصف الأول من القرن السادس الهجرى»[(١)] . ويقول محمد رجب الزائدى : «ولو لم تدخل هلال وسليم المغرب لما تعرّبت قبائله ، ولما تمكن العنصر العربى أن يتفوق فيه على العنصر البربرى ويسود ، ويصبغ البلاد المغربية بطابعه ولونه ، ولكان هناك نقص كبير وخطير فى عروبة المغرب»[(٢)] . كما يقول : «وانتشار هذه القبائل العربية الصميمة فى طول بلاد المغرب وعرضها كان عاملا حاسما لتعريبها . ثبّت أركان الكيان العربى على سواحلها وفى دواخلها ، وأحاطه بسياج من الحصانة والمناعة ... وبه زال ما كان للبربر من تفوق عنصرى .. لقد ظل العرب الأول الفاتحون نُزرة بجانب أمم من شعوب البربر كثيرة العدد . فكان دخول قبائل هلال وسليم تجديدا للفتح وترسيخا لأصوله وتعميقا لجذوره ... وليس من الغلو اعتباره فتحا ثانيا لأنه حفظ بلاد المغرب من ردة محتملة ... وأكد بقاء المغرب فى الأسرة العربية إلى الأبد»[(٣)] .

ويقول فى مكان آخر : «لم يكن لعرب الفتح شأن يذكر فى عملية التعريب بل دفعتهم الحاجة إلى تعلم لغة البربر ... ويعود ذلك إلى قلتهم ولزومهم سكنى المدن الساحلية والمعسكرات ، وعدم توغلهم فى الجبال والصحارى والأطراف ... بيد أن قدوم بنى هلال وسليم قلب هذه الأوضاع رأسا على عقب ، وأحدث طفرة كبرى فى تطعيم شعوب المغرب بالعنصر العربى ولغة الضاد ، ونتج عن ذلك أن تعلم البربر العربية وتخاطبوا بها ، واستعملها كثير منهم فى أشغالهم اليومية ...

---

(١) سكان ليبيا عند اليعقوبى ص ٢٢٦ .

(٢) قبائل العرب ٦٢/١ .

(٣) السابق ٦٨/١ .

ولما سادت اللغة العربية سواحل المغرب وبواخله أصبحت لغة الكتابة والتخاطب ، وكان انتشارها باهرا إلى حد أن فرنسا وإيطاليا وهما الدولتان اللتان استعمرتا المغرب الكبير لم تظفرا بطائل فى محاولاتهما محو اللغة العربية»(١) .

أما الهجرة الثانية فقد تمت عام ٥٥٠ على يد حميد بن جارية ، حيث نقل إلى تاجورة مجموعة من عرب تميم سكنوا أرض «عبد رب» منذ الفتح الإسلامى ، وكان نقله هؤلاء العرب بقصد إيجاد توازن بين السكان ، لأن الساحل الطرابلسى كان كله مسكونا بالبربر قبل الفتح العربى ، وكانت قبيلة هوارة - وهى من أكبر قبائل البربر - تشغل ما بين تاورغة إلى صبراته(٢) .

وهناك مجموعات أو سلاسل أخرى من الهجرات تمت فى تلك الفترة وقبلها وبعدها . ولكن لعدم تمكننا من ترتيبها ترتيبا تاريخيا اضطررنا إلى تركها . ونكتفى بأن نحيل القارىء إلى معجم البلدان الليبية مواد : برقة - بزرة - ترهونة - الجميل - جندوبة - الحرشا - حومة أولاد نوير - الخلايفة - دحمان - ديلة - الرمادة - زارة - زاوية بو ماضى - زنزور - ساحل الأحامد - الشواشنة - العمروس - فزان - قماطة - الهون - ودان - ورشفانة ، ففيها إشارات كثيرة إلى القبائل العربية التى استوطنت ليبيا ونزلت فى هذه الأماكن .

ويلاحظ أن العرب لم يكتفوا بسكنى الأودية ، والمناطق الواطئة ، بل زاحموا البربر فى مدنهم ، واقتحموا عليهم جبالهم ومعاقلهم وأماكنهم النائية ، مما كان له أكبر الأثر فى تعلميهم اللغة العربية رغم احتفاظهم بلهجاتهم البربرية . والأمثلة على ذلك كثيرة نكتفى منها بالمثالين الآتيين :

---

(١) السابق ١/١١٢ - ١١٥ .

(٢) معجم البلدان الليبية للزاوى ص ٧٦ .

١- قبيلة الزنتان التى سكنت «تاغرمين» الواقعة فى جبل نفوسة . وهذه القبيلة من أكبر القبائل العربية فى طرابلس ، ولها منعة بين القبائل ، ووقعت لها حروب كثيرة بينها وبين البربر . ويرجع الزنتان فى أصولهم العربية إلى قبيلة الدواسر إحدى قبائل نجد الكبرى [١] .

٢- تقع واحات فزان جنوبى طرابلس بنحو ٩٧٠ ك م ، وهى من مواطن البربر القديمة . وقد استوطنها كثيرون من العرب أشهرهم بنو «رياح» و «الحطمان» و «المقارحة» و «ناصرة» [٢] .

ولهذا فنحن نزعم أنه بانتهاء هذه الفترة كانت اللغة العربية قد صارت لغة عامة مشتركة بين سكان المغرب ، وصارت لغة التخاطب فى جميع أنحاء البلاد إما وحدها فى معظم المناطق ، أو مع البربرية فى بعض المدن أو القرى التى تزخر بتجمعات بربرية مثل :

(أ) مدن وقرى نفوسة .

(ب) مدينة زوارة الكبرى ، وهى من مدن طرابلس ، وتقع بقرب الحدود الغربية . ويقول الشيخ الزاوى عنها : «جميع سكانها من البربر ، ويتكلمون اللغة البربرية ، وهم فخذ من قبيلة نفوسة . وهى من الأمكنة القليلة فى طرابلس التى احتفظ فيها البربر بقوميتهم ولغتهم ، ولم يتأثروا بكثرة العرب» [٣] .

---

(١) المرجع ص ٧٨ .

(٢) المرجع ص ٢٥٠ .

(٣) المرجع ص ٩٧ ، ٩٨ ، ١٧٥ . وإذا كان بقاء البربرية حتى الآن فى المناطق الجبلية والصحراوية النائية أمر معقولا ، فإن بقاءها فى مدينة زوارة الساحلية ، وفى واحة أوجلة من أعمال برقة فى حاجة إلى تفسير .

(جـ) واحة أوجلة التى يقول عنها الأستاذ الزاوى : «تقع فى الجنوب الغربى من أجدابية بنحو ٢٦٠ ك م . وهى من أعمال برقة ... وسكانها بربر . وما زالوا يتكلمون اللغة البربرية كما يتكلمون العربية ويكتبونها . وهى البلدة الوحيدة فى برقة التى يتكلم أهلها اللغة البربرية»(١) .

وتقسم دائرة المعارف الإسلامية سكانها إلى ثلاثة أقسام : بنو أوجل وهم من أصل بربرى ، ولغتهم بربرية ، والمجابرة وهم البربر الذى يتكلمون العربية ، والزُّوِيَّة وهم قبيلة عربية (٢) .

(د) قرى وادى ميزاب بالجزائر .

(هـ) بعض جهات جبال الأطلس جنوبى مراكش (٣) .

وقد وردت إشارات فى بعض المراجع القديمة عن مناطق يتكلم أهلها لغات غير البربرية . فإما أن هذه المناطق كانت مأهولة بسكان من أجناس مختلفة ، فكونوا جزرا لغوية ، وإما أن إشارات المراجع القديمة لم تكن دقيقة ، وأن لغة هؤلاء الناس ما هى إلا صورة أو أخرى من صور البربرية التى سبق أن قلنا إنها ذات لهجات متعددة متباينة فى بعض الأحيان ، لدرجة يصعب على أبناء إحدى لهجاتها أن يتفاهموا مع أبناء اللهجة الأخرى . ومن تلك الإشارات القديمة ماذكره البكرى عن أهل سرت أنهم يستعملون رطانة ليست بعربية ولا عجمية ولا بربرية

---

(١) المرجع ص ٤٢ ، وانظر علم اللغة لوافى ص ١٨٧ .

(٢) مادة أوجلة .

(٣) قبائل العرب ١/١٥٥ . ويقدر بعض الباحثين الأقلية البربرية التى ما تزال قائمة فى وقتنا هذا بنحو ٣٠٪ من سكان المملكة المغربية وأقل من ٢٠٪ من سكان الجزائر وأقل من ٢٪ من تونس (صور من وحدة الفكر العربى ص ١٧) .

ولا قبطية ولا يحسنها غيرهم[١] ، وما ذكره عن طرابلس من أن حولها أقباطا فى زى البربر كلامهم بالقبطية[٢] .

وأخيرا نشير إلى أن المناطق التى أصبح للعرب فيها أغلبية عددية – قد لفتت أنظار الرحالة والمؤرخين بفصاحة أهلها ، وجودة عربيتهم حتى فى مجالات الحياة العادية . ونشير على سبيل الخصوص إلى إقليم برقة الذى نزلت فيه من وقت مبكر مجموعات من قبائل عربية مختلفة . يقول اليعقوبى : الجبلان المحيطان ببرقة العاصمة أحدهما شرقى والآخر غربى وسكانهما من العرب وحدهم . فالجبل الشرقى سكانه من العرب من الأزد ولخم وجذام وصدف من أهل اليمن . وأما الجبل الغربى فسكانه من عرب غسان وجذام والأزد وتجيب وغيرهم من بطون العرب[٣] . ويقول المقريزى عن سليم : مساكنهم ببرقة مما يلى مصر . وكانت فى عالية نجد بالقرب من خيبر ، ثم تحولوا إلى مصر وإفريقية ، ولم يبق لهم عدد ولا بقية ببلادهم ، وصار لهم بإفريقية عدد عظيم[٤] . وممن أعجب بفصاحتهم فى القديم ، ورآها ظاهرة تستحق التسجيل العبدرى فى رحلته[٥] حيث يقول ما نصه : «وعرب برقة اليوم من أفصح عرب رأيناهم ، وعرب الحجاز أيضا فصحاء . ولكن عرب برقة لم يكثر ورود الناس عليهم ، فلم يختلط كلامهم بغيره . وهم الآن على عربيتهم ، لم يفسد من كلامهم إلا القليل ، ولا يخلون من الإعراب

(١) المسالك والممالك . مقتبس فى : ليبيا فى كتب الجغرافيا والرحلات ص ٣٠ .

(٢) المرجع ص ٣١ . وقد ورد النص فى معجم البلدان لياقوت ، ولكن مع وضع «أنباط» مكان أقباط ، ونبطية مكان قبطية (المرجع ص ٧٢) .

(٣) سكان ليبيا عند اليعقوبى ص ٢٢٩ . وقد توفى اليعقوبى عام ٢٨٤ هـ .

(٤) البيان والإعراب . مقتبس فى : ليبيا فى كتب التاريخ والسير ص ٢٤ .

(٥) بدأ العبدرى رحلته فى الخامس والعشرين من ذى القعدة عام ٦٨٨ هـ .

إلا ما لا قدر له بالإضافة إلى ما يعربون . وقد سألت بدويا لقيته يسقى إبله . عن ماء يقال له أبو شمال هل نمر عليه ... فقال لى : نعم تطئون أبا شمال وأثبت النون فى الفعل ونصب المفعول . وليس فى المغرب عربى ولا حضرى يفعل ذلك . ومررنا بأطفال منهم يلعبون فقال لنا واحد منهم : يا حجاج معكم شىء تبيعونه ، وأثبت النون وسكن الهاء للوقف . ورأيت أعرابيا منهم قد ألحت عليه امرأة تسأله عن طعام معه ، فقال لها : والله ماتذوقينه . فأتى بضمير المخاطبة على وجهه ، وأثبت النون ، وسكن الهاء . وسمعت شخصا ينشد فى الركب مكترى راحلة ويقول : من يكرى زاملة فسمعه بدوى فقال له : أعندك الزاملة ؟ فقال : نعم . قال: فلا تقل من يكرى وقل من يستكرى ... وأما نادر ألفاظ اللغة وما جرت عادة أهل الغريب بتفسيره فهم حتى الآن يتحاورون به على سجيتهم . فمن ذلك أن شخصا منهم وقف على بموضع نزولى من محلة الركب ، وكانت الترعة منه بعيدة فقال لى: يا سيدى «تدعنى أظهر» يعنى أخرج . وسألت شخصا منهم عن الطريق فقال: إذا ظهرتم من الغابة فخذوا صوب كذا وكذا ... يعنى إذا خرجتم منها . وهذا اللفظ قد أكثر فيه أهل الغريب فى تفسير قول عروة بن الزبير رضى الله عنه : ولقد حدثتنى عائشة رضى الله عنها زوج النبى صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى العصر والشمس فى حجرتها قبل أن تظهر ، وأتوا عليه بشواهد وأمثال . وسمعت صبيا منهم ينادى فى الركب : يا حجاج من يشترى الصفيف فلم يفهم عنه أكثر الناس ، فقلت له : آللحم معك ؟ فقال : نعم ، وأبرز لحم ظبى مقدد . وهذا اللفظ قد ذكره مالك فى الموطأ ... وسألت شخصا عن ماء ، هل هو معين ؟ فقال لى : هو ماء غدق . وهذا اللفظ فسره أبو عبيد فى غريبه ... وما يتكلمون به من الغريب أكثر من أن يحصى [١] .

---

(١) الرحلة المغربية للعبدرى تحقيق أحمد بن جدو ص ٨١ ، ٨٢ .

الفصل الثانى

التأثير المتبادل بين العربية والبربرية

إن وجود لغتين – أى لغتين – فى مكان واحد لايتصور معه أن تظل أى منهما بمنأى عن الأخرى وإنما لابد – مهما تكن نتيجة الصراع – من وقوع احتكاك بين اللغتين ، وتأثير من كلا الجانبين على الآخر . وإذا انتهى الصراع بموت إحدى اللغتين أو إقصائها من الميدان إلى منطقة محدودة ، فلا يعنى هذا أن اللغة المغلوبة قد ذهبت مع الرياح وطمست معالمها فى مناطق نفوذ اللغة الغالبة، فهى لابد وأن تترك قبل إخلائها الميدان معالم وملامح وتأثيرات ، قد تقل وقد تكثر بحسب كل حالة على حدة . وفى نفس الوقت ، فإن اللغة الغالبة لاتكتفى بإقصاء اللغة المغلوبة من طريقها ، وإنما لابد لها فى فترة الصراع من أن تترك آثارها ومعالمها على اللغة المغلوبة . ومعنى هذا أن الغالب والمغلوب فى معركة الصراع اللغوى لايخرج سالما ، ولاينجو من سهام الآخر . وهذا هو ماتريد بحثه الآن لنرى مقدار ما لحق كلا من اللغتين العربية والبربرية من سهام الأخرى ، ومدى التأثير المتبادل بينهما .

أما تأثير العربية على البربرية فتأثير ضخم متعدد الجوانب ، ويتضح ذلك من النسب والبيانات الآتية :

١- يقول جوستاف لوبون : لقد تعربت البربرية - كما تعرب البربر أنفسهم - نتيجة لاتصالها باللغة العربية ... وإن نحو ثلث البربرية التى يتكلم بها سكان منطقة القبائل الكبرى يتألف من كلمات عربية . وأمر طريف مثل هذا يثبت لنا مرة أخرى مقدار تأثير العرب العظيم الذى لم يكتب مثله لأية أمة أخرى . ومن هذه الأمم اليونان والرومان الذين دام سلطانهم فى شمال إفريقية دوام سلطان العرب ، من غير أن يبقى للغتهم أى أثر فى اللغة البربرية [١] . ومن الكلمات العربية التى دخلت البربرية ، وقد راعينا أخذها من لهجات مختلفة[٢]. ما يأتى :

أ- هذه أبيات بالبربرية الميزابية للشاعر باجو صالح وتحتها ترجمتها الحرفية:

يلُولد ســـيدْنا مُحَمّد　　تَضَنْـوا الدُّونـيت أسْ الأنـوار
ولد ســـيدنا محمد　　وأشـــــرقت الدنيا بالأنوار
أرَبِّى زَالْ اتْسَـلّمَدْ　　فْوَاسِي سَجْدَ نْتَاس الأشجار
اللهــم صـل وسـلم　　على من سجدت له الأشـجار
تُوليدْ تَزِيرى نْرَسُول　　تْشَعْشَعْ أمَاس نِيجَـــنْوان
طلع بدر الرســـول　　وأشـــرق فى كـــبد السماء
تْفَكْرَانَغْ آسْ إيديلُول　　يا اللـــه آنّـــاوِى إيَزلْـوانْ
فذكرنا بيــوم ميلاده　　هيا ننشـــــد أناشيد الأفراح

---

(١) حضارة العرب ص ٢٤٧ . وقد وردت نسبة الثلث كذلك فى تاريخ المغرب الكبير لدبوز ٤١٤/٣ .

(٢) يلاحظ أننا نمثل بأمثلة من البربرية الحديثة لبيان مدى التأثير العربى ، وذلك لأننا نعتقد أن هذا التأثير يرتد - ولا شك - إلى فترة الصراع بين اللغتين ، وهى فترة لا تتجاوز القرن السادس كماسبق أن ذكرنا .

وفى القصيدة كلمات أخرى مثل :

سَعْدك = ما أسعدك

يَمُوتْ = توفى

باباس = أبوه

إيمْشَرَكَنْ = المشركون

عَنْجال = من أجل

سالمعجزات = بالمعجزات

سحَّار = ساحر

سِلْمُعْجِزَاتَس = من معجزاته .

ومن الكلمات العربية الصرف فيها :

الكفار - القرآن - الإسلام - الحج - أرسول (أى : يارسول . ولاحظ همزة النداء) - الوقت - المحشر [١] .

ب- وفى بحث عن لهجة الشلحا التى تتكلم فى جنوب غربى مراكش ، وتعد واحدة من أكثر اللهجات البربرية انتشارا يقول Applegate : «وقد أثرت العربية على اللهجة كما يمكن أن يرى فى طرق العدّ . فهناك طريقتان : إحداهما تستعمل كلمات الشلحا ، والأخرى تستعمل كلمات عربية . وإن العد بطريقة الشلحا يستعمل بوجه عام بين النساء ، وكذا رجال المناطق النائية ، فى حين أن العد العربى يستعمله الرجال العاملون فى أعمال متصلة بغيرهم» [٢] . ومن قائمة الكلمات التى ذكرها المؤلف نلتقط الأمثلة الآتية ، والأصل العربى واضح فيها كل الوضوح .

---

(١) ديوز ١/٥٥ - ٥٨ .

(٢) An Outline of the Structure of Shilha ص ٣ من التصدير .

أفلح	= فلاح
أجزار	= جزار
أربعة	= أربعة
السلام عليكم	= السلام عليكم
باب الفرْح	= مفرح
بْدو	= يبدأ
هبْل	= سفيه
حرْك	= يحرك
حرْم	= يحرم
حكم	= قاض[1] .

جـ- ومن الكلمات ذات الأصل العربى المستعملة فى بربرية منطقة الجبل الغربى :

سبْتْ	= السبت
لحدْ	= الأحد (إلخ أيام الأسبوع)
ألقم	= جمل
دهان	= سمن
الحالنّك	= كيف حالك ؟
مايْ إسمْنّكْ	= ما اسمك ؟
كما لعْمْرنّكْ	= كم عمرك ؟
مانى تسكنَنْ	= أين تسكن
رمْضان	= رمضان[2] .

(١) المرجع ص ٤٥ – ٥٥ .

(٢) المؤثرات الأجنبية فى عامية ليبيا . بحث مخطوط للأستاذ عبداللطيف سويسى ص ٤ – ٦ .

د- ومن كلمات اللهجة الطوارقية :

إلمَحَراث	= المحراث
إطَيَّارْ	= طائرة
أما ضَانْ	= راع
إلْقَلَمْ	= القلم
إلْكِتَاب	= الكتاب
حيوان	= حيوان
إلاحاد	= الأحد
إلغاميس	= الخميس[١] .

٢- على الرغم مما أثر عن الطوارق من حروف كتبت بها لهجتهم من قديم ، فهم يكتبون بحروف عربية سواء العربية أو البربرية[٢] . ومثل هذا يصدق على سائر اللهجات البربرية ، فقد ذكر الأستاذ دبوز أن الكتب التى ألفت بالبربرية كتبت بالحروف العربية ، حيث كانت الكتابة البربرية قد اختفت حروفها من المغرب فى وقت مبكر ، وبقيت فى أعماق الصحراء الكبرى فى قبائل صنهاجة وغيرها ، ولم يبق منها فى المغرب الأوسط إلا حروف يستعملونها فى النقش والطراز والنسج حلية[٣] .

٣- أن معظم المؤلفات التى ألفها علماء من البربر قد كتبت باللغة العربية ، مثل الإيضاح للشيخ عامر الشماخى ، وقناطر الخيرات للشيخ إسماعيل

---

(١) المرجع ص ٧ ، ٨ .

(٢) Encyclopaedia Britannica ٤٩٦/٢ .

(٣) ٤١٤/٢ .

الجيطالي، والقواعد في الشريعة الإسلامية للمؤلف السابق ، والوضع لأبي زكرياء ، والسير للشماخي ، والطبقات للدرجيني ، وسير الأئمة لأبي زكرياء ، ومدونة ابن غانم في الحديث [١] . وكذلك ماروى من آثار أدبية نثرية أو شعرية عن أدباء البربر ، فلا تجد فيها أي مسحة بربرية ، ولا تكاد تميز عربيتها عن عربية أي بلد عربي آخر [٢] . وقد فشلت المحاولات التي بذلها بعضهم لجعل البربرية منافسة للعربية في مجال التأليف فنظموا بها الشعر ، وترجموا إليها الكتب والدواوين ، حتى لقد نقلوا القرآن إليها . ولكنها – على حد تعبير الأستاذ عثمان الكعاك – «كانت كأعمال من يبني صروح الورق فوق السافيات الذاريات فلم تمض عليها عشية أو ضحاها حتى هوت أركانها وانطمست آثارها» [٣] .

٤- يقول الأستاذ إبراهيم الكوني في بحث له عن الطوارق ، معقبا على قول جوستاف لوبون : «إن البربر في شمال إفريقية يتحدثون اللغة العربية بنسبة الثلث في لغتهم الأصلية» : «وهذا ما حدث بالنسبة للغة الطوارق أيضا . وهذا التأثير يتجاوز الأطر اللفظية إلى صلب قواعد اللغة» [٤] .

٥- وقد دخلت البربرية بعض الأصوات التي لم تكن موجودة فيها ، وذلك تحت تأثير اللغة العربية مثل صوت العين . ومما يدل على دخول هذا الصوت البربرية مؤخرا عدم وجود رمز مستقل له عندهم [٥] . ويقول الأستاذ دبوز :

(١) دائرة المعارف الإسلامية – تعليق اطفيش رقم ١ ص ٥١٨ ، ٥١٩ في مادة بربر ، ودبوز ٣/٣٨٩ – ٣٩١ .

(٢) انظر : النشاط الثقافي في ليبيا للمؤلف ، مبحث الأدب في ظل الاباضيين ص ١٧٨ وما بعدها .

(٣) المجتمع التونسي في عهد الأغالبة ص ٣٧ .

(٤) جريدة الثورة عدد ١٩٧٠/١/٦ .

(٥) انظر ما سبق أن كتبناه عن الخط البربري .

«إن كتابة الطوارق فى الصحراء الكبرى – وهم الذين حفظوا لنا الخط البربرى باستعمالهم له حتى الآن لا تجد فيها حرف العين . ولو اقتبس البربر القدماء حرف العين من الفينيقيين القدماء لوجدناه فى كتابتهم»[١] .

* * *

أما آثار البربرية على العربية فجد ضئيلة ، بشكل لافت للنظر . ولعل السبب فى ذلك يكمن فيما قاله الدكتور وافى : «لأن الصراع بين العربية والبربرية لم يكن عنيفا ولم تلق فى أثنائه اللغة الغالبة مقاومة شديدة من جانب اللغة المقهورة كانت الآثار فى اللغة العربية الغالبة ضئيلة»[٢] ، أو فيما قاله الأستاذ عثمان الكعاك من أن «اللغة البربرية وإن كانت لم تزل لغة أقوام كثيرين إلا أنها لم تبلغ فى عمرها درجة البيان ، ولم تسم إلى مستوى الأدب ... على أنها لها طنطنة عند التلفظ بها تذهب بما للغات من جمال الرنة الموسيقية وعذوبة المسمع ... وهى قليلة المفردات، ضيقة النطاق فى التعبير ، لأنها لم تكن لغة أدب أو علم . وهى لم تجار سواها من اللغات المستعملة ...»[٣] ، أو فيما قال الأستاذ سويسى عن «انكماش البربر فى شبه عزلة ، حيث إنه من الملاحظ أنهم يكونون ما يشبه مجتمعا داخل المجتمع، مجتمعا له تقاليده وعاداته ، لدرجة أنهم لايتزوجون من العرب ، ولايعطون بناتهم للعرب لأجل الحفاظ على الدماء البربرية الأصلية على حد زعمهم»[٤] .

---

(١) ١/٦٤، ٦٥ . ويلاحظ أن الكاتب لم يكن دقيقا فى ادعائه أن الطوارق هم الذين حفظوا لنا الخط البربرى .

(٢) علم اللغة ص ٢١٣ .

(٣) المجتمع التونسى فى عهد الأغالبة ص ٣٧ .

(٤) المؤثرات الأجنبية فى عامية ليبيا ص ٣ .

ومن بين هذه الآثار القليلة نذكر :

١- أسماء الأمكنة التي تبدأ بـ «تاء» علامة التأنيث في البربرية ، مثل تاجورة وتاغرمين وتاغمة وتاورغا [١] . وهنا مجموعة أخرى من الأسماء البربرية لاتبدأ بالتاء مثل زنزور وغدامس .

٢- كلمة «للّه» التي تعني المرأة المعظمة . وهناك بئر تعرف باسم «بئر اللّه» حفرتها سيدة من الأسرة القرمنلية التي حكمت طرابلس . وقد أخذ العرب هذه الكلمة من البربر ، وصاروا يستعملونها في تعظيم المرأة ، كما استعملها البربر . وكانت مستعملة أيضا في بيوت رؤساء الحكومات من الترك في طرابلس يطلقونها على النساء للتعظيم [٢] .

٣- من المعروف أن اللغة العربية لاتبدأ بساكن ، في حين أن البربرية يكثر فيها البدء بالساكن [٣] . والظاهرة التي تلفت النظر في عامية المغرب كثرة بدئها بالساكن . فكلمات مثل بحر ويصل ومطر تنطق بْحر ومْطر ويْصل . بل أكثر من هذا نجدهم ينطقون كلمات مثل محمد كما لو كانت مْحمد ويكتبونها بهمزة وصل قبلها هكذا : امحمد . ولا يبعد أن تكون هذه الظاهرة قد وجدت في العامية المغربية بتأثير من البربرية . ويتضح تأثير هذه الظاهرة في نطق كلمة «أبو بكر» اسم مكان في ليبيا ، إذ تنطق «بُوبْكر» وهو النطق البربري للكلمة [٤] .

---

(١) الزاوي : معجم البلدان ص ٧٦ ، ٧٨ .

(٢) المرجع ص ٥٠ .

(٣) انظر ما سبق أن كتبناه عن خصائص اللغة البربرية .

(٤) الزاوي : معجم البلدان ص ٦٧ .

ومع هذا فمن الممكن أن يخرِّج النطق المغربى لكلمات مثل : بحر ومطر ويصل بأحد وجهين عربيين هما :

١- أنه جاء وفقا للهجة العربية التى تقف على آخر الكلمة بالتشديد إذا كان الحرف الأخير صحيحا متحركا فى الوصل[1] .

٢- أنه جاء على نطق من ينقل النبر من المقطع الأول (كنطق المصريين) إلى المقطع الثانى ، وانتقال النبر من مقطع إلى مقطع ظاهرة شائعة فى الفصحى واللهجات .

ويرد بعضهم[2] قلب الجيم زايا فى النطق الليبى لبعض الكلمات العربية إلى التأثير البربرى مثل كلمة «زَوْج» التى تنطق (زُوز) ، و «زنزور» (اسم مكان) التى يدعى أن أصلها جنزور ، و «زَرْدة» التى يدعى أن أصلها جردة ... وهكذا . ويؤيد هذا الفرض بما قاله ابن خلدون عند تفسيره لكلمة «زناتة» من أن أصلها مشتق من الاسم «جانا» ، وهو أبو القبيلة ، فجُمع أهل القبيلة فى اسم «جانات» ، ولم يكن ينطق البربر بهذه الجيم من مخرج الجيم عند العرب فهم يبدلونها زايا محضة، فصارت «زانات» . ونحن وإن كنا نسلم بما قاله ابن خلدون فلا نسلم بما رتبه عليه الباحث من آثار . فقلب الجيم زايا عند الليبيين مشروط بمصاحبة أصوات معينة مثل الزاى والسين بقصد تحقيق نوع من الانسجام الصوتى Sound harmony ، وذلك فى كلمات مثل عجوز (عزوز) وزوج (زوز) وجنس (زنس) وجبس (زبس) . أما كلمة زنزور التى ذكرها الكاتب فهى كلمة بربرية

---

(١) شرح الشافية ٢/٣١٤ ، ٣١٥ ، والصبان الأشمونى ٤/٢١٠ .

(٢) محمد فريد أبو حديد : «بعض ملاحظات فى اللهجة الليبية» – المؤتمر الخامس والعشرون لمجمع اللغة العربية بالقاهرة ص ١٤٥ .

صرف ، ويخطىء من ينطقها جنزور بالجيم . وأما كلمة «زردة» التي يدعي أن أصلها جردة ، فلا دليل على دعواه ، والمادة بالزاي تدل على معنى الاستدارة أو التحلق ، كما تدل على معنى الازدراد والبلع ، وكلاهما ملحوظ في «الزردة» حيث يتحلق المدعوون ويزدردون الطعام .

وأخيرا نرد إلى كلمة «هلّبه» وجهها العربي ، بعد أن ادعى بعضهم كذلك أنها لفظة بربرية . فالمادة في كتب اللغة العربية تدل على معنى الكثرة والزيادة ، وهو نفس معناها في عامية المغرب . ففي لسان العرب : رقبة هلباء كثيرة الشعر ، وعام أهلب أي خصب ، وهلبتهم السماء بلّتهم وأمطرتهم بجود ...

ونختم هذا الفصل بكلمة جوستاف لوبون التي يقول فيها : مع أن الفاتحين الذين ظهروا قبل العرب لم يستطيعوا أن يفرضوا على الأمم المغلوبة لغاتهم ، قَدَر العرب – على العكس من ذلك – على فرض لغتهم عليهم . ولما صارت اللغة العربية عامة في جميع البلاد التي استولوا عليها حلت محل ما كان فيها من اللغات كالسريانية واليونانية والقبطية والبربرية ... وكان للغة العرب مثل ذلك الحظ زمنا طويلا ، حتى في بلاد فارس ، على الرغم من يقظة الفرس . أي ظلت اللغة العربية في بلاد فارس لغة أهل الأدب والعلم . وظل الفرس يكتبون لغتهم بالحروف العربية ، وكتب ما عرفته بلاد الفرس من علم الكلام والعلوم الأخرى بلغة العرب . وللغة العربية في هذا الجزء من آسيا شأن كالذي كان للغة اللاتينية في القرون الوسطى . وانتحل الترك أنفسهم وهم الذين قهروا العرب الخط العربي . ولاتجد في تركيا إنسانا على شيء من التعليم لايستطيع أن يفهم لغة القرآن بسهولة»[1] .

---

(١) ص ٤٤٠ .

مراجع القسم الثانى

أولا : المراجع العربية

١- أحسن التقاسيم للمقدسى - بريل ١٩٠٦ .
٢- الأدب المغربى - محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفى - ط بيروت ١٩٦٠ ط أولى .
٣- أزمة المغرب الأقصى - روم لاندو ، وترجمة محمد إسماعيل وحسين الحوت - الأنجلو ١٩٦١ .
٤- الأزهار الرياضية فى أئمة وملوك الأباضية - البارونى - القسم الثانى .
٥- إفريقية الأرض والناس - محمد عبدالفتاح إبراهيم - الأنجلو المصرية .
٦- انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية - حسن إبراهيم حسن - النهضة المصرية - ط ثانية ١٩٦٣ .
٧- بعض ملاحظات فى اللهجة الليبية - محمد فريد أبو حديد - مجموعة البحوث والمحاضرات التى ألقيت فى مؤتمر المجمع ، ٢٥ ، ١٩٦٠ .
٨- البيان المغرب - ابن عذارى :
(أ) تحقيق كولان وبروفنسال - ليدن ١٩٤٨ .
(ب) مقتبس فى «ليبيا فى كتب التاريخ والسير» .
٩- تاريخ الجزائر فى القديم والحديث - مبارك الميلى - المطبعة الجزائرية - قسنطينة .
١٠- تاريخ الفتح العربى فى ليبيا - الطاهر أحمد الزاوى - دار المعارف بمصر - ط ثانية ١٩٦٣ .
١١- تاريخ اللغة العربية فى مصر - د. أحمد مختار عمر - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠ .

١٢– تاريخ ليبيا منذ الفتح العربى حتى مطلع القرن التاسع الهجرى – د. إحسان عباس – دار ليبيا للنشر والتوزيع .

١٣– تاريخ المغرب العربى – د. سعد زغلول عبدالحميد – ط دار المعارف بمصر.

١٤– تاريخ المغرب الكبير – محمد على دبوز – ط أولى – ط الحلبى .

١٥– التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار – ابن غلبون – تحقيق الزاوى – ط ثانية ١٩٦٧ .

١٦– ثورات البربر – د. حسين مؤنس – مقالة بمجلة كلية الآداب – جامعة فؤاد الأول – مايو ١٩٤٨ .

١٧– جرمة فى عصر ازدهارها – محمد سليمان أيوب – بحث مقدم للمؤتمر التاريخى (١٦ – ٢٣ مارس ١٩٦٨) بليبيا .

١٨– جريدة الثورة ٦-١-١٩٧٠ – بحث بعنوان الطوارق – إبراهيم الكونى .

١٩– الجواهر المنتقاة – أبو القاسم بن إبراهيم – مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٨٤٥٦ ح .

٢٠– حضارة العرب – جوستاف لوبون – ترجمة عادل زعيتر – ط رابعة ١٩٦٤.

٢١– دائرة المعارف الإسلامية – الترجمة العربية .

٢٢– دائرة المعارف البستانى – ط بيروت ١٨٨١ .

٢٣– الدعوة إلى الإسلام – توماس أرنولد – ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين – النهضة المصرية ١٩٥٧ .

٢٤– الرباطات الساحلية الليبية – د. محمد عبدالهادى شعيرة – بحث مقدم للمؤتمر التاريخى بليبيا (١٦ – ٢٣ مارس ١٩٦٨) .

٢٥– رحلة التجانى – تقديم حسن حسنى عبدالوهاب – ط تونس ١٩٥٨ .

٢٦- الرحلة المغربية للعبدرى :
(أ) تحقيق وتقديم محمد الفاسى - الرباط ١٩٦٨ .
(ب) تحقيق أحمد بن جدو - الجزائر .
٢٧- سكان ليبيا عند اليعقوبى - د. عبدالقادر طليمات - بحث مقدم للمؤتمر التاريخى (١٦ - ٢٣ مارس ١٩٦٨) بليبيا .
٢٨- السلالات البشرية - د. يسرى عبدالرزاق الجوهرى - ط أولى - ط المعارف ١٩٦٦ .
٢٩- الشعوب والسلالات الإفريقية - د. محمد عوض محمد - الدار المصرية للتأليف والترجمة .
٣٠- الصحراء الكبرى - ريمون فيرون - ترجمة د. جمال الدين الدناصورى - سجل العرب ١٩٦٣ .
٣١- صور من وحدة الفكر العربى فى إفريقية - د. عبدالمجيد عابدين ، القاهرة ١٩٧٠.
٣٢- طبقات علماء إفريقية وتونس - أبو العرب - تحقيق على الشابى ونعيم حسن مؤنس .
٣٣- ظهر الإسلام - أحمد أمين - النهضة المصرية ١٩٦٢ .
٣٤- علم اللغة - د. على عبدالواحد وافى - نهضة مصر ١٩٦٢ .
٣٥- قادة فتح المغرب العربى - محمود شيت خطاب - ط أولى ١٩٦٦ .
٣٦- القيروان - د. الحبيب الجنحانى - الدار التونسية للنشر ١٩٦٨ .
٣٧- لهجة شمال المغرب - د. عبدالمنعم عبدالعال - دار الكاتب العربى ١٩٦٨ .
٣٨- ليبيا بين الماضى والحاضر - د. حسن سليمان محمود - الألف كتاب رقم ٤٢٦ .

٣٩- ليبيا في كتب التاريخ والسير - د. إحسان عباس و د. محمد يوسف نجم - دار ليبيا للنشر والتوزيع .

٤٠- ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات - د. إحسان عباس و د. محمد يوسف نجم - دار ليبيا للنشر والتوزيع .

٤١- المؤثرات الأجنبية في عامية ليبيا - عبداللطيف سويسي - بحث مخطوط .

٤٢- المجتمع التونسي في عهد الأغالبة - عثمان الكعاك - تونس .

٤٣- المجتمعات الإسلامية في القرن الأول - د. شكري فيصل - القاهرة ١٩٥٢.

٤٤- معجم البلدان الليبية - الطاهر أحمد الزاوي - ط أولى ١٩٦٨ .

٤٥- ملامح المغرب العربي -د . عبدالمنعم الشرقاوي ومحمد محمود الصياد - الاسكندرية ١٩٥٩ .

٤٦- الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا - بوفل - (مترجم) الأنجلو ١٩٦٨ .

٤٧- المنهل العذب - أحمد النائب الأنصاري - الجزء الأول ط ثانية والجزء الثاني ط أولى .

٤٨- النجوم الزاهرة - ابن تغري بردي - ط دار الكتب المصرية .

٤٩- النشاط الثقافي في ليبيا - من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر التركي - د. أحمد مختار عمر - الجامعة الليبية ١٩٧١ .

٥٠- ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية - حسن حسني عبدالوهاب - تونس ١٩٦٤ .

٥١- الوضع أبو زكريا الجناوني - (مقدمه المحقق إبراهيم أطفيش) ط أولى - القاهرة .

٥٢- ولاة طرابلس - الطاهر الزاوي - ط أولى ١٩٧٠ .

ثانيا – المراجع الأجنبية

1- AHistory of the Colonization of Africa, Sir H. H. Johnston, sec. ed. 1913 .

2- An Outline of the Structure of Shilha, J.R. Applegate, New York, 1958 .

3- A Study of Race in the Ancient Near East, W. H. Worrell, Cambridge, 1927 .

4- Encyclopaedia Britannica, 1970 .

5- Inscriptions in the Libyan Alphabet from Ghirza in Tripolitania, J. Reynolds and others. Antiquity, 32, 1958 .

6- Libyan Notes, D. Randall-Maciver & A. Wilkin, New York. 1901.

7- Misurata : A Market Town in Tripolitania, G. H. Blake, University of Durham, 1968.

8- Race of Africa, C. G. Seligman, 4th ed., 1960 .

9- Semitic and Hamitic Origins, G. A. Barton, London. 1934.

10- Some Aspects of the History of Libya, Abbas Hamdani,

11- The Bibliography of the Barbary States, Sir R. Lambert Playfair, patr 1. Tripoli and the Cyrencaica, London, 1889.

12- the Eastern Libyans, O. Bates, London, 1914.

13- The Latino-Libyan Inscriptions of Tripolitania, R. G. Goodchild, The Antiquaries Journal, No. 30, 1950.

14- The Mediterranian Race, G. Sergi, London, 1901 .

15- The Middle East Journal, Vol. 2, No. 3, Summar 1957, a review of Joseph Applegate book about the Shilha.

16- The Romance of the Nearest East, A. N. Scott, London, 1921.

كتب أخرى للمؤلف

* تاريخ اللغة العربية فى مصر – الهيئة العامة للتأليف والنشر – القاهرة ١٩٧٠ .
* النشاط الثقافى فى ليبيا من الفتح الإسلامى حتى بداية العصر التركى – منشورات الجامعة الليبية ١٩٧١ .
* البحث اللغوى عند العرب – مع دراسة لقضية التأثير والتأثر – عالم الكتب بالقاهرة ١٩٧١ ، ١٩٧٦ ، ١٩٧٨ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٥ ، ١٩٨٨ .
* البحث اللغوى عند الهنود وأثره على اللغويين العرب – دار الثقافة ببيروت ١٩٧٢.
* أسس علم اللغة – ترجمة عن الإنجليزية – طبعتان ١٩٧٣ ، ١٩٨٣ – عالم الكتب بالقاهرة .
* من قضايا اللغة والنحو – عالم الكتب بالقاهرة ١٩٧٤ .
* ديوان الأدب للفارابى – تحقيق ودراسة – مطبوعات مجمع اللغة العربية بالقاهرة – خمسة أجزاء ١٩٧٤ – ١٩٧٩ .
* المنجد فى اللغة لكراع – تحقيق بالاشتراك – عالم الكتب بالقاهرة ١٩٧٦ ، ١٩٨٨.
* العربية الصحيحة – عالم الكتب بالقاهرة ١٩٨١ .
* اللغة واللون – دار البحوث العلمية بالكويت ١٩٨٢ .
* علم الدلالة – دار العروبة بالكويت ١٩٨٢ ، وعالم الكتب بالقاهرة ١٩٨٨ .
* معجم القراءات القرآنية – ثمانية أجزاء – تأليف بالاشتراك – جامعة الكويت ١٩٨٥ ، ١٩٨٨ .
*– النحو الأساسى – تأليف بالاشتراك – ذات السلاسل بالكويت ١٩٨٤ ، ودار الفكر العربى بالقاهرة ١٩٨٨ .
* المعجم العربى الأساسى – تأليف بالاشتراك – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٨٩ .
* دراسة الصوت اللغوى – عالم الكتب بالقاهرة – ١٩٩١ .
* أخطاء اللغة العربية المعاصرة عند الكتاب والإذاعيين – عالم الكتب بالقاهرة ١٩٩١-

رقم الايداع
٢٥٨١ / ١٩٩٢

الترقيم الدولى
٩٧٧ - ٢٣٢ - ٠٧٧ - ٧

المطبعة النموذجية للأوفست